رواية

أدهم العبّودي

حارس العشق الإلهي

التاريخ السري لمولانا جلال الدين الرومي

الطبعة 15

This file was downloaded from QuranicThought.com

المصري للنشر والتوزيع

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أدهم العبودي

حارسُ العِشق الإلهي

التّاريخ السرّي لمولانا جلال الدّين الرّومي

رواية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

(قالـوا يـا أبَانـا اسـتغفر لنـا ذنوبَنـا إنّـا كنّـا خاطئيـن (97) قال سـوف أسـتغفر لكـم ربّي إنّـه هـو الغفـورُ الرّحيـمُ (98))

(سورة يوسف)

(الظّالم يَبيدُ، وينتهي الخَرابُ، ويَفنَى عن الأرضِ الدّائسون)

(سِفر إشعياء)
(4:16)

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يا الله، يا إنسان، أنا البينُ بين.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عشقٌ يَرى، وعشقٌ يُرى، وعشقٌ يَروِي، ولا يُروَى.
عشقٌ إذًا يروي سيرتَه:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

(إنّك قد رأيت الصّورةَ ولكنّك غفلتَ عن المعنى)

مولانا «جلال الدّين الرّومي»

«تاركُ الدّنيا والتّصنيف - وفق تأريخِ العرب»

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

القسم الأول

المفترق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

شاهين

خوي/ إيران - ٦٤٥ هـ

This file was downloaded from QuranicThought.com

ضريرٌ، يقولونَ ضريرًا، يقولونَ لا أرى، وإن كنتُ أرى ما لا يرون، أتوكأ على بصيرتي، أمسح فضاءات الأمكنةِ بخيالي، نعم خيالي لم يزلْ أبيض، من يُولد ضريرًا بلا عينين لا يعاني من تأمّلات الألوان، أو تشابكاتها المحيّرة، حتّى الأبيض لم أكن أعرفه، بل وُصف لي، فيما يُشبه راحة الذّهن وصفاء الرّوح، فصرتُ أشعر به، هذا الشّعورُ الرّقراق، المنحدرُ من سموات الله البعيدة. الأبيضُ لون قلبي، هذا ما قيل لي، وإن كنتُ كثيرًا ما شعُرت بلؤمي تجاه أمورٍ بعينها في الحياة.

مولاي «شمس»، حدس ذلك منذ ما يناهز الثلاث سنوات وقال لي:

- رغم طيبتك يا «شاهين»؛ تبدو لي ماكرًا بعضَ الأحيان.

وشدّ لحيتي الطّويلة مداعبًا، فضحكتُ، كما لو أنّ فراسته واستشرافه أخجلاني، كيف أدرك مولاي ما لا يُدرك إلّا بتواتر المواقف والعِشرة والاستكشاف عن كثب؟

إنّما، أظنّني ماكرًا ولو بصفة التفكّر، أؤمن أنّ الذي يتأمّل ويتفكّر هو أكثر البّشرِ مكرًا، تجاه بعض المسائل على الأقل، يكفي أنّي أتحسّس طريقي دومًا حتّى وإن طرقتها مرّات ومرّات، علّي أكتشفُ جديدًا، ألا يعُد هذا مكرًا؟ والله خيرُ الماكرين!

«شمس»؛ مولاي، قال لي يومًا:

- اُنظر يا «شاهين» إلى عظمة الله في صنعِ الإنسان، إنّه أشبه بعالمٍ متفرّدٍ في حدّ ذاتِه، مجموعة من العناصرِ المَتشابكةِ تعمل للدّفع

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بالبشريةِ إلى الأمام، لا يُمكن فصلُ بعضَها عن بعضٍ، فإن فعلنا تعطّل كلّ عنصرٍ على حدة، عالمٌ متفرّدٌ منذ يُبذر نطفةً إلى أن يغتاله الشّيب، الإنسانُ كفيلٌ بتحريك الكون إن أراد، إذ أنّ الله نفخ فيه من رُوحه وبعدها منحه خيارات مسالك الطّرق، القدرُ دائمًا ينتظر بنهايةِ كلّ طريقٍ، الإنسان يحدّد مصيرَه وفق اختياراته، لذا؛ إن عشقت اعشق إلهًا، وإن مِتّ مُت نبيًّا.

«شمس»؛ إن رآه عابرٌ محض صدفةٍ ظنّه مجذوبًا، إنّما هو مُلهم الدّراويش وسيّدهم، أعظم من سكنه عِشق الله، وأعظم من تحدّث عنه، ظلّ يؤمن أنّ الكون بأسرِه لم يُخلق إلّا كيما يستكشفه الإنسان، ببصيرتِه قبل عقلِه، كلّ الأدوات مُتاحة، إنّما أُتيحت للأرواح الباحثة، ومهما طال البحث وشقّ، فنهايته وصولٌ، وكلّ الطّرق لابدّ ستؤدّي إلى مصبّ وحيدٍ، هذا إن آمنّا بالطّريق قبل المصير.

وقال لي:

- مع كلّ سطوع شمسٍ، يُولد نورٌ في بصيرة ابن «آدم».

بالأمسِ البعيد، في قريتي المرابضة على حدود مدينة «قونية»، قبل أن أسلك دربَ التصوّف على يد مولاي «شمس»، ويُلهمني الله حلاوة العِشق، اعتدت أن أسأل الأولاد:

- لون الشّمس.. يا أولاد...!

كنت أشعرُ بوخزٍ في جلدي، وخز حرارتها، كأنّ دبيبًا ناعمًا يسري في مسامي، كان الأولادُ يتندّرون بي:

- أحمر.. أخضر.. أزرق..

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ويضحكون، سألني أحدُهم:

- وهل تعرف الألوانَ أصلًا أو معناها؟ كلّه مُتشابه.

حقيقةً، لا أعرف معنى الألوان، إنّما؛ أقول في سرّي: لونُ الشّمس يا أولاد لون الحلم، لونُ الشّمس لونُ صبيّة قلب عاشق، لونُ الشّمس لونُ العشق، لونُ الشّمس...

وهل كنتُ أعرف معنى العشقِ نفسه؟

هل العشقُ والشّمسُ مترادفان حقًّا؟

ثم أين الشّمسُ؟ لعلّ الشّمسَ بدعةٌ من بِدع الأولاد..!

عندما كان يلعب الأولادُ في مطلع كلّ صباح، يستأنس بهم قلبي، إنّما لم أكن أستطيع مشاركتهم اللّعب، فإذا أعدّوا سباقًا للجري، تابعتُهم بأذني، وإذا تباروا في العومِ داخل تفرّعات النّهر، وقفتُ على الضفّة لأشعر برذاذِ الماء.

سألوني كثيرًا - بفطرةٍ بريئة غير مشبوهة - عن شعوري بعدم إحساسي بلونِ الشّمس، هل لذلك أثرٌ في نفسي؟ ولم أكن أعرف مدى تراكم مسألة لا إحساسي بكلّ ما هو مرئي داخل رُوحي، هل يُمكن أن يُدرك الغيبُ بمجرّد الفرض! يُمكن فقط أن يتخيّلو نه.

كثيرًا ما سألتُ نفسي: ماذا لو غابت الشّمسُ عن بلدتِنا الصّغيرة؟ ولم تطلع بعد ذلك! كنتُ أُجيب نفسي: وهل يفرق هذا معي؟ طالما لم أرها، فالشّمسُ مجرّد حكاية، هزليّة ربّما، خرافية، من حكايات الدّنيا المنسيةِ بتعاقب الزّمن.

This file was downloaded from QuranicThought.com

لونُ الشّمسِ لون «كيرا» المسيحية، لونُ ضحكتها، لونُ عشقها.

كلّما راودتْ ذهني، قلت: «كيرا» سلامًا.

أجل كنت مضطرًا للحبِّ الصّامت.

يحكي الأولادُ: تجري «كيرا» متدلّلة بعيدًا عن قرصة يدّ «آزاد» لخدّها، دائمًا ما تشعر «كيرا» بالخجل، نبتَ من صدرها رمّانتان صغيرتان وأدركتْ أنّها لم تعُد مجرّد طفلة، صارتْ صبيّة، وما أخطر الصّبايا على خيال الأولاد، بل ما أخطر الأولاد على قلوب الصبايا!

يحكي الأولادُ: قال لها أبوها؛ إن لمسك ولد سأقتلك. لكنّها قالت لأمّها: وهل لمسُ الأولاد حرامٌ؟ فقالت لها أمّها: كلّا يا «كيرا»، لمسُ الأولاد عسلٌ، لكنّه عسلٌ مرّ. وقالت: ستعرفين يومًا معنى لمسةِ ولدٍ. وقالت: عليكِ بالصبر.

«كيرا» أدركها الصّبرُ قبل أن تعرف معناه، إنّها تنتظر أن يطرح جسمُها منذ زمنٍ.

وأقول: أمّا أنا أنتظر أن تعود الشّمس لعينيّ كي أبوح يا «كيرا»، لكنّ الشّمسَ لا تعود إلّا في حكايات الخيال.

يستمرّ الأولادُ في ترسيخ الحكاية: عندما قرصهَا «آزاد» في خدّها أجفلتْ، وارتعشَ جسمُها وساب، وأحسّتْ لمَ حذّرها أبوها، فجرتْ بعيدًا واختبأتْ خلف شجرةٍ وارفةٍ في آخرِ القرية. وقالتْ لنفسها: لن ألعب مع الأولادِ ثانيّة، فقد يقتلني أبي.

إنّما قالت كذلك: لكن الولد الوحيد الذي سألعب معه هو

This file was downloaded from QuranicThought.com

«آزاد»، رغـم قرصاتِـه الماكـرة.

«آزاد» يحبّهـا، وكاشـفها صراحـةً بهـذا، لأنّ لـه عينـين تريـان، وتترجمـان المعـاني، هـي لا تعـرف غايـة الحـبّ، تعـرف أنّـه راحـة، واطمئنـان، ولعـب، الحـبُّ لعـبٌ في لعـبٍ، وفرحـةٌ.

حيـث كان الأولادُ يحاصرونهـا بألعابهـم الذّكورية، يظهـر «آزاد»، ويدافع عنهـا، ويناطحهم، «آزاد» قوي، لكـنّ عاطفتَه نحوها أقوى، كاد يفتـك بولـدٍ مـن قبـل، لأنّه حطّ يـدَه فوق كتـف «كيرا».

بالطبـع، كنـت أتلصّـص بـأذني مـن بعيـدٍ عـلى سريـان الحكايـات وتكاثرهـا، ألسـنةُ الأولاد – بفطرتِهـا – لا تكتفـي ولا تتحـرّج مـن تناقـلِ الحكايـات، تابعتُ قصّةَ حبّهـا، وكان قلبي وقتـذاك ينزفُ من فـرطِ العـذاب، فمكتـوبٌ هـذا الحـبّ عـلى البّـشر، البّـشر المكتملين فقـط، ومثـلي لا يُمكـن لـه أن يُبادِل الحـبَّ بحبٍّ، مثلي خُلـق ليتقصّى أثـر العذابـات بـين دروبِ هـذي الحياة.

كان الجمـوحُ الـذي يـراود الأولادَ في سـنّي جموحًا مُضحِـكًا؛ لكنّه مـع ذلـك جموحُ الفطـرةِ والبداهـة، مراقبـةُ الفتياتِ بالأعـين، الهمسُ الصّامـت، الاسـتمناءُ في المنـام بإحداهـنّ، أمّـا أنـا، فجموحي يكون إذا مـررتُ مصادفـةً وسـمعت صـوت «كـيرا»، أو سـمعت طرقات يدِهـا على بـابِ بيتنـا، فأهـرول ناحية البـاب – فقـط – لأعبّق خيالي برحيقِ جسـدها.

في «كـيرا» كنـت أشـمّ رائحةَ الشّـمس، أطلقـتُ عليهـا بيني وبين نفـسي لقـب: «بنـت النّهـار»، فـإذا أردتُ الإحسـاسَ بالنّهـار كان

This file was downloaded from QuranicThought.com

عليّ أن أكون قُرب «كيرا»، قُرب محيطها، ولو عبر الخيال، ثم إذا ابتعدتْ «كيرا» عن دائرة إحساسي، يجيء اللّيل.

فإذا جاء اللّيلُ؛ استحضر ذهني كلّ خيالاتي الخبيثة.

أمرّرُ أناملي فوق وجه أمّي، أحاول استشعارَ معنى الملامح، وكيف يُمكن أن يصنع خيالي صورةً أقرب للواقع، إنّما كان خيالي كسولًا، إذ كلّما حاولت تقريب الأشكال وبلورتها انحرف الخيالُ، فرأيت الله مستديرًا وله بطنٌ كُبرى، ثمّ سرعان ما استغفرت وبدّلت شكلَه، فرأيته كألّا حدود له، وبدا لي أشبه بدخان ينتشر في فراغات الخيال، كنتُ كلّما رأيته بأكثر من شكلٍ استغفرتُ، لكن قالت لي أمّي:

- حاول تذوّق طعم الله، سماع صوتِه في داخلك، وسيهب بصيرتَك صورةً وافية لن تتبدّل ولن تفنى.

كنتُ أقضم ثمرات الفاكهة، وأظلّ ألعق بلساني محاولًا -دون جدوى- تذوّق طعم الله في فمي، أو ألصق أذني بشقوق الجدران أتنصّت للصفيرِ الخافتِ القادمِ من أعماقها، ولم أسمع صوت الله.

في النّهاية، كانت أكثرَ صورةٍ نورانيةٍ راسخةٍ في ذهني هي صورةُ «كيرا»، فقلتُ:

- إذًا «كيرا» هي الله.

فسلامًا «كيرا»، أين كنتِ، وأين صرتِ.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جلال الدّين محمّد بلخي

بلخ –خراسان –٦١٥ هـ

(قال معشوقٌ لعاشقٍ: لقد طوّفت في الكثير من المدن، فأيّها أعجبك أكثر؟ قال العاشقُ: تلك التي فيها من اختَطَف قلبي).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

(خراسان -أرضُ شروقِ الشّمس)

في اللّيلة التي فاضت فيها رُوح أمّي، تشاجرت مع الله، بدوت ساخطًا، شعرتُ أنّ العالم ضالٌّ وقبيحٌ، وأنّه ليس من ثمّة معنى في تجميل مشاعرنا تجاه السّماء، إنّ الله لابدّ غفا أو تكاسل وترك العالم يطيش وينحرف، كانت الفوضى تسكن طبيعة حركة الأشياء من حولي، فوضى مُرعبة، أصلُها هجرٌ وتخلٍّ.

صعدت إلى سطح البيت، ومددت رأسي ليراني، صحت به: أما كفاك!

لكنّه بدا لم يسمعني، تطاولت أكثر فأكثر، صرخت في يأس مهزومٍ: ضاع كلّ شيء بسبب قدرك!

وإنّما كانت السّماء راسخة فوقي بلا مبالاة، ولا كأنّ راوية الحكايات المُلهمة قد رحلت، ولا كأنّ لها ابنًا سيحترق كمدًا، ولا كأنّ الله خلق هذه المُدن التي أهرقها الطُغيان والذّل.

من شدّة صراخي، بُحّ صوتي، فانهرت، دفنت رأسي بين ركبتيّ، وانطلقت في البُكاءِ، هل هذا هو البُكاءُ الصّادقُ يا الله؟ هل كلّ هذه الدّموع الحبيسة كفيلة بترجمة الأسى والحسرة اللذين يحاصرانني وينخران في قلبي المضطرب الآن؟

هل أنت حقيقيٌ، أم مجرّد أسطورة صنعها ابن «آدم» ليلوذ بها جزافًا يوم يشعر أنّه مجرّد ورقة شجر يابسة في مهبّ ريح؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

لكنّـي في لحظـة رأيـت أمّي تدنـو منّـي منحدرةً مـن فجـوةٍ نورانية قـدّت في السّـماء، كانت ترتـدي ثوبًا مصنوعًا من ورق الشّـجر، وعلى جبهتها مكتـوبٌ: إنّ الله قريبٌ.

كانـت تدنـو، وسـاقاها تغوصـان في بطـنِ فـرسٍ شـفّافة، الفـرسُ كانـت لا لـون لهـا، بـل مجـرّد ضـوءٍ باهـرٍ سـاطعٍ، ملامحُهـا كضبابٍ نـوراني، كانـت أمّـي تمتطيها وجسـدها بدا ملتحـمًا بها، تحدّثـت أمّي، همسـت، ولم يكـن صوتُهـا بشريًا:

- أنا الحقيقة، وليسَ من حقيقةٍ إلّا ما يكونُ بأمري.

* * *

العِشـقُ نـورُ كلّ الخيـالات، مثل نـورِه كقلبٍ فيه فيـضٌ لا ينضب، الفيـضُ يرمـي صاحبَـه ولا يُرمـى إليـه، فالعِشـق يرنـو ولا يُرنى له، أنـا السّـائر في مهـبّ احتياجٍ، شـوقي كشـوقِ أسـيرٍ لحريّـة، وحريّتي بـك وفيـك مشـاعٌ لمن ضلّـوا، كأنّما هُـدىً من بعـد تيهٍ، يُوقـد من نبع إيقـانٍ، لا مجبـور ولا معـذور، إيقاني يـا ربّي نواةٌ تصنـع للعالمين ملاذًا أخيرًا.

تُؤتـى المباهـجُ ذات ليـلٍ لا يخطـر على بـالِ عاشـقٍ، في اللّيـلِ لؤلؤةٌ تتدنّـى للنّاظريـن، ليـس كمثلِها لؤلـؤة، نجمة تهبـط من متنِ السّـماء في إبـاء وتدلّـل، كأنّما تناولني نفسَـها، أمـدّ لها يدًا ضبابيّـة، أكاد— من روعهـا - أتـدرّج طيفًـا في ارتقـاءٍ لم يكـن لبـشرٍ، وتعاقـرني الهواجس الحالمـة، يتخلّلنـي وهجهـا ويسـتحكم بفـؤادٍ قبـل العقـل، فـأراني مأسـورًا ومُرابطًـا عـلى الحـدّ بـين مسـافتين؛ مسـافة الحُلم، ومسـافة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

النّور، أصدح باللّحن ولست بطيرٍ، أتخشّع ولست بجبلٍ، أتمايل ولست بشجرٍ، وربّما خفق فيّ جناحان ولست بملاكٍ، جزءٌ من رُوحي ينازعني ويشدّني إلى الأرض، جزءٌ مدسوس عليّ، غير أنّ الجزءَ الأكبر – أظنّه النّوراني – ظلّ يُباشر رفرفته نحو السّماء، أجل إن هي إلّا سماء الرّب، سماء البُشرى والنّغم والمستقرّ الأخير.

الأصوات متفرّقة، لا يُمكن أن تستوضح أذني صوتًا بعينه، لا نبرة مميّزة، ولا هاتف واضح، الأصوات متداخلة، عصيّة على التفسير، لكنّ طرفَ عيني يستمسك بالسّماء، والنّجمة كأنّها قُدّت لأجل غوايتي، النّجمة ترهج، وفي الأفق هناك، يبدو جُرحٌ غائر، فصدر السّماء – ولو بلون اللّيل – بدا ينزف دمًا، أصعد برُوحي، أكثر فأكثر، تستبدلني السّماء بنجمتها، فأجدني راشقًا في العُمق من الجُرح، متلألئًا مثل فكرة لا تموت، أستكشف الجُرح، وأحوّط على الدّم بيدين عاجزتين، أحجز سادًّا منفذ الجُرح، بلا جدوى، يُلهمني الله من كشفٍ آنٍ، فألملم سحابات نافقة وأطويها بين راحتيّ، كيما أصنع بها رتقًا لجُرح السّماء، على مهل أرتّق الجُرح، وأحشوه بالسّحاب، على مهل أحجب النّزيف، على مهل تسحبني بطن السّماء داخلها، فأنزلق لأعلى، ينغلق الجُرح على أسرار لم يكشفها غيب، وينغلق عليّ، ها أنا مغادر إلى أعلى طبقةٍ في السّماء، مغادر بوعي النّزيف، أودّع كلّ شيء أسفل البصر، أبي وأمّي وأحبّتي، أترك مدينتي الأثيرة «بلخ» بشوارعها وسهوبها وحدائقها وأنهارها وبشرها.

* * *

This file was downloaded from QuranicThought.com

«بلـخ» مدينتـي؛ جنّـة الأرض وقاهـرة الأزمنـة والغُـزاة، أمّ المدن قاطبـة، يقطعهـا رافـد نهـر «آمودريـا» ليمـرّر عبرهـا نفحـات الإلـه القديـر، ويتضـوّع في محبّـة أراضيهـا الحُبـلى بالخـيرات منـذ الأزل، دونـما انقطـاع، يتفـرّع داخـل أرضهـا ليصنـع حدائقَ مـن الاخضرار والزّهـو، تفـوح روائحهـا لتنتشر عـلى آمـاد الهـوى، ترابُها الـوفيّ يهبنا أطيـب الغـلال والحبـوب والأسـمدة التـي تسـافر إلى «خـوارزم» و «خراسـان» و «جزيـرة العـرب»، وكنّـا في صهـد الصّيـف نغطـس في تـلال الحبـوب المصحونـة، كانـوا آباؤنـا يخزّنوهـا في صوامـعٍ مجـاورةٍ لطواحـين الهـواء، وفي كلّ موسـمٍ يبلّطـون هـذه الطّواحـين، المصنوعـة مـن الخشـب، بالطّين والقـشّ، ثـم يدهنونها بالقـار، حول كلّ طاحونـة شُـيّدت صومعـة لتجميـع ما تطحنـه الطوّاحين أسـفل رُحاهـا، تـأتي الرّيح، فتـدور ريّش الطواحـين، وتدور معهـا الرُّحى، ونسـمع صوت اندهـاس حبّات الغـلال عندما يلفّ حجـر الرّحايا، صـوت كصوت تكـسّر حطبِ الشّـجر تحت الفـؤوسِ، وعنـد انتهاء موسـم طحن الغلال، تدور الطواحين لتسـحب ميـاه النّهر إلى داخل بـدن أرض «بلـخ»، لـتروي الزّراعـات المفـرودة بامتـداد البصر.

أرضُنـا «بلـخ» أرض خـير وثمـر وأشـجار وكـروم وحدائـق، موقعهـا مطمـعٌ، دُمـرت اثنين وعشرين مـرّة في تاريخهـا، إلى أن أجهز عليهـا «جنكيـز خـان»، قائد المغـول، وراح يهـدّم ويمحـو آثارها، لم يتركهـا إلّا مجـرّد أطـلالٍ يتأسّـى عليهـا الزّائرون.

وكنّـا نحفـظ القـرآن في جامع «بلـخ» الكبـير، يصلّي آباؤنـا الفجر

This file was downloaded from QuranicThought.com

ونصلّي معهم، ثمّ نجلس في صحبةِ الإمام، ويصعد بصوتِه من قصار السّور سورة سورة، ونردّد خلفَه، يُسبل عينيه ويتبتّل، ويظلّ يصحّح وراءنا بصوتِه الرّخيم، وإيقاعُ صوتِه يغزونا، وتنتظم أرواحنا مع صوتِه كانتظامِ حبّاتِ مسبحةٍ، يتمازج صوتُه مع انسجام الترتيل رويدًا، وينعقد حولنا مزاجٌ روحاني أخّاذ، وكثيرًا ما كنتُ من درسٍ لدرسٍ أبكي، إذ فجأة تتساقط قِصار السّور من ذاكرتي، لكنّ الإمام دومًا يقول لي:

- دع آيات القرآن تسكُن قلبك قبل أن تسكن عقلك، ستردّدها دون ذاكرةٍ ولا اجتهادٍ.

وقيل أنّ مسجد «بلخ» الكبير بنته امرأةٌ، كان زوجُها أميرًا في «بلخ» بعد فتح العرب بسنواتٍ قلائل، قيل أنّ الخليفة غضب مرّة على أهل «بلخ» لحادثٍ أحدثوه، فبعث إليهم من يغرمهم مغرمًا فادحًا، فلمّا بلغ إلى «بلخ» أتى نساؤها وصبيانُها إلى تلك المرأة التي بنت المسجد، وهي زوج أميرهم، وشكوا حالهم وما لحقهم من هذا المغرم، فبعثت إلى الأمير الذي قَدم برسم تغريمهم بثوبٍ لها مرصعٍ بالجوهر قيمته أكثر ممّا أمر بتغريمه، فقالت له: اذهب بهذا الثّوب إلى الخليفة، فقد أعطيته صدقة عن أهل «بلخ» لضعف حالهم. فذهب به إلى الخليفة وألقى الثّوب بين يديه وقصّ عليه القصة، فخجل الخليفة وقال: أتكون المرأة أكرم منا؟ وأمره برفع المغرم عن أهل «بلخ»، وبالعودةِ إليها ليردّ لها ثوبها، وأسقط عن أهل «بلخ» خراج سنة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

ولمّا عاد الأمير إلى «بلخ»، وأتى بيت المرأة، قصّ عليها مقالة الخليفة وردّ عليها الثّوب، فقالت له: أوقع بصر الخليفة على هذا الثّوب؟ قال: نعم. قالت: لا ألبس ثوبًا وقع عليه بصرٌ غير ذي محرم مني. وأمرت ببيعه. فبُني منه المسجد والزّاوية ورباطٌ في مقابلته مبنى «بالكذان»، وفضل من ثمن الثّوب مقدار ثلثه، فقيل أنّها أمرت بدفنه تحت بعض سواري المسجد، ليكون هنالك متيسرًا إن احتيج إليه.

عند دخول التتار إلى «بلخ»، أُخبر «جنكيز» بهذه الحكاية، فأمر بهدم سواري المسجد، فهدم منها نحو الثّلث، ولم يجد شيئًا، فترك الباقي على حاله.

و «بلخ» مدينتي تتبع إمبراطورية «الخوارزم الخرسانية»، ولعائلتي أصهارٌ في البيت الحاكم في «خوارزم»، لذا؛ كانت مكانتُنا أثيرةً لدى «خوارزم»، كثيرًا ما كنّا نتزاور، يمدّون لنا الموائد ويشرع أبي في التدريس لأبناء الحاكم وأقاربه، طيلة الفترة التي نقضيها في بيتِه ضيوفًا، إذ لُقّب أبي بسلطان العارفين، أطلق عليه أهل المدينة تلك الصّفة لما له من ضلوعٍ في علوم الفقه وسعة غير مسبوقة في الاطّلاع على المعارف والقانونٌ والدّين، كان أبي يستنفد كلّ ما يقع تحت يده من صحائف وأوراق العلوم والتصوّف والفقه واللّاهوت، وكانت له ذاكرةٌ يُثني عليه العُلماء والأئمة والشّيوخ، بل كان يجادل أكثرهم حكمة وعلمًا وتفقّهًا، والغريب أنّه يُصيب في كثيرٍ من الأحايين، رأيه سديدٌ، وأفقه استشرافي، لهذا؛ كان له

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

توقيرٌ أصله علمه ودأبه وتوسّعه في غَرف المعارف من أصولِها وبطونِها.

أمّا طرقات «بلخ» فتمتدّ باتّساع النّظر، تسرح نحو الآفاق كأنّها صاعدةٌ لحواف السّماء، فلا ينتهي معها نظرٌ ولا يُؤتى آخرُها، شوارعها بهجة العابر وأمان السّاكن، يكاد السّائر الغريب يرى في كلّ شارع من شوارعها قصرًا منيفًا، لكبار التّجار وأثرياء البلد، من خلف تلك القصور ترتفع المآذن العالية التي كدّ في صنعها وتصميمها أمهرُ مهندسي «بلخ» وبنّائيها، مآذن مطعّمة بالبلّور والفضّة، تنتشر منها الأضواء الرّاشقة في صدر السّماء طيلة اللّيل، لتبدو مثل شبكةٍ نورانيّة تضمّ «بلخ» بين أطرافها، وحول هذه الشّوارع والدّروب تلتفّ تفرّعات «آمودريا»، ماؤه صافٍ، سطحه يعكس حلول النّهار وتألّق نجوم اللّيل، كنّا صغارًا عندما كنّا نغتسل في ماء «آمودريا»، إذ أنّنا نشعر بلسعة الماء وكأنّها لسعة فردوسية، تدغدغ جلودنا، ينهرنا الآباء عن النّزول إلى ماء النّهر، وإنّما كان النّهر حانيًا، يمنحنا الانتعاش والبهجة دون أن ينتظر المقابل، وكان من النّادر أن يغرق واحدٌ من أطفال البلد في النّهر، وكانت المقولة الشّائعة عن النّهر أنّه أحنّ على الصّغار من ذويهم.

نتسمّر على ضفّة النّهر، ننتظر أن تقع الأسماك النّافقة بين أقدامنا فنتناولها في سهولةٍ، وقد نُلقيها للطّيور الجائعة الهائمة في الجوّ، نفترس الوقت ونحن مستغرقين على ضفّة النّهر، إذ سرعان ما ينقضي النّهار وكأنّه مجرّد غفوةٍ طارئة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

تفرّعات النّهر صنعت على الضّفاف التفافات ساحرة من شجر، ظلّلت «بلخ» من شِمالها لجنوبها، في أوقات الحرّ نمرح تحت هذه الظّلال، ونتسلّق تشابكات غصون الشّجر ونختبئ من بعضنا البعض، ذات مرّة سقطت، كنت أتسلّق الشّجرة وحولي تفرّق الأولاد يتسلّقون، داست قدمي على غصنٍ ذابل متهرّئ فانقصف الغصن وهبط بي إلى سُدّة الأرض، التوى كاحلي ففُزع الأولاد من فرط صراخي وتوجّعي، التفّوا حولي، سنّدني بعضهم، وحملني آخرون إلى بيتنا، بالطبع لم يكتفِ أبي بنهري، بل أكمل الألم بأن نزل على جسمي بغصنٍ جافٍ لسعًا، حتّى تورّمتُ، كان ذلك أمام الأولاد، الذين جروا بعيدًا عن صيحات أبي وسُبابه، واختبئوا خلف جدران بيتٍ قريب يراقبونني، وظللت أئنّ من فداحة الجروح التي شرّخت ظهري وكتفيّ، غير أنّ أبي أسرع بي إلى حكيمٍ، طبّبني وجبّر كسوري، وفي المساء التحفت على صدر أبي، وشعرت به ندمان على ما صنع بجسدي الصّغير، قال لي:

- تعرف أنّي أخاف عليك يا «محمّد»!

- بلى أعرف يا أبي.

- الحرصُ واجبٌ يا بني، ماذا لو انقصفت رقبتك بدلًا من ساقك؟

- ماذا كنت ستفعل يا أبي؟

- الموتُ بعدك أهون يا ولدي.

شمال غرب «بلخ» تقع العاصمة «مزار شريف»، كنّا نرتحل مع آبائنا في قوافل التّجارة نحو الشّمال، قوافل تحمل الخزف والأقمشة

This file was downloaded from QuranicThought.com

والسّجاجيد الفاخرة والغلال والفاكهة التي نبيعها لبلاد الشّرق بأسرها، أو القوافل التي تحمل أثرًا وجب صونُه وحمايتُه، من تلك الآثار التي خرجت قافلة كُبرى لنقلها إلى العاصمة؛ كتاب «أوستا»، وكانت النّسخة الوحيدة المتبقيّة من كتاب ديانة «الزرادشت»، بل لعلّ النّسخة الوحيدة التي تمّ الحفاظ عليها في العاصمة لم تكن كاملة تمامًا، بل كانت عبارة عن بقايا صفحات من الكتاب آنذاك، إذ أحرق المسلمون – خوفًا من استفحال الدّيانات الوثنية – معظم صفحات ونُسخ هذا الكتاب بعد دخولهم أراضي «أفغانستان»، كان كتاب «أوستا» مكتوبًا بماء الذّهب، وكبّد صانعوه جلود قرابة عشرة آلاف بقرة وقتها، غير أنّ المسلمين نظروا إلى الدّيانة «الزرادشتية» على أنّها ديانة وثنية منتشرة بشكلٍ خطر، قد تهدّد انتشار الدّين في ربوع العالم، فأحرقوا كتابهم، ثلاثة آلاف نسخة، وربّما أكثر، قدر ما أمكنهم، رغم ذلك، ظلّ المعبد «الزرادشتي» مُقامًا على أرض «بلخ» لم يُمسّ، يبلغ ارتفاعه ما يزيد عن ثلاثمائة مترًا، مُزيّن ومزركش ومنقوش بنقوش خلّابة، بل ظلّ الحجّاج «الزرادشت» القادمون من «تزمير» في «أوزبكستان» يفدون في موعد الحجّ من كلّ عام، كنّا نتاجر معهم، ونتملّى في أعين نسائهم المشعّة المكحّلة، كان آباؤنا يقولون أنّ «الزرداشتيين» أبناء الجنّ، لهم سحر الجنّ ودهاؤهم، وجمالهم مع ذلك.

من ذي قبل؛ مسّني سحرُ إحداهنّ، كنتُ مع أمّي نتبضّع من سوق الفاكهة، وكان موسمُ حجٍّ، وكانت «زرادشتية» واقفة

This file was downloaded from QuranicThought.com

تفـاوض في سـعرٍ مـع بائع، اسـتدارت فقـط، ورمقتنـي بعينيها من خلـفِ خِمـار قرطـاس، وإنّـما أمعنـتْ النّظـر، انتفـضَ جسـمي، وبدا شـعرت أمّـي بلسـعتي، إذ أنّ كـفّ يـدي التـي كانـت تقبـض عليها في يدهـا ارتعشـت هـي الأخـرى، على الفـور، حدجتهـا أمّـي بنظرةٍ حازمـة، ثـم سـحبتني ومضت.

وظللت أيّامًا أرى عينيها تسرحان حولي على الحوائط والأسقف.

ورأيتهـا في أكثـر من حلم، وأكثـر من حادثة، رأيتها عاريـةً، ورأيتها باكيـةً، ورأيت رجالًا يحاوطونهـا ويتنازعون تمزيق ملابسـها، ورأيتها تحـت قدميّ تغسـلهما، وقال لي في حلمٍ: سـنتقابل في حلـمٍ آخر بعيد.

وقصصت على أمّي أحلامي بها، فقالت أمّي آنذاك:

- لقـد أغـواك سـحر عينيهـا يـا بُنـي، إنّهـنّ بنـات الجـنّ، وعبـدة أوثـان، يعبـدن «زرادشـت» و «بـوذا»، الحـذر منهـنّ واجـب.

قيـل أنّ «بـوذا» ملـك «الهنـد» بنـى عـلى أرض «بلـخ» معبـده على غرار معبد «الزرادشـت»، بناه في وسـط المدينة، أسماه «نوبهار»، زيّنه بالدّيبـاج والحريـر والجواهر النقيّـة الخالصة، ثم شـيّد حوله الأصنام، طـول المعبـد مائـة ذراع، وعرضه مائـة، وارتفاعـه مائتـا ذراع، كانت سُـدانته — قديـمًا - حكـرًا للبرامكـة؛ الذيـن حكمـوا المدينـة واحـدًا بعـد الآخـر، إلى أن فُتحـت «خراسـان» عـلى يـد «عثـمان بـن عفّان»، قيـل أيضًـا أنّ المعبد تمّ بنـاؤه محـاكاة للكعبة التي سـمعوا عن جلالها واحـترام وتوقـير العـرب لها، لكنّ المعبـد بعد زمن هُجـر، فكنّا نباشر ألعابنـا حـول أعمدة المعبـد وتماثيله، نشـخبط على أحجارهـا، ونزرع

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حولها الورود والأشجار الصغيرة، بل كنّا نصنع مآدب طعام ونفترش أرض المعبد ونستبيحه بفوضى بواقي الأطعمة، وفي يوم، رآنا حاجٌّ، كان يزور المعبد مصادفةً، كان ضخمًا مثل جبل، ووجهه أحمر مثل شعاع شمس حارق، لحَمَ حاجبيه، وانفتح فمه لآخره، ثم خرج صوته أجوفَ كصدى صوتٍ، وصرخ:

- ماذا تفعلون؟ تدنّسون أرض «بوذا» أيّها الملاعين الصّغار!

ومضى يضرب طعامنا بقدميه في غضبٍ مستفحلٍ، تفرّقنا حوله مفزوعين، وصعدنا لما بعد المعبد، نختبئ وراء كثبان تلّ «حُمران».

وتلّ «حُمران»، دُفن فيه الإمام «علي»، كرّم الله وجهه، في أوقات صلاة العِشاء، نخرج من بيوتنا ونصعد، نتبرّك بمثوى الإمام، ونصلّي هناك، وإن كنّا نصلّي معظم الصّلوات في الجامع الكبير المزيّن بالفسيفساء الزّرقاء الذي بنته الأميرة، تحديدًا وقت صلاة «الجمعاء»، يمتلئ المسجد بنا، والتكبيرات تصدح في كلّ أرجاء مدينة «بلخ»، يهتزّ لها الوجدانُ، تبلغ كَبِد السّماء، وتنفذ إلى الأفئدة الضّالة فتهدهدها، تستقيم الصّفوف، ويصرّ أبي أن يشدّني من يدي لأجاوره، يصرّ أكثر أن يتشبّث بكمّ جلبابي، خشية أن يجتاحني طوفان المصلّين فأقع تحت الأقدام المهرولة، أو أتوه بين الصّفوف، تستغرقنا الصّلاة، في الوقت الذي تخرج فيه أمّي إلى السّوق لتبتاع الخضروات واللّحومِ ومؤن البيت.

سوق مدينتنا يربض وسط الأسوار والأبواب العالية المطعّمة بالزخارف، التي شيّدها «الإسكندر المقدوني الأول»، ابن الملك

This file was downloaded from QuranicThought.com

«أميتاس الأكبر»، وقد هبط إلى «بلخ» غازيًا، من بلاد «مقدونيا» في «اليونان»، وراعه أنّ مدينتنا تحمل كلّ عناصر الأبّهة والفردوس، بأنهارها؛ التي تتخلّل أرضها بامتداد الشّوارع، وأشجارها، وأبنيتها، وخيراتها، فأقام المُدن والمراكز التّجاريّة الكُبرى، بنيّة أن يُدام له المُلك على أرضها، وتكون «بلخ» جزءًا من مملكته الشّاسعة، وأسماها «إسكندريّة» نسبة إليه، وضرب حولها الأسوار والقلاع الحصينة والأبواب الضّخمة، ورمّم معابدها وحصونها القديمة، واستقرّ في قلعةٍ من قلاعها لأكثرِ من عشرِ سنوات، وقد حوّلها لمركز تجاري يفد إليه التّجار من كلّ حدبٍ وصوب، إضافة للقصور التي بدأت تنتشر في أرجاء «بلخ» إثر رواج حركة التّجارة والتصدير، وكانت أهم أسواق المدينة سوق النّسيج والأقمشة والسجّاد، إذ اشتُهرت «بلخ» بالأنسجة الممتازة عالية الجودة.

في نهار «الجمعاء» تخرج أمّي إلى السّوق، تستكمل شراءمستلزمات وجبة الغداء الكُبرى، إذ أنّ وجبة الغداء الرئيسية في مدينتنا في يوم «الجمعاء»، حيث تضمن النّساء أنّ رجالهنّ سيعودون ليشاركوهنّ بقيّة اليوم بالكامل، يجلسون معهنّ أرضًا، ويتناولون الطّعام، حيث معظمهم يقضي بقيّة الأسبوع يتاجر في البلاد المجاورة، أو ينشغل في محلّه منذ طلعة الصّباح.

في أحد أيّام «الجمعاء»، غاب أبي في سفرٍ، ولم يكن قد غاب يومًا كهذا من ذي قبل، خرج يحاضر في مدرسةٍ في «مرو»، وانقضت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

«الجمعـاء» الأولى ولم يأتِنـا منه خبرٌ، ثمّ جاءت «الجمعـاء» الثّانية، ففُزعـت أمّـي، وبـدا توجّسـت الخطـر، وكنّـا جالسـين حـول موقد الفخّـار الـذي يطهـو الطّعـام واللّحـم، سرحـت أمّـي عنّـا، وكانت تتنصّـت لصـوتِ الرّيح ومطرٌ حـول البيتِ يـزخّ، كانت خيـوطُ الماء تتدفّـق مـن بطن السـقيفة، ونهضت وجلسـت، وخرجـت ودخلت، وكانـت في أشـدّ حالات قلقها ورعبها، وهمسـت كأنّها تكلّم نفسـها:

- المطـر خطـر عـلى قبـورِ المدينـة، المطـر كـما يجلـب الخـير يطلـب المـوت أيضًـا.

لكنّي سألتها في لوعةٍ:

- هل سنموت يا أمّي؟

- ليس للموتِ موعدٌ يا بُنيّ.

- وهل مات أبي؟

فبـدا انقبـض قلبهـا، وحدجتنـي بنظـرةٍ معاتبـةٍ، وهمهمـت وهـي تفـرك كفيّها:

- كيـف يمـوتُ وهـو بعيـدٌ عنّـا؟ كيـف يقـومُ عنـد الآخـرة مـن دونـنـا؟

ولكـنّ أبي عـاد في «الجمعـاء» الثّالثة، وجد أمّي قـد أعدّت صنوف الطّعام الشـهيّة، أفـراخ حمام أو إوز، ولحم ضأن، وسـمك «الكارب» صلد الحراشـيف الـذي كنّا نصطاده أحيانًا أنـا وأبي من النّهر.

ولم نكن نخرج إلى النّهر أنا وأبي إلّا حين نتشوّق إلى سمك

This file was downloaded from QuranicThought.com

«الكارب» ونشتهيه، كان يحدث ذلك مرّة كلّ بضعةِ أشهر في الغالب، وكان معظم رجال المدينة يرابضون على ضفاف الأقنية ويدخلون إلى المستنقعات المائية لصيد هذه السّمكة، لكن أبي كان يحلو له أن يجلس على ضفّة النّهر الكبير، كان يجازف في ضياعِ مزيدٍ من الوقت مقابل لذّة انتظار الصّيد، يقول لي:

- هذا النّوع من السّمك يلجأ للمياه الراكدة بطيئة الجريان، فلا تقلق، سنجدها تحت أقدامنا.

يبلغ طول هذه السّمكة حوالي ثلاثة أقدام، ووزنها ثلاثون رطلًا، ولها جسم عضليّ مسطّح، لذا؛ كنّا نعاني في حملها من النّهر إلى البيت، نضع الأسماك فوق عربّة جرّ خشبيّة واطئة، وندفعها طالعين التبّة المؤدّية للطّريق، وفي الغالب كنّا نصطاد ما بين ثلاث أو خمس سمكات في كلّ مرّة، وكثيرًا ما كان يحسدنا الآخرون، لكنّ بعضهم يقولون إنّ أبي مُبارِكٌ وفيه سرّ من أسرار الله.

كان أبي يقول دومًا:

- الطيّب ما يُسِّرَ للإنسان دونما حيلة، لا يستطيع رجل أن يصيد أكثر من سمكتين في الطلعة الواحدة من الأقنية والمستنقعات.

كانت أمّي تردّ عليه:

- إنّما تكدّ وتُجهَد لأجل الطّيبات يا سلطان العارفين، وكلّه بفضل الله.

فيبتسم ابتسامته الواسعة ويربّت على رأس أمّي، ثمّ يلثّمها على جبينها.

This file was downloaded from QuranicThought.com

«مؤمنة خاتون»؛ أمّي، بنت خوارزم شاه «علاء الدّين محمّد»، تُعرف في مدينتنا بأمّ الأولاد، إذ أنّها كانت تعتبر جميع أولاد المدينة أبناءها، يأتوننا في كلّ الأوقات، حتّى أوقات الظّهيرة التي يكون فيها أبي نائمًا، أو جالسًا في مكتبتِه يتصفّح ويستزيد، يتحلّقون حولها، تحكي لهم عن أمجاد «بلخ»، وكيف أنّها أمّ المُدن، وأعظمها على مرّ التّاريخ، وكم من غازٍ حطّ عليها، وإنّما استطاعت بجَهد ومعافرة أبنائها أن تنجو عبر الأزمنة، استعمارًا بعد استعمار، وغزوًا بعد غزو، تحكي لهم عن عرائس البحر ولآلِيء المُحيطات ومراكب الشّمس وبيوت القمر ومدافن الجنّ، ينجذب الأولاد لحكاياتها، يردّدونها فيما بينهم، ويومًا بعد يوم تستوطن الحكايات أفئدة الأولاد، فينضجون بحكايات أمّي، يعرفون آثار المدينة عبر أمّي، تقول لهم إنّ المعابد والقصور والمساجد والأنهار والأشجار هبة من الله، اختصّ بها «بلخ»، ثم تستدير إليّ تقول:

- وهذا «محمّد» سيكون هبة الله الأكبر للمدينة.

بالطبع كان يضحك الأولاد ويتغامزون، فهي تؤمن بي أكثر ممّا تؤمن بشيء آخر على وجه الأرض، بل تؤمن أنّ «المسيخ الدجّال» سيُولد في «بلخ»، ومنها سينتشر في ربوع الأرض مُفسِدًا، لكنّها تؤمن أكثر أنّه سيُقتل في «بلخ»، على يدي.

كانت؛ وهي تحمّمني في مهبِط الماء المربّع، المبلّط من الدّاخل بالإسمنت، ويدها تشطّف ظهري وكتفيّ، تقول:

- سأجهّزك يا ولدي لمبارزة «المسيخ الدجّال»، ستقضي عليه

This file was downloaded from QuranicThought.com

بالحكمة قبل السّيف، وبالحجّة قبل الدّم، سيؤازره جيشٌ عظيم، وسيناوئه جيشٌ أعظم، هو جيشك يا ابن «بهاء الدّين»، سترى النّاس يلتفّون حولك، ويؤمنون بك، ستحرّكهم بإرادة إلهية، سينهزم أمامك «المسيخ» ولكن بعد إيمان راسخٍ.

أقول لها:

– قال لي أبي أنّ «المسيح» هو من سيهزم «المسيخ»..!

– «المسيح» رمز للسّلام يا ولدي لا النبوّة، افهم، من يُمكنه الجزم بأنّه سيهبط من السّماء مرّة أخرى؟

وكثيرًا ما كانت تتسلّل في هدأة اللّيل، تصعد إلى سطح بيتنا، تُمارس استغفارها ودعاءها، تتلفّح بالسّكينة والاطمئنان، وتدور مُطلقةً البخور الأفغاني في كلّ أركان السّطح، تبدو كمن يستشرف الغد بقلبٍ وجل، أصعد معها أحيانًا وأراقبها وهي تتمتم، وكانت لها طقوسٌ في الدّعاء والابتهال، ترشّ أرض السّطح بماءٍ من نهر «آموداريا»، إنّما قبل ذلك، تطمس في وعاء الماء نتفة ثوبٍ بالٍ، تطرّزها بآيات من القرآن، وكانت تقول لي:

– غير مسموح بقراءة هذه الآيات يا «محمّد»، كي لا يضيع أثرُها المُرام.

تغمُر أرض السّطح بالماء، ثم تقفّ على سور السّطح، وترفع رأسها للسّماء، ثم تبدأ بالدمدمة.

في يوم، رأيتها مفزوعة، كان وجهها محمّرًا، صاحت بي:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

- لقد حلّ موعد حربك يا بُنيّ.

سألتها:

- أيّ حربٍ يا أمّي؟

فأجابت:

- الحرب مع نفسك يا بُنيّ.

ثم أضافت:

- لقد رأيت «المسيخ الدّجال» يا «محمّد»، هو قادم، أغمضت عينيّ لوهلة، ورأيته قادمًا من بين سرابات الأفق، خارجًا بعينه الوهّاجة شرًّا، منبذرًا من حشاش «بلخ»، من طينها وترابها، في يده اليُسرى سيف، وفي اليُمنى رأس رجل، حاولت أن أدقّق في ملامح الرّجل، فلم أستوضحها، إنّي خائفة يا ولدي، إذ أنّك المُقاتل الذي سيهزمه.

قلت لها:

- وكيف أيقنتِ يا أمّي أنّ «المسيخ» سيخرج من أرضنا؟

فقالت:

- ألم تسمع حديث أبيك يا ولدي! عَنْ «أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ» رضي الله عنه قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: («الدَّجَّالُ» يَخْرُجُ مِنْ أَرْضٍ بِالْمَشْرِقِ يُقَالُ لَهَا «خُرَاسَانُ»، يَتْبَعُهُ أَقْوَامٌ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ). فهل يكذب رسول الله يا ولدي؟

نكّست رأسي، وأخذت أتابع تأمّلي في ملامح وجه أمّي الجزع،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تُـرى هـل يُمكن أن يُكشـف لهـا ما سـتره الغيب؟

أمّا «المسيخ الدجّال» فكيف لي بمنازلته وهزيمته؟!

يا خوفي أن تكون رأسي تلك التي تتأرجح في يده اليُمنى!

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

محمّد بن ملك داد التبريزي

تبريز/ إيران -٥٩٤ هـ

(أنا في ارتقاءٍ مستمرٍ، فانظر إليّ كإنسانٍ متجدّد نضر، وأنت مثلي في هذا، فإذا أحسست بالرّكود وخمول الذّهن فعليك أن تسأل لماذا؟).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تتقدّمني أسرابُ الطّيور التي تحلّق في السّماء وتقودني، أركض خلفها ظنًّا أنّي سأكشف عن موطنها الذي تستقرّ فيه، أصنع لي في كلّ صباحٍ خيالًا وليدًا، وأدع أذني تتتبّع حفيف أوراق الشّجر التي تتساقط عند الخريف، أحبو وراءها على الأرض مُنصتًا، أؤمن أنّ صوت الله ينبع من بطن الأرض، وسأسمعه في يومٍ قريبٍ، أؤمن أنّ عناصر الطبيعة تتضافر لتمنح قلبي في الغدِ عشقًا أعظم من تصوّري.

أقول لأبي:

- أين الله؟

فيقول:

- كيف لابن العاشرة أن يسأل عن الله؟ تعلّم كيف تصلّي في البداية، وقتها ستعرف أنّ الله مُقيم في السّماء.

فأردّ عليه:

- بل مُقيم في قلوب العاشقين.

فيصفّق بكفيّه في حيرة، ويقول:

- ما «تبريز» إلّا أرض المجانين.

* * *

«تبريز»؛ مدينتي الأولى، أصل عشقي وأصل جنوني، يُقال أنّها قاهرة السّخونة، وطاردة الحُمّى، «تب» تعني «حرارة»، و «ريز» تعني «الطّاردة»، فمن مأثورات تاريخنا أنّ الأميرة «زبيدة بنت

This file was downloaded from QuranicThought.com

جعفر بن المنصور»، زوجة الخليفة «هارون الرّشيد»، عكفت على إنشاء المدينة عام ٧٩١م، إذ داهمتها حُمّى كادت أن تودي بحياتها، لولا أنّ مُخلصًا من بلاط الخليفة وحاشيته أشار عليه أن ترتحل للأرض الشّافية؛ أرضنا، حيث لازمت الفِراش فترة طويلة من الزّمن، تأكلها الحُمّى، وينال المرض من دواخلِ جسدِها، حتّى كادت تُهلك دون الشّفاء، اتّهمه «هارون الرّشيد» بالجنون، وجاب الأرض شمالها وجنوبها بحثًا عن دواءٍ للعلّة التي تسكن بدن زوجته، دون جدوى، سخّر لها رُسلًا يستكشفون مضارب الأرض، ويجسّون أرجاءها، يسألون ويستعلمون، يجوبون حلقات الأولياء وتكايا الدّراويش، خرجت من القوافل ألف ويزيد، زارها من الأطبّة والمداوين والمكشوف عنهم والمكشوف لهم والسّحرة والغجر وصانعي الأعشاب ألف وأكثر، صلّى لها وصلّى معه كلّ جنوده ورجال البلاط، الجواري والغلمان، حتّى الخصيان الذين لا يُستجاب لهم دعاءٌ ولا تُقبل لهم صلاة، دون طائل. في النّهاية لم يجد بُدًا إلّا أن يُذعن لمشورة رجلِه، لعلّ في أرضنا شفاء بالفعل، ولعلّ نبوءة المُخلص تتحقّق، إذ ليس ثمّة شيء على الله بعيدًا. أعدّ الخليفة قافلة من مائة بعير وناقة، يركبونها مائة عبدٍ وجاريةٍ، لخدمة الأميرة، وسافرت القافلة في دروب وصحاري ووديان، كادت تُهلك غير ذي مرّة، وقابلتها عواصف، وقطع عليها الطّريق لصوص، وهوجمت من البدو والرّحل، حتّى حطّت القافلة في أرض «تبريز»، يُقال أنّها لم تكن مسمّاة آنذاك، مجرّد أرضٍ للشّفاء، يقصدها الزّاهدون والرّحل

This file was downloaded from QuranicThought.com

للاستشفاء والتبّهل والتورّع، والتبرّك أكثر، من ثمّ يغادرونها كلٌّ إلى حيث ابتغى، كان مناخنا مناخًا استثنائيًا، ونسيمنا آتيًا من منافذ السّماء البِكر، بعد ثلاثة أيّام غادرت الحُمّى جسم الأميرة، بينما قيل أنّ الله أنشأ الكون من أرضنا، بل إنّه عاش فيها قبل أن يصنع السّماء، لذا؛ أقامت الأميرة المدينة وأسمتها «تبريز».

بالطبع ما أُورد في التّاريخ – الذي نعرفه – كان يخالف تلك الأسطورة المزعومة تمامًا، إذ وردت «تبريز» بعينها في نقوش الملك «سرجون الثاني»؛ ملك «آشور» عام ٧١٤ قبل الميلاد، حيث أشار إلى حصن «تارويي -تارمكيس» الميديّ، وقال:

– هذا حصنٌ عظيم البُنيان ذو أراضٍ خصبة وحضارة مزدهرة.

تُشيرُ النقوش أيضًا إلى أنَّ الآشوريّين دكّوا هذا الحصن دكًّا، وعاقروا حدوده وأطرافه بضع سنوات ونيف، وتمكّنوا من فتحه في نهاية المطاف، أمَّا «تبريز» فقد اُختيرت لتكون عاصمةً لعددٍ من الممالك التي قامت في البلاد الإيرانيَّة مُنذ عصر القائد الفارسي «آتورپات»؛ الذي خدم في جيش «الإسكندر الأكبر»، واستمرَّت كذلك طيلة قرون طويلة بعد انقضاء العصور القديمة.

أمّا نحن – أبناء «تبريز» – فلدينا اعتقاد جارف وأصيل بأنّ «جنّة عدن»؛ المذكورة في كتاب الله الكريم وفي توراته، إنّما «تبريز» جزءٌ من أرضها وواحة من واحاتها، تحتضنها الهضبة «الأناضولية» الكُبرى، التي تتفرّع منها الهضبة «الإيرانية»، وعليها تسبح «تبريز» بخضارها ومعالمها الجغرافية، يحدّها سهوب ووديان وجبال وقرى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وآثـار وأنهـار وبحور، يحرسـها من الشّـمال جبال «يكجـين» و «عون بن علي»، ويرمون سـهوبهم وسـفوحهم لتفـرش أرض المدينة، ويقطع أرضَهـا نهـران، نهـر «تلخة» دائـم الجريان، ونسـميه «النّهـر الكريه»، ذلـك أنَّ مياهـه قلويَّـة غير صالحـة للـريّ أو الشّرب ولا جـدوى منها بالنسـبة لنـا، ولعلّ سـبب ملوحـة مياهـه ومرارتهـا يرجـع إلى جريانه عـبر أراضٍ مُنهكة شـديدة التعديـن، ممّا يُشـبّع مياهه بمزيـجٍ من تلك المعـادن، وينبـع نهر «تلخـة» مـن السّـفوح الجنوبيَّة لجبل «سـبلان»، ويعـبر السّـهول المجاورة لسـفح جبـل «قوشـة»، ويمرّ عـبر «تبريز» مـن الشّـمال الشرقـي، قبـل أن يتصـل بنهـر «مهـران» في شـمال شرق وسـطها، ويجـري حتّـى يصـبّ في بحـيرة «أروميـة»، ونهـر «مهران» هـو ثاني النّهريـن اللذين يمرّان داخـلِ تلابيبِ مدينة «تبريز»، واسـمه «النّهـر الجـاف»، ذلـك لشـحّ تدفق الميـاه فيه عـن نهر «تلخـة»، كونه نهـرًا موسـميًّا يجـفّ خـلال فصـول الصّيـف شـديدة القيـظ، ويتدفّق خلال مواسـم الشّـتاء كثيفة الأمطـار والثلوج، ينبع نهـر «مهران» من جبل «سـنهد»، ويشـطر «تبريز» إلى قسـمين، شـمالي وجنوبي، شُيّدت عـلى ضفافـه الجسـور كحلقة وصـل بين شـمال المدينـة وجنوبهـا، منه نـشرب ونسـتهلك الماء، وبسـببه – كذلـك – تباغتنا الـزّلازل عامًا من بعـد عام.

يجـيء الزّلزال بغتـة، ليصبّ علينا غضبَـه، لكن – في عـادة – يتجهّز لـه بعضُ أبنـاء المدينة، إذ أنهّـم يزعمون أنّه يضرب في ميقـاتٍ محدّد من كلّ عـامٍ، ولو أنّه كثـيرًا ما خالف مواقيته بلا إنـذار، وضرب في ميقاتٍ

This file was downloaded from QuranicThought.com

ليس بحسبان رجل، فلم أكن أعرف لمَ يتجهّز الرّجال وينتظرون الزّلزال طالما أنّه مراوغ ولا يستقرّ على موعد!

على أيّة حال بدأت الرؤى تستحوذ على أحلامي منذ أكبر زلزال ضرب «تبريز»، وأُطلق عليه «الزّلزال الكاسح»، لأنّه كاد أن يُهلك أرض «تبريز»، كنت وقتها في العاشرة، وكنّا في حقل من «الزّعفران»، و «الزّعفران» أهمّ منتج زراعي يخرج من أرض «تبريز»، حيث الشّمس دوّامة السّطوع على أرضها، كان الآباء وقتها – وقت الزّلزال الكاسح – يحصدون «الزّعفران»، وكنّا معهم، إذ نزرعه في أواخر الصّيف، ونتركه مدّة شهر لينبت أثناء الخريف.

عندما خرج آباؤنا في الصّباح لحصد «الزّعفران»، لم يكن الزّلزال الكاسح قد كشّر عن أنيابه، ففي بهجة الطّقس المشمس الصافي، وأزهار «الزّعفران» متفتّحة بأكملها، متأهّبة، أخذنا نقتلع مياسيم الأزهار في حذرٍ وحرصٍ، وندسّها في أجولة دافئة كيما تجفّ وتصبح صالحة للتصدير.

أذكر ذلك اليوم البعيد، إذ بدا الأمر كأنّ مغناطيسًا شدّ الأرض من طرفيها، فتقوّست، ثم انتفخ باطن الأرض ما بين الطرفين وتمدّد وبرز وراح يتفسّخ.

اهتزّت الأرض بنا، وماجت، وكنّا نترنّح، فصار بعضنا يهرول يمنة، وبعضنا يسرة، وتخبّطنا، كانت هزّات الأرض تتّسع كأنّها دائرة، فترتجّ بنا، كأنّ أرض «تبريز» حجرٌ أُلقي في ماءٍ راكدٍ، ثم تدافع الماء حول الحجر، هكذا شعُرنا، وبدا أنّها القيامة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

أرض «تبريـز» كانـت ترتفع بنـا إلى فوق، فـوق محيـط كلّ الأراضي المجـاورة، وكنّـا نتسـاقط نحـو الهاويـة، نحـو الشّـقوق التـي صنعهـا الزّلـزال في حصـيرة أرض «تبريـز»، وكانت التفسّـخات تجـري كأفاعٍ تتلـوّى، تقصـف البيوت والأبنيـة، وتنفرج لها حشـايا زروع الأراضي، فضـلًا عـن الحمـم التـي بـدأت تخـرج مـن أحشـاء الأرض، وراحت تُنفـث بُخـارًا ودُخانًـا، فيسـبح أعلانـا على مـدّ البصر.

في تلك اللّيلة لم ينم أحد، الخسائر كانت فادحة.

لعـلّي الوحيـد الذي اسـتبدّ بـه النّـوم، لكنّـي في النّـوم اختُطفت، لا أعـرف مـا الذي جـرى، إنّـما راودتنـي رؤيا عـن جيش عظيـم يقتحم أرض «تبريـز»، ويجـبّ الـرؤوس عـن النّـاس، بسـيوفٍ مـن جحيم، يحرق المدينـة، ويحطّم مبانيها وقصورها ومسـاجدها ومعابدها، جيش جـرّار، لم يـره بشرٌ مـن قبلذاك.

❋ ❋ ❋

وفي ليلـةٍ أخـرى رأيتنـي أرتجـف من شـدّة الـبرد، متدثّرًا بغطـاءٍ من صـوف، وبتفكـيري في عوالمـي الموازيـة، ورأيتنـي أتسـلّل مـن تحـت الغِطـاء، وكانـت أصابـع قدمـيّ تتلافيـان صقيـع الأرضيّـة، وقرّرت أن أسـتدفئ بقـراءة صفحـاتٍ من كتابٍ مسـطور عـلى إحـدى أوراقِه اسـمي؛ غـير أنّ عنـوان الكتـاب كان ممحوًّا.

وأناملي ترتعـش تناولت أوراق الكتـاب الحائرة، وفردتهـا أمام عينيّ أطالعها.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ورأيتني مأسورًا بكلماتي، مستلذًّا بها، وكنتُ وأنا أقرأ أبتسم، وأُكمل القراءة، فتوقّفتُ؛ حسنًا.. هنا، في هذا الموضع، عليّ أن أضع كلمة ناقصة، أمممم، وهنا، حرف زائد، و.. و...

بحثت بعينيّ عن قنّينة الماء، وكانت فارغة..! اُضطررت أن أقطع المسافة الباردة من الغرفة للنّافذة في آخر الطُّرقة كيما أجلب قنّينة أخرى، ثم عدت وتقرفصت مكاني أستكمل كتابي.

وبدأت أرشف من القنّينة، لكنّ شفتيّ توقّفتا عندما صار لون الماء أسود...!

الماء لونه كالحبر....!

أيقن أنّها هلوسات كاتب يبحث عن معنى.

رشفتُ على حذر، الطعم طعم ماء، إنّما اللّون..!

هل أكترث؟

لم يتغيّر لون الماء، غير أنّي، ومع كلّ رشفة، كانت الحروف تتطاير وتتلاشى أمام عينيّ.

استغرقني جنون اللّحظة، فلم أحاول أن أفهم.

فظللت أرشف، رشفة فأخرى، والحروف داخل أوراق الكتاب تتناقص، مع كلّ رشفة، تفرّ كفرار سحابة من دُخان.

لكنّي في الحلم ضحكتُ ضحكة رقيعة، غاية في الرّقاعة والمجون، عندما انتهيت من شرب كوب الماء/ الحبر.

وقد صارت الأوراق خاوية بيضاء...!

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

آه.. تمامًا كذاكرتي الملعونة.

❋ ❋ ❋

وفي حلمٍ آخر رأيت ملاكًا، جناحاه يفرشان المدى بالضّوء، وحوله مجموعة من الملائكة الصّغار، كانوا يرتّلون في صوت متناغم: «والذي صعد والذي لم، نبيٌّ يقوم نبيٌّ يؤم، بعثٌ لخلقٍ لم تُدَم، إذ يُنادَى أن استقم، دار العِشق أم دار السّقم، عمّ الهوان بئس الرّحم، والأرض أوّل من رحَم».

ناديت على الملاك، فاستدار لي، وكان النّور يشعّ من هالتِه إلى المُحيط، قال بصوتٍ رخيم وهو يصوّب إصبعه نحوي:

– قالوا أنّك دفنت السّر في قرار النّهر، وأنّك شققت بطن اللّيل فاختفيت بداخلها منذ ذاك الحين، غير أنّ نهرهم قراره عميق، لن يبلغه يومًا بشر، كذلك اللّيل، بطنه مظلمة مجهولة مخيفة، فمن يجرؤ على المجازفة بالرّحيل إلى هناك غيرُك؟ قالوا أنّ هذا ما كان في بداية سنوات البرد التي لم تزر الشّمس خلالها أرضهم قط، وفيما البرد جاثمًا لم يزل، والشّمس هاربة لم تزل، أنت الذي ستغامر وتستشرف مجاهل رُوحك، وترحل خلف هواجسك، فتستعيد نفسك من عتمة العدم وتستعيد السّر والشّمس.

وجدتني، في براثن الحُلم، وفي براثن اللّيل، أخلع دنياي، وأُفرج عن رُوحي، فتنفلت، بي تنطلق الرُّوح، وبها آنس.

❋ ❋ ❋

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في الحلـمِ؛ رُوحـي كانت تعرف طريقَهـا داخل النّهـر، حتّى في عتمة اللّيـل وعتمـة المصـير، أتركها، فترقـص في أحضـان الميـاه، أختبئ من الـبردِ داخل عبـاءة سـوداء من صـوف، ترتّقني بظـلام اللّيل.

أستنشـق الهـواءَ البـاردَ الـذي ترفرف معـه أذيـالُ العباءة بانسـجام، وأفـرد أعصـابي فتـذوب في صمـت النّهر.

بلغـت جزيـرة؛ نمت في أحضانهـا ليالي وليـالي، ثمّة يقين مـا بداخلي أنّ الـسّر سـيخرج لي في أيّـة لحظة، متزيّنًـا، متأهّبًا للفضّ.

كانـت حصيرة مـن أعشـاب تتوسّـط الجزيرة هـي مضجعـي، أفرد جسـدي عليهـا، وأرمـي عينيّ إلى السّـماء، فتأتيني موسـيقى طلسـمية ناعمـة، تنطلـق، فيهـدأ العالم، عالمـي، ويصبح المشـهد عذبًا، متجـرّدًا، تنحـدر الموسـيقى من السّـماء، فأرخـي جفنـيّ، وأروح معها.

ترررراااااا...................

والأشـياءُ كانـت -كلّ الأشـياءِ- مجـرّد بقايا عـالمٍ غائـم، تتأرجح في الهـواء معـي، ويصـير حُلمـي مفتـاحَ الوصـولِ إلى الـسّر، كـم أود لـو أذوب! كـم أود ألّا أسـتفيق مـن هـذه الغيبوبـة المسـكرة! أنغـام تثـير الخيال.

لم يكـن في الحُلـمِ زمـنٌ، إذ ليلـة وراء ليلة على الجزيـرة، يجتاحني أكثر فأكثـر الإحسـاس بدنو المعرفة، إحسـاس بقرب سـبر اللّغز.

تفاصيـل الجزيرة تتـواءم معي ليلـة وراء ليلة أيضًا، وجوه الأشـجار التـي دائمًا تحمل ابتسـامة لي، تباب الرّمل التي دائمًا تنبسـط حين أسـتند

This file was downloaded from QuranicThought.com

عليهـا، ثمرات «التّفاح» التي تتقشّر وتناولني نفسـها، صفير كائنات النّهـر الخفية التي تؤانـس وجودي هنا.

ليلةٌ وراء ليلة؛ إلى أن كان البيان.

رأيـت الطّريق ممتدّة، طريقًا من نور باهر يصعد إلى السّـماء، شـهقت، أنفـاسي ظلّت مخطوفة وأنا أسـير داخـل الطريق متّسـع الأعين، وحتّى بلغت آخرها.

كانـت تنتهـي إلى قبّـة معلّقـة في كبد السّـماء، ربّـما بدت لي نجمـة، إذ يشـعّ مـن وراء شـقوق بابهـا الموصد ضيـاءٌ غـشي عينيّ.

برفـق دفعـت البـاب بيـدي، ودلفـت، كانـت طريـقٌ أخـرى داخل المـكان تصطـفّ عـلى جانبيهـا آلاف الملائكـة، وتتنـاثـر بداخلهـا بقايا أوراق محترقـة، ويسـبح في الهـواء رمـادٌ جعلنـي أُغلـق عينـيّ مـرّات عديـدة، ثـم يظهـر رجلٌ، مـن بـين أجنحـة الملائكة، تتكشـف ملامحه شـيئًا فشـيئًا، وجهه صبوح بهـيّ، وعلى كتفيـه عباءة مـن مرمر، هتفت الملائكـة وهـي تركـع تحـت قدميه:

- مولانا.

ولم يكـن هنـاك داعٍ من الاسـتغراق في الدّهشـة، اقتربتُ منـه، ولكنّه يـزوم ويدفعنـي، بعـد أن يرمقنـي بغضب، ويمـضي إلى آخـر الطّريق، وهـو يتمتم:

- أنا سـيّد الجـلال، سـتعثر طريقانا على ملتقـى، إنّما اسـتعدّ، ووضّأ رُوحك.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وَقفيّة الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وهنـاك؛ في آخـر الطريـق، كان واقفًـا، تعتـلي رأسـه شـمس النّهـار، وتحيطـه بهالة من نورٍ سـاطعٍ، هذا الذي يشـبهني، هل يشـبهني؟ كلا، إنّـه أنـا، بعـد مائة عـامٍ ربّما، أنا نفـسي، الـذي يرتفع مع الشّـمس ببطء عـن الأرض، ثـم أتضخّـم، أتضخّـم، وأحـرق كلّ شيء، حتّى نفسي.

خاطبني الملاك يقول وهو يجذبني من غياهب الدّهشة:

- يا «شمس»..!

أدركته وقلت:

- اسمي «محمّد».

فردّ يقول:

- بل «شمس»، وهذا اختاره لك القدير.

وأشـار بإصبـعٍ مـن ضيـاءٍ قرمـزي إلى يمينِه، فـدُرت بعينـيّ ورأيت جلالته جالسًـا عـلى العرش، له عرضُ سـماواتٍ وعُمـق أراضٍ، بدا لي متكشّـفًا كطاقـة من ضيـاءٍ وانبثقت، لم أميّز حـدوده، بل ميّـزت كُنهه، وبـدت عينـاه شمسـين متألّقتين، لم يفتـح فمه ليخاطبنـي، بل خاطبني بشـعاعٍ من نـور، حفّ عينيّ ثمّ لفّهـما، وأيقنت أنّي مشـمولٌ في كنفٍ لم يَـرِد على بـال رجلٍ مـن ذي قبل، قـال لي الله:

- كُن كما أردتك أن تكون، أنت «شمس»، وشمسي لا تغيب.

وحـاصرني المـلاكُ بجناحيـه، وفي الحلم كنتُ شمسًـا، وكنـت نورًا، وكنت أسـبَق النّاسِ بعشـقٍ يشـعر بك يا الله، ولا يُشـعر به، عشقٌ إلهي شـاهدته وجهًا لوجه، يكتبون عنه، بإحساسـهم البـشري، ولا يكتبون

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عنه بوحيٍ من الرّب نفسه.

* * *

استيقظتُ ولم أزل حائرًا، كما لو جيء بي من مدارٍ لمدار، ومن بعثٍ لبعث، محمولًا على صدر الأثيرِ، شعرتُ أنّي قبضت بين خلجات رُوحي على الحدود الفاصلة بين عوالم الأمس، وعوالم الغد، كأنّي استطعت تحريك مجرى الزّمن حسب هواي، بل تشظّفت رُوحي من بقايا أثر نسل «آدم» عليها، شعرتُ أنّي مختارٌ، لأمرٍ سوف يقضي به الله، وسيصبح مفعولًا.

في ألق وحيرة وغبطة أفضت لأبي بما راودني في الحلم، فاستهزأ بي، وقال:

– الله ليست لعبة يلعب معه الصّغار يا «محمّد»، لعلّك تهذي!

– اسمي «شمس».

– احفظ القرآن قبل أن تخرّف.

– سأحفظه منذ اليوم.

– ماذا تريد؟

– أن تصدّقني...!

– يا ولدي، ما حدث هذا الأمر من قبل، فلا تجعلهم يهزؤون بنا.

– لقد قرأت قصّة يا أبي عن دجاجةٍ، رقدت تحتضن عددًا من البيض، فلمّا فقست، لم تنتبه لأيّ فرقٍ بين أفراخها، وفي يومٍ من أيّام الصّيف، اصطحبت أفراخها لتعلّمهم السّباحة، لكنّ أحدًا الأفراخ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

سارع دون أذن أمّه ورمى بنفسِه في الماء، فشرعت الدّجاجة المذعورة بالاستغاثة واقتربت من الماء، فإذا بالفرخ الصغير يسبح بمهارة غير معروفة في الدّجاج، ذلك أنه لم يكن من صنف الدّجاج أصلًا، بل كان من البطّ!

- تخرج من موضوع لموضوع ومن حكايةٍ لحكاية، مالي أنا ومال حكايات الأطفال هذه؟

- لأنّ ذلك هو حالي بينكم يا أبي، أنا أبدو مثلكم ظاهرًا، لكنّي في الحقيقة مُباين ومختلف عنكم.

بالطبع لم يصدّقني أحدٌ، حتّى الأئمة ومفسّرو الأحلام الذين استرسل معهم أبي في الحديث عن الرؤى التي راودتني، سخروا منّي، وشاع الأمر في المدينة، حدّ أنّهم باتوا ينادونني: «شمس المجنون».

كلّما مررت بجماعة استبدّ بهم الضحك، وأشاروا إليّ هُزوًا قائلين:

- المجنون..!

تضرّعت إلى الله أن يهديني إلى سبيل، عاقرهم التهكّم نحوي بشكل أقعدني في غرفةٍ في البيت، لم أعد أخرج، ولم أعد أباشر الحياة كالبشر، كنت أنصرف إلى أحلامي ورؤاي، وفي رؤيا، حضرني الله وقال لي: شمسي أكبر من أرضي.

وفي غبشةِ الفجر، خرجت، دون أن يشعر بي أحدٌ، لم أحمل على كتفي غير صرّة قماش فيها ثوبان من الصّوف، ونعل، آثرت أن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أخـرج عـبر دربٍ غـير مطروقٍ، فـإذا اسـتيقظ أبي، لعلّه يعـزو الأمر إلى أنّي خُسـفت بي الأرض، وسُـخطتُ، بسـبب شـططي مع الله.

أجل؛ كان عليّ – ككلّ مجنونٍ – أن أرتحل.

أجل؛ أرضك واسعة يا معشوقي السّماوي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

شاهين

خوي/ إيران -٦٤٥ هـ

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

في هذا النّهارِ، قتلوا مولاي.

قال الرّاوي:

في المشـهد؛ كالعادة، حصـيرةٌ أزليةٌ تحوّم جانحةً فـوق رؤوس النّاسِ بالأعـلى، في المشـهد أفـقٌ وسـماءٌ وغيـم، تثـب مـن مجاهـل أحشـائِهم البيـوتُ كأجنّـةٍ لم تـزل معلّقة بمشـيماتها في الأرحـام، تنسـلخ البيوتُ بانحـدار النّظـر ملفوظـة إلى قيعـان الشّـوارع، لكنّهـا مضبّبـة، يغلّـف وجوهَهـا السّـحابُ الرّمـادي، الأدق؛ يشـوّهها.

في السّـماء هنـاك، التي عند الأفق، لم تكن شـمسٌ، بـل كان ثمّة وهجٌ واهـن كأنّما تشـعر بالخـزي، لونٌ أقرب للـونِ الحسرة؛ أجل هـذا اللّون الباهت.

المشـهد ينحسر، شـيئًا فشـيئًا ينحسر، يتضاءل داخل الأعـين، لتبدو وجـوه البيـوت كأنّهـا ملامـح رجـلٍ عجـوزٍ محدّبـة، أهلكهـا الزّمـن، إذ لم يـترك فوقهـا غـير التجاعيـد المتفسّـخة، وغبـار التّواريـخ المزمنة، والخيبات المتتاليـة، واليأس، والرّضوخ، والذّل والهـوان، لم يترك الزّمن فـوق وجـوه البيـوتِ غـير مشـارف النّهاية الحتميـة، نقصـد – طبعًا- مثـل تلك النّهايات التـي يُمكن أن تفجّر جميع الأحـداث غير المنتَظرة.

فـإذا اقـترب النّظر أكثر، جـاز لنا أن نتأمّل المشـهد، بغـير حميمية ولا انحيـاز ولا تعاطـف بالطّبـع، فالرؤيـة المجـرّدة تدع مسـاحات التفكّر شـاغرة لأكثـر من مجـاز وأكثـر من تأويـل، ثـم أثناء تراجـع العين

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

رويـدًا، قـد نـرى رجلًا شِـبه عـارٍ، أو ثوبِـه تهالك من شـدّة الضرب والجـرّ، مربوطًا في شـجرة في منتصف طريق العابريـن، حوله بشرٌ، مع وضـدٌ، بين بين، والصّمت سـيّد المشـهد، لهـذا لا يُمكن لنـا أن نتحقّق مـن تفاصيـل الأحـداث، فالـرّواة في أزمنـة القهـر يلتزمـون بالصّمت القسري أيضًا؛ لـو تعرفون.

في المشـهد، إذًا، رجـلٌ شِـبه عـار، وشـجرةٌ يابسـة، وطريـقٌ مزدحمةٌ بالمتفرّجين.

دعونـا من تفنيد المشـهد وتحليلـه، ولنقـترب بأعيننـا على صدر الرّجـل العـاري، لحظة، لنحـدّد طبيعة المأسـاة قبل أن نـشرُع في مواكبة الأحـداث بمثـل هـذا الشّـكل الفوضـوي، المأسـاة أنّ الجميـع –بـلا استـثناء– يتفرّجـون، بعـد قليـلٍ، همهمات تنتـشر، وحنق، واسـتنكار، مـع ذلـك، لا أحـد تطـوّع لـيروي لنا ملابسـات هذا المشـهد، المأسـاة أنّ المشـهد في حـدّ ذاتـه يبـدو عبثيًـا، دون ضابـط ولا رابط، المأسـاة أنّ الـرّاوي نفسـه بـدا أُصيب بخـرس فجائي.

هـل يُمكـن أن تتداخل الحكايـات، بين قديـمٍ وجديد، بينـما الرّاوي يظـلّ جانحًا في الأفق، لا يرسـو؟

لا بـأس؛ فلنتمّـم حكايتنـا مـن حيـث زاويـة النّظـر، أو مـن حيـث يُمكـن لنـا أن نواليكـم بمسـتجدّات الأمـور، الظّاهـر منهـا والباطن، العـين تقترب عـلى صدر الرّجل، الرّجل – كما قلنا – شِـبه عـار، وأمام الحقيقـة يُبـاح العـري كإباحـة التعذيـر في ظـلّ الطـارئ مِـن الظّـروف القهرية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

الرّجل يئن، بدا مستسلمًا، لكنّ عينيه دامعتان.

كان يتمتم:

- رأيت الله، حدّثني عنكم، عندما كنت طفلًا رأيت الله، وتصاحبنا، ورأيت ملائكة، رأيت أسرار العالمَين؛ العلوي والسّفلي، ظننت أنّكم رأيتم ما رأيت، ولكنّي سرعان ما أدركت أنّكم لم تروا.

لكنّ جمعًا من الرّجال كانوا يحاوطونه، أحدُهم دنا منه، وبعينيه تسكُن نظرة حاقدة مشحونة، صاح:

- لقد فدح مجونك وخبلك يا «شمس»، جموحك ليس من الإسلام في شيء، أنت درويش فاسق، يملؤك رِجسٌ وكُفر وزندقة.

لا بأس من بعض التّساؤلات الحائرة، كيف كسب «شمس» كلّ هؤلاء الأعداء؟ لا بأس كذلك إن حاولنا -بشكل ما- وضع تصوّرات عن ماهية الدّوافع، توقّعات، وإن كانت عبثية حتّى، جزافية، لكن لنرجئ أمر الدّوافع، المهمّ في هذه اللّحظة أن نتابع، بدقّة، جنوح الحقائق نحو مصادفات قدرية باعثة على الدّهشة والتدبّر، منها -مثلًا- حقيقة أنّ الرّجال بدأت أعدادُهم تزداد، بدؤوا يحوّطون «شمس» في تحفّز، جماعات، كجراد ينجذب للّون الأخضر، في حين أنّ «شمس» كان يسرح - بلا هدى - في مناحي الفراغ، رأسه تدور حوله، وفمه يزوم، مع الأخذ بطبيعة أنّه قد يرى المخبوء من معالم الأشياء، بل إنّ بصيرته تسعى نحو استشعار أعمق تفاصيل الحياة، لعلّه شعر بسخونة أنفاس الرّجال، الذين أخذوا في الاقتراب أكثر فأكثر، وباتت أجسامهم لصيقة بجسمه.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بـدأت الألسـنة تنفـكّ، تهمـس في خفوت شـديد، حـدّ أنّ الـرّاوي المتلصّـص الأخـرس فقَـدَ بعـض التعليقـات أثنـاء إنصاته المتـواري، تعليقـات كان يُمكـن أن يكـون لهـا دورٌ أصيـلٌ وحيـويٌّ في تقـصّي الدّوافـع:

- ما كان لك أن تجنح يا «شمس»!

- إنّ الله أوجب عليك العاقبة.

- بيدِك أهلَكت نفسك يا «شمس».

كانـوا يخاطبونـه، فلـم يـردّ، اكتفـى بـزمّ شـفتيه، ثـم عبـس وجهه، وانعقـد حاجبـاه، واسـتكملت رأسـه دورانهـا بـلا مبـالاة.

- تُب، عُد إلى صحيح الدّين، يجوز أن نعفو عنك.

أشاح بوجهه، فتجرّأ واحد ودكّه في صدره.

- انطق!

خرج عن صمته، صاح في الجميع:

- أين «جلال»؟ رفيقي.

هجـم البعض عليـه، التصـق بالشّـجرة أكثر فأكثـر، وبـدا مفزوعًا، توجّـس مـن تحرّكاتهـم الفائـرة، وإن ظلّ يـردّد نفـس العبارة:

- أين «جلال»؟ رفيقي، هل قتلتموه أيضًا؟

ردّد واحدٌ:

- لو أنّ لنا أن نفهم سرّ عشقكما أنت و «الرّومي»؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فقال «شمس»:

- وإنّما هو مصيرٌ من قبل لقاءٍ، أبدٌ من قبل البدء، وخلودٌ ليس له أزل.

اقتحم الجمع درويش، وبدا مهتاجًا، صاح فيهم:

- ماذا تفعلون؟ مولاي «شمس»، أنتم حمقى.

هتف أحدهم وهو يزيحه بيده:

- ابتعد يا مخبول، مولاك عصى الله.

- أنتم من تعصونه بقتلكم درويشًا عاشقًا.

- هذا زنديق ماجن، أساء للإسلام.

- بل فاض في عشِقه وأنار عقولكم يا جهلة.

غير أنّ أحدُهم دفعه بقدمه، فبدت على ملامح الدرويش آيات التأسي، لكنّه ارتمى تحت قدميّ «شمس»، وانطلق يصرخ وينتحب، ثم انحنى، تناول من خِرقة بالية كانت تحت قدمي «شمس» كتابًا، رفعه أمام وجوههم، وهتف:

- اقرؤوا قواعد عِشقه، لعلّكم تُدركون!

فصاح «شمس»:

- احرقه، ما عاد ينفعهم.

لكنّهم تكالبوا عليه، وبسيوفهم مضوا يمزّقون جسده، ولم يسلم درويشه، نال طعنات لا بأس بها، في هذا النّهار، اكتسى الأفق بلون الدّم، ورغم خمول «شمس» ودرويشه، إلّا أنّ الرّجال ظلّوا يطعنوهما

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بغير اكتفاء ولا اتّزان، كأنّ شهوةً شاطحةً تقود أيديهم.

قلنا قبل ذلك أنّ المشهد – في سرعة جنون ردِّ فعلٍ عاصف – قد ينفجر.

ها هو المشهدُ انفجر؛ فهل من راوٍ؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جلال الدّين محمّد بلخي

بلخ/ خراسان -٦١٦ هـ

(قلتُ: لن أموتَ قبل أن أعرفك قال: من يعرفني لا يموت).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

النّهر يجري ونهرول خلفه، أعيننا ضاربة فيما وراء سطح الماء، نهرول وتدوس أقدامنا على الطّين، نراعي ألّا نحطّ على شواهد القبور التي تمتدّ على جزءٍ طويلٍ من الضفّة، تتحرّك أقدمنا مثل حلزون، ونبسمل ونقرأ الفاتحة في سرّنا ونلقي التحيّة والسّلام، والرّيح تصفّر داخل آذاننا كلّما نركض، كلّ هذا كي ندنو من «قوس قزح» البعيد المُرتسم أمام أعيننا زاهيًا، وكلّما اقتربنا ازداد بُعدًا، خيّل لي أنّي يُمكنني أن ألمسه بيدي، بل يُمكنني أنّ أغيّر لون جِلدي عبر ألوانه، سمعت أبي من قبل يقول أنّ الذي يؤمن بالشيء يناله، وأنّك إن آمنت أنّك فراشة ستطير، وإن آمنت أنّك سمكة ستسبح وتغوص، ولو آمنت أنّك مارد ستخرج من حشايا النّهر أثناء ظلمة اللّيل لتبلغ قامتك سدّة السّماء، وسمعته يقول أنّ الذي يمرّر يدَه عبر «قوس قزح» ستسكنه الألوان، وسيستطيع التحكّم في ألوان جسمه، لو شاء كان أخضر، ولو شاء يصبح أحمر، ولو شاء لمنح النّهار لون الجموح، واللّيل لون الحلمِ، لذا؛ لم أتوقّف عن الجري ظنّي سألحق به، أطاله قبل أن يندثر بمغيب الشّمس.

كنت أركض، ويركض الأولاد من خلفي، كنت أسبقهم بحماسٍ ولّده الشّغف والإيمان والطّموح، وانكفأت على وجهي وقمت، وتعثّرت في الطّين واستكملت، و «قوس قزح» يبتعد، لا يصغُر ولا يكبُر، فقط يبتعد، بدا ثابتًا كنقشٍ على لوحةِ السّماء، ظللنا نجري، ونجري، حتّى انصرم النّهار، وهَوَت الشّمس وراء كاهل الجبلِ البعيد مُرهقة من طيلة نوبةِ حراستها لأرضنا عبر النّهار.

بعد هذا النّهار، لم أر «قوس قزح» ثانية، وأمست جميع الألوان

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في عينـيّ بدرجـةِ الضبـاب، إذ طـارت إلينـا أنبـاء اجتيـاح «ترمذ»، واضطررنـا للرّحيل.

لقـد تنبـأت أمّـي وقالـت أنّ «المسـيخ الدجّال» قـادمٌ تلفظه أحشـاء مدينتنـا، لم تسـتشرف أنّ «المسـيخ» في حدّ ذاتـه تمثّل لآلافٍ مـن الجُندِ، حيث كان جيش «التتار» قد اقتحم مدينة «ترمذ» شـمال مدينتنا، قتلوا قرابـة عـشرة آلاف رجل، وانتهكوا مسـاجد المدينـة، وآثارهـا، دخلوا البيـوت، وأخـذوا يغتصبون النّسـاء أمـام أعين رجالهنّ، ثـم يربطوهنّ في حبـال جماعات جماعات، لينضممنّ لسـبايا جيـش «جنكيز خان»، بلـغ بهم الحـدّ اغتصاب الأولاد الفتيـان، كنّا نعـرف أنّ «التتار» جيشٌ ليـس بـه رحمـةٌ ولا رفـق، وإنّـما لم نكـن نعـرف أنّ الأمر قد يصـل لهذا الحـدّ الفـادح مـن المجـون، وأنّ «ترمـذ» تعرضّت لمجـزرة لم تكن من ذي قبل.

يـومُ المجـزرةِ يومٌ مشـهود؛ سـيدّونه تاريخ العـالم فيما بعد، وسـيظلّ شرخًـا داميًا في جبهـة الوطن.

الشّـيطانُ بنفسِـه يعبث في مصائرِ النّاس، صباحٌ عادي، ككلِّ صباح، الجميـع يبدؤون يومهم بقـراءة القـرآن ورشّ الأرض وإحراق البخور، الجميـع يذهبـون إلى المسـاجد والكنائـس والمعابـد، يُبـاشرون طقوس يومهـم ككلّ يـومٍ دونما حـذرٍ من الغد.

ثمّ ولا كأنّها القيامة.

كانـت الشّـمسُ متثائبةً كما لو أنّهـا عقِبَ نومٍ عميق، ثم بـدأ كلّ شيء يتـوالى بترتيـب مأسـاوي، دخل المغـول أرضَ «ترمـذ»، ودنـوا العُمق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المدينـة، بخيولهـم وقوّاتهـم ومنجنيقهـم ورماحهـم، وبدأت تتسـاقط الأجسـاد، ويسـقط الإدراك، والمغـول يُطيحـون في الجميـع بـدمٍ بارد، عددُهـم لم يكـن مَحـلّ إحصاء، فالعدد نسـبي جوار هيبة الـدّم، عددهم لم يمنـع «إبليـس» مِن اللّهو ذلـك النّهار، كان يتراقص فـوق الرؤوس، وداخـل الجثث.

يـوم المذبحـة بالطبـع كان مشـهودًا، في بلادنـا الآمنة لم تحـدث مجزرةٌ بهذا الشّـكل قبـل ذلـك التّاريخ.

انتهتِ المذبحة، ولم يَنتهِ الأسـى، إذ اسـتكمل جيـش التتار زحفه تجاه «بلخ» مـن بعد ذلك.

رابـط جيـش «جنكيـز خـان» أيّامًـا عـلى حـدود «بلـخ»، ناوشَـنَا، فامتلأنـا بالفـزع والخـوف من خطـرٍ داهـم لن يترفّـق بنا ولن يشـفق، خطـر يُمكـن أن يسـحق التّاريـخ نفسـه والحضـارة، أشـعلوا النّيران، وأحاطونـا بسـياجٍ مـن زيـتٍ مشـتعل، وضربـوا المدينـة بالمنجنيـق كمنـاورة، ثـم هـدؤوا، وقضـوا ليلتـين دون هجـومٍ أو ضرب، أقامـوا الخيـام عـلى الحـدود، وانتـشروا بـين غابـات الشّـجر، وكنّـا نسـمع صهيـل الخيـول ونفير الأبواق، وظلّت رؤوسـنا ترسـم آلاف المشـاهد المُحتملـة، ولم يكـن التفـاؤل جزءًا من أيّ مشـهدٍ، وكنّـا نقابل بعضَهم في الأسـواق، بسـيوفهم وأحصنتهم، يطوّفون بيننـا، ووجوههم تُنذرنا بما هو قادم، ويهبطون بالسـياط على أجسـامنا، فنُسرع نُهرول ولا يبقى رجلٌ في السّـوق، اسـتباحوا شوارعنا ومعابدنا، ومسـاجدنا وكنائسنا، كانـوا يتركـون الخيول تنفلـت لتتبـوّل في سـاحات دُور العِبـادة، وبلغ

This file was downloaded from QuranicThought.com

الأمر أنّهم اغتصبوا امرأة إمام المسجد الكبير، ربّما لجسّ نبضنا، ولكنّنا كنّا عجزة، أُجبرنا على الصّمت الحسير، وماتت المرأة من شدّة النزيف أمام أعيننا، ورأينا الإمام يبدو كمجنونٍ أطاح به الخرفُ، لفّ دروب المدينة من أولها لآخرها يستغيث بالسّماء، مزّق ملابسه، وبدا غادر إلى عالم التّيه، ظلّ يصرخ في كلّ أرجاء المدينة وهو سائرٌ على قدمين حافيتين، ثغره لم يكن ينفرج إلّا عن هذه العبارة:

- قتلوها، قتلوها يا جبناء.

رأسُه صارت مشدودة شطر السّماء على الدّوام، كأنّ خيوطًا خفيةً تسحبها لأعلى، نظراته الشّاخصة تحمل من الأسى قدْرَ البلاهة، ومسبحة بين أصابعه ترقد، يصفّ لأسفل حبّاتِها بأنامله دون تركيز، يجري إلى الأضرحةِ المقامة بامتداد المدينة، يتحسّسها، يقعد بالسّاعات جوارها، يروح ويجيء بأنامله على السّترات التي تغطيها من كلِّ الجوانب، يلملم أعوادَ السّمسم اليابسة مِن فوق التّراب ويُشعلها يُدخنها وإن كان كثيرًا ما يسعل فيحمرّ وجهه.

قلت: هل هذا الذي علّمنا طلاوة القرآن؟

يجلس على كلّ المقاعد الخشبية أمام كلّ البيوت، تلك التي خلت من رجالها، كانت تمتماته تطنُّ داخل رؤوسنا بما يُشبه الصّدى، يراقبنه النّساء بأعينهن مِن خلال الأسطح والنوافذ، ويتحسّرن على حاله، وعلى رجالهنّ؛ رجال المدينة، الذين أصبحوا في عداد المجهولة مصائرهم، ويبكين، يُدرِكن أنّ بطشَ التتار لا حدّ له.

وفي هذا النّهار، بدا نفيرٌ في رأسِه يعلو فيلتَهِم ما اختزله في عقله من

This file was downloaded from QuranicThought.com

تركيز، بلوثة وسأم راح يتلفّت حوله، ثم رفع رأسَه نحو الشّرفات وتبسم، كأنّما يود لو يحكي شيئًا، لأيّ أحد، والنساء ينظرن بلوعةٍ إليه.

وفجأة؛ تحسّستْ يدَه أسفل جلبابه الرثّ الممزّق الغارق في الشّحم والقذارة، وانتشلت مَنجلًا بتؤدةٍ، ثم رفع عينيه ورمق لفائف الغمام التي تتمدّد على فراش السّماء فوقه، وثمّةَ لعاب يسيل من جانب فمِه، ولسانُه يتدلّى من النّاحية الأخرى، كانت يدُه تتحسّس أسفل جلبابه في لوثة، ونحن نتحسّس التّقرحاتِ التي تركتها سياط جُند التتار فوق أجسادنا، كأنّها حيّاتٌ تتلوّى صاعدةً لأعلى نحو الرّقاب.

رفع ساعِدَه لأعلى فلمع نصل المنجل إذْ سقط عليه بصيصٌ مِن ضوء الشّمس، حدَّجَه السّائرون فزعًا مبتعدين، فمضى يقهقه في يأسٍ، ويداعب بالمنجل شَعْرَ ذقنِه المتشعث، بأناة، ثم رفع كاحله وتربّع على مقعدٍ، وطفق يُناغي نفسَه كما الأطفال، ويُدندن بتهكّم مجاذيبَ لحنًا لا يُفهم.

شهقتْ بعض النّساء حين انكشفت سوأتُه وهو يُريح ساقيه على مقعدٍ، فأوغل في نوبة القهقهة كممسوسٍ حتّى سقط أرضًا أو كاد، فانفلت مِن يده المنجل وتدحرج، لكنّه التقطه بسرعة وجعل يحتضنه كأنّه رضيعُه، أَخرجَ لسانَه يغيظ طيفًا لا يراه غيرُه، ربّما طيف أحد المغول، لم يكن أحدٌ يعرف تحديدًا، كالطفل كان، ولكن ألعابه في الحقيقة بدت محيّرة، أين بات مكانه من هذا العالم القبيح؟ اتّخذ ركنًا منزويًا في ظلّ كلّ الآخرين، وأخذ يُعاين من خلاله عوالمَ بعيدةً لا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تراها عين، لعلّه أمسى العاقلَ الوحيد في مدينةِ المنكوبين.

قعَدَ لبرهةٍ يُداعب لحيتَه في إسهاب وكانت عيناه تجوّلان في كلّ الأنحاء، ثم سَحبَ طرفَ جلبابِه لأعلى وتفحّص فيما بين فخذيه لوهلة، مضى يتمتم تلاوةً ما، ربّما لا يفهمها سواه، وملامحه تسبح داخل حدود وجهه بلا مستقر أو تعبير، بعدَها، أغمض عينيه، ولعلّ دمعةً ما انفلتت رغم الابتسامة، دمعة انبجست من دون دراية، إنّما فقط أغمض عينيه، وفي لحظةٍ شبْهِ طائشة، لحظة غير معلومة البدء وغير ملموسة التّفاصيل في نسبية الزمن – ولعلّها لحظةٌ غاشمة هو وحده عاشها أكثر من مرّة بتفاصيلها وأبعادها وتأويلاتها وتراكماتها في عقله- أتى بالمحش على ذَكَرِه، وفي سرعة، ودونما تفكير، جبّه.

ألقى بعضوه المبتور إلى الأرض لتتفجّر الدماءُ من قاعدته أعلى الخصيتين غزيرةً هائجةً كنافورةٍ لا سيطرة عليها، وكان مغرقًا في ضحكٍ بليد لا يُبالي بما أتته يداه، سواء عمدًا أو سهوًا، كما لو أنّه يُعاقب نفسَه على إتيانٍ قهري ودم استُبيح لم يكن له ذنبٌ فيه.

في لوعةٍ أطبق عليه أبي، صرخ:

– هل جُننت يا شيخ؟ هل جُننت؟ ماذا فعلت؟ بالله ماذا فعلت؟

اتّسعت عيون النسوة، تقهقرن في سرعةٍ خاطفة وكاد بعضهنّ يسقط على ظهره وكأنّ دماءَه طفرت على أعينهنّ، بدت الصّدمة كأنّها لجّة من نار وجّت في وجوهِهنّ دفعةً واحدة، كانت أبدانُهنّ تقشعرّ وهُنّ يَجُبنَ بأعينِهنّ كلّ تفاصيل المشهد، لماذا قُدّرَ عليهنّ أن يعاينّ هذا المشهدَ بهذه الفجاجة؟ لم يكن هناك سوى بحّةٍ مرتعدة

This file was downloaded from QuranicThought.com

أطلقها، والنّاس يلتّفون حوله في عدم فهم وفي دهشة، ولكن لون الدّم الأحمر كان قد أغرق بالفعل كلّ حدود البصر، انهمر فوق الزّروع الخضراء وفوق قمم الأشجار وكسا المدى، تشرّبت السماءُ اللّونَ فضاع شكل النّهار والشّمس وشكل الوجوه ذاتها.

طوّقته بجسدي ورحت أنهنه، هذا فعل القهر، فعل القهر يا مولاي، لم نعُد رجالًا.

وأخذتِ النساءُ المكلومات بعدَها – والأسى يستقر في أرواحهنّ – يُشرِفن كعادتهنّ على العالم الفسيح من خلال شرف ضيّقة وهمّ ثقيل، أدركن أنّ ما جرى له قد يجرى على كلّ الرجال، فاستمسكتْ بهنّ الحسرة أكثر.

وظلّ اللّون الأحمر يترقرق في قلب السّماء لزمن.

بعدها؛ اقتحم التتار حصنًا من حصون المدينة الشّمالية، واستعمروه، ثم أرسل كبيرهم «جنكيز خان» رسولًا يطلب اجتماعًا مع حاكم المدينة وكبيرها.

قصّ لنا الأمير الحاكم أنّه دخل على «جنكيز خان» بصحبة حارسين، وقف أمامه طويلًا دون أن ينظر له، وكان يأكل ثمرة تفّاح، ويتجشّأ، ثمّ يشدّ سبيّة من سبايا «ترمذ» فيداعبها أمام عين أميرنا.

قال الأمير:

– لم يستحِ «جنكيز خان»، ظللت واقفًا أمامه مثل عبدٍ ذليل قرابة السّاعتين، وانصرف به الأمر أن يطأ ابنة «ترمذ» أمامي، مزّق

This file was downloaded from QuranicThought.com

ملابسـها، ومـرّر أظافـره المسـنونة عـلى نهديهـا فجرحهـما، رأيتهـا تنتحـب، وهي تحاول مسـح الدّمـاء بأناملهـا الرّقيقة، ورأيتـه يباشرها بغـيرِ اتّـزان، مبـاشرة ثـورٍ هائـج، أو مارد مـن مـردة ألف ليلـة وليلة، بالطبـع مـلأني الغضـب، وكدت أنقـضّ عليـه، لـولا أنّ حارسًـا على يمينـي، وآخـر على يسـاري، فلـمّا انتهى «جنكيـز خان»، لـوّح بإصبعه نحـوي دون أن ينظـر لي وتمتـم:

- أنت حاكم «بلخ»؟

أجبته بأنّي هو الحاكم بهزّة من رأسي، فضحك وقال:

- هه، متى ستسلّمنا مدينتك؟

ثم استدار لي يصيح متحرّزًا:

- أم لك بُغية أخرى؟

أُسقِط في يـدي، إن قبلـت بعـت «بلـخ» هوانًـا وبخسًـا، وإن أبيت نـزل عـلى رقبتي وخسرت نفسي، فتلجّم لسـاني، حينذاك رفع رأسـه ورمقنـي بنظرة آمرة، ارتجفـت، أدركت أنّي هالـكٌ لا محالة، وأصدقكم القـول أنّ هـذا الرّجـل همجـيّ أشـدّ ما تكـون الهمجيّـة، مخبـولٌ، وفي الحالـين هـو يملـك زمـام الأمـر كلّـه، فـإن أراد اجتـاح «بلـخ» مثلما اجتـاح «ترمـذ»، وأحرقها، بـل خشـيت أن يُفعل بأطفالنا ونسـائنا ما جـرى على أهـل «ترمـذ»، لكنّـه - بعد وقـتٍ - بـادرني قائلًا:

- حسنًا يا هذا، أبشر، قد أمنحكم الأمان.

كدت أهبط على يده أقبّلها، الذّل لا يَشعُر به من كان نصلُ السّيف

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فـوق عنقه، إذ عتق رقبتي قبـل أن يعتق مدينتي، الأمان مـرّة واحدة، فليكن، إنّما..

أضاف «جنكيز خان»:

- لا بأس، ارحل.

وها أنا لسـت أفسّر لمَ استدعاني ولمَ تركني حرًّا طليقًا ولمَ سيمنحنا الأمان؟

في هذا اليوم، قال أبي لأمّي:

- حسبه يُضمر أمرًا..! هذا الرّجل ماكرٌ.

ردّت أمّي:

- أخشى أنّه يُضمر الشرّ الأفدح ممّا حاق بمدينة «ترمذ».

- ضاعت «بلخ»..!

قالت أمّي:

- لكنّنا لم نضع بعد..!

استفسر أبي بعينيه، فأضافت أمّي:

- لنا مستقرٌّ على أرضٍ أخرى.

- وهل نفرّط في مدينتنا؟

- بل أمر الله نافذٌ، لنا ابنٌ نخاف عليه الهوان أو الموت.

- ولكن....

This file was downloaded from QuranicThought.com

حاوطته أمّي بعينيها وقالت باستجداء:

- «نيسابور» أرض علمٍ وأمان.. قريبة.. فلنرحل لأجل ابننا.

وفي سديم اللّيل خرجنا، نحمل على أكتافنا ما استطعنا أن نحمله من متاع، كانت مشاعل المدينة تتراقص فوق أسوارها، وكان كثيرون قد قرّروا الرّحيل، وكنّا نغادر -خلسة- في اللّيل عبر باب السّور الجنوبي للمدينة.

ولم نكن قد بلغنا «نيسابور» بعد، حينما ترامت إلينا أنباء مريرة عن دخول «جنكيز خان» إلى «بلخ»، اجتمع بحاكمها وبعلية القوم والقادة يطلب منهم، بعد أن منحهم الأمان، أن يعاونوه بعتادهم وجيشهم وأموالهم في غزو «مرو»، العجيب أنّ الخوف استحكم بحاكم «بلخ»، فأذعن لطلب «جنكيز خان» مرغمًا، وأعدّ رجالًا ومالًا لمعاونة جيش التتار على اجتياح «مرو»؛ المدينة المسلمة المسالِمة، لم يتساءل أحدٌ كيف سيقتلون إخوة لهم قدر ما تصوّروا بشاعة الانتهاكات التي طالت مدينة «ترمذ»، لم يستشرفوا أنّ «جنكيز خان» أراح قوّاته ووفّرها لمعارك أخرى، بل وعبر استخدام «بلخ» لضرب «مرو»، مسلمون يفتكون بمسلمين..!

«مرو» كانت هاجعة، لم تُنذَر ولم تحتسب الغدر، جيش التتار مرهوب وتخشاه جميع مُدن «خوارزم»، ولكن جيش «بلخ» المسلم تورّط، ورطة لن ينجو منها أحدٌ، على رأس جيش التتار خرج ابن «جنكيز خان»، جيش قوامه مئات الألوف من البشر، رغم ذلك؛ أرسل حاكم «بلخ» مبعوثًا سريًّا إلى حاكم «مرو» متسربلًا بالظّلام،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقد بلغ مأربه، كان ذلك قبل وصول جيش التتار بيومين، لكن ابن «جنكيز خان» بوغت بوجود جيشٍ يزيد عن مائتي ألف رجلٍ، كان جيش «مرو» رابضًا على أبوابها في انتظار التتار، استطاع ابن «جنكيز خان» أن يؤمّن جيشه ليومين آخرين عند حدود «مرو»، دون أن يترك ثغرة للنّفاذ إليه، وبدا أنّه سيتراجع تحسّبًا، لكنّه استطاع بمكرٍ مغولي أن يستكشف ويمحّص، جنّد جاسوسًا وربّما اثنين، وتناقل جيش «بلخ»المسلم بعض الإشاعات والأنباء الكاذبة، منها أنّ جيش التتار سينسحب حتّى إشعار آخر، ومنها أنّ المغول أمسكوا بالرّسول الخائن، وظلّ حاكم «بلخ» قلقًا، إنّما - في النّهاية - سقط في الشّرك، واستشفّ الجاسوس عن فعلتِه، فأبلغ ابن «جنكيز خان»، الذي - في دهاءٍ أكبر - طمأن حاكم «بلخ»، وأشعره بمسئولية الجانبين عن المعركة، وأنّهما جانبان متآزران ومن الجنون أن يضحّى برجله، فأقرّ حاكم «بلخ» بالواقعة، بوعد أن يتمّ الغفران، وفي الصّباح ذبحه ابن «جنكيز خان» —ورسولَه- على أبواب «مرو»، ما أوغل الرّعب والرّهبة أكثر في قلوب رجال «مرو».

أثناء ذلك، لم نكن قد قطعنا أبعد من بضعةِ أميالٍ جنوب «بلخ»، كانت الحرارة قاسية، وكانت الأسراب النّافقة من طيورٍ تسقط علينا من السّماء، وأوار الحرب لم يستقرّ، وبضعُ رجالٍ متفرّقين يقابلوننا يوالوننا بالأخبار، ومن ثمّ يستكملون فرارهم.

استغلّ ابن «جنكيز خان» اللّغط والتفكّك اللّذين دارا في صفوف جيش مسلمي «مرو» لصالِحه، وفي غفلةٍ هجم عليهم عند حلول

This file was downloaded from QuranicThought.com

المساء، اقتتلوا، وانهمرت الرّماحُ والسّهامُ من كلّ اتّجاه على جيش «مرو»، الغريب أنّ مسلمي «بلخ» ضلعوا في ذبح مسلمي «مرو»، والأغرب أنّهم لم يَسلَموا، فسرعان ما انصرف إليهم جُند التتار يذبحونهم بدورهم، إذ انتهى دورهم في المعركة عند هذا الحدّ، انطلق التتار يذبحون بلا رادعٍ ولا اكتفاء، فقُتل معظم جيش «بلخ»، وجيش «مرو» الرّابض بأبواب المدينة، ونُهبت الدّواب والأسلحة والغنائم من الجيش، ولم يكن جيش التتار يعرف الهزيمة، وإن ثابر جيش «مرو» واستبسل.

تخيّلوا رجالًا يواجهون غازيًا وهم يؤمنون أنّ هذا الغازي لا يُقهر؛ كيف يكون احترازهم عن الأمر؟ وكيف تكون احتياطاتهم؟

نالت الهزيمةُ الدّاميةُ من جيش «مرو»، وفُتحت الطّريق سالكة إلى مدينة «مرو» ذات الأسوار الضّخمة العظيمة؛ وكان بها من السّكان ما يزيد على سبعمائة ألفِ مسلمٍ من الرّجال والنّساء والأطفال.

انتصر التتار وحاصروا «مرو»، وقد دبَّ الفزع في قلوب أهلها بعد أن فنيَ جيشهم أمام أعينهم، لم يفتحوا الأبواب للتتار مدَّة أربعة أيّام متتالية، وفي اليوم الخامس أرسل قائد جيش التتار ابن «جنكيز خان» رسالة إلى قائد مدينة «مرو» يقول فيها: لا تُهلك نفسك وأهل البلد، واخرج إلينا نجعلك أمير هذه البلدة، ونرحل عنك.

صدَّق أمير البلاد ما أرسله زعيم التتار، لعلّه أوهم نفسه بالتصديق وأراد أن ينجو بالمدينة، فخرج إلى قائد التتار، استقبله قائد التتار

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

استقبالًا حميمًا مُداهنًا، بل احترمه وقرَّبه منه، ثم قال له في خبث:

- أخرِج لي أصحابك ومقرَّبيك ورؤساء القوم حتّى ننظر فيمَنْ يصلح لخدمتنا، فنُعطيه العطايا، ونقطع له الإقطاعيات، ويكون معنا .

خُدع الأمير، قسرًا أو بإرادته، لم يكن أحدٌ ليعرف، إنّما اجتمع بمعاونيه ووزرائه وجنوده، وفوجئوا جميعهم بأنّ ابن «جنكيز خان» يقتحم عليهم الاجتماع، بتدبير من الأمير، كان تدبيرًا وقائيًا لم تُحسب نتائجه، ضربت البلبلة متن الاجتماع، وكاد ينفضّ ويتفرّق الجميع، لولا أنّ ابن «جنكيز خان» أحاطهم بحرّاسه، غلّلوهم وتمكّنوا منهم، صفّدوهم في سلاسل وجنازير، وقيّدوهم بالحبال.

وقف ابن «جنكيز خان» في طلعة هذا النّهار وسط قلب مدينة «مرو» مزهوًا، تهامس النّاس، أدركوا أنّهم أُهلِكوا، وجنود التتار استحوذوا على المدينة، ثمّ بدأ ابن «جنكيز خان» يطرد الرّجال من المدينة، عدا كِبار التّجار النّافذين أصحاب المال، وأصحاب الحِرف، وعدا النّساء اللواتي انضممنّ لسبايا المعركة، خرج الرّجال هذا النّهار من أبواب مدينة «مرو» وقد اقتُلعت عزّتهم، لكن – وقبل أن يتجاوزا أبواب « مرو»- حشرهم جيش التتار، وقبضوا عليهم جماعات، وأعادوهم لقلب المدينة.

في قلب المدينة، جلس ابن «جنكيز خان» على كرسي من ذهب، كانت عيناه تروحان وتجيئان وتسرحان على ناس المدينة، أدرك أنّه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ظافرٌ حقيقي، فأمر جنوده – ليؤكّد ظفره – هاتفًا:

– سلسلوا أمير المدينة ووزراءها وكبار قادتها.

صفّهم أمام أعين النّاس، ثمّ هبطت السّيوف على رؤوسهم تشجّها، وعلى رقابهم تنحرها، ثمّ أرسل بالصنّاع وأصحاب الحِرف إلى «منغوليا»، في قافلة خرجت مساء ذلك اليوم.

في صباح اليوم التّالي، هتكوا حرمة الموتى، نبش جيش التتار قبر السّلطان «سنجر» بحثًا عن الذّهب والمال، هشّموا جدران الضّريح، ولم يجدوا شيئًا، فأصرّ ابن «جنكيز» أن يواقع سبيّة داخل الضّريح، اعترض واحدٌ من جنودِه، لكنّه في لمح البّصر اقتلع رأسَه بالسّيف، وأجبر السبيّة على خلع ملابسها، وضاجعها، أثناء هذا؛ ظلّ يقهقه في جنونٍ.

ثم اقتحموا البيوت واستنزفوها، أخرجوا الأموال والنفائس، ولمّا انتهى جيش التتار، أمر ابن «جنكيز خان» أن يُقتل كلّ أهل المدينة، أن تُباد عن بكرة أبيها.

قال متذرّعًا:

– إن المدينة عَصت علينا وقاومت، ومَنْ قاوم فهذا مصيره.

منذ هذا التّاريخ؛ لم يعُد يُذكر اسم «مرو»، حيث ذُبح سبعمائة ألف رجلٍ وامرأة وطفل، أُبيدت مدينة، ولم تقم عبر التّاريخ ثانية.

كنّا نستأنف الطّريق إلى «نيسابور»، وكان ينتظرنا جحيمٌ آخر.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

محمّد بن ملك داد التبريزي

حلب/ سوريّة -٥٩٧ هـ

(خلاصةُ جميع وصايا الأنبياء: ابحث عن مرآة لنفسكٍ، وما المرآة إلاّ الله).

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
This file was downloaded from QuranicThought.com

يـا الله، يـا حامـل رؤيـاي، ويا مُنتهـى كلّ عبـثٍ دنيوي، عـامٌ يمضي وراء عـام، وعشـقُك في خلاياي يجـري بجريان الـدّم، ويغذّيني، كيف أصـبر مختزنًا كلّ هذا الشّـوق؟ نراك عبر أنفسـنا، فإن كنّـا خطأة آثمين، فسنخشـاك، ومـا أبعـدك عن ذلـك يا رحـوم، وإنّـما أنت أصـلُ الحبّ والمغفـرة، أصـلُ الرّحمة والعِشـق، وكلّنـا مرحومين بك، ولـك يا الله.

طريقـي إلى الحقيقة صنعها فؤادي، غاب عقلي وترك فؤادي مُرشـدًا، فاهتديت، سـنعرفك يا الله إن أدركنا قدرة أنفسـنا على اسـتنباط مجاهل الغيـب، عرشُـك قلبـي، وإذ رأيتـك، لم يعُد جسـدي صالحًا للعِشـق، إني استُهلِكت بالتّـام، وباتـت رُوحـي محلّقة إليـك، فلا تخـذل رُوحًا عاشـقة يا الله.

كُن معي أينما حللت، وأينما حطّت رحلتي.

خرجـت من داري قاصدًا مسـتقرًّا آمنًا، إنّ المجنـون لم يعُد له موضعٌ في قلـوب هـؤلاء، ظلّـت تُخالجنـي الـرؤى، واسـتقرّيت ببدايـة طوافي في بلـدة مجـاورةٍ لمدينتي، اشـتغلت نجّـارًا للّحـود، في حانـوتٍ بجوار إسـطبل خيول، تأتينـي روائح الخيل عـلى هوىً في نفـسي، وكنت دومًا ما أرى الصّباح وسـيمًا حـين يطرق باب عينيّ ويسـتأذنني في الدّخول، إذ أنّي أنيـس النّـور، إنّـما ما بدا منه أثنـاء الرؤى التي لم تغـب، بدا مبهمًا، وهـو يعـبر عتبة روحـي، وينبئني بأنّـه ما جـاء إلا ليُنهي عبـث حياتي، لم أفهـم، وحضرتنـي رؤيـا كأنّـما أخاطـب نعـشي، ولم أكن وجـلًا ولا مسـتغربًا، بل كنـت أخاطبه كأنّـه صديقي:

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

- أشكرك نعشي، كونك كنت مشفقًا على جسدي المثخن بالدّهشة، ورأسي الممهورة بالألغاز، وأنت تمضي بي فوق الأيادي تحملك دعوات الأحبّة، الذين يعرفونني، والذين بصراحة لا يهمهم أن يعرفوا عنّي غير الرّحيل.

ساعة جئت أيها الصّباح لم أتكهن أنّني بيدي أعدّ نعشي، أليس كذلك ؟

رأيتني في الحُلم ميّتًا ومسجّى أرقد في بطنِ صندوقٍ..!

لكنّي ظللت مع كلّ صباحٍ أهذّب النعوش لأصحابها، وأفرغ في إتمامها، على أحسن ما يكونُ، زهدي في الحياة، ولعلّ النّاس الذين يرهبون مشهد اللّحود المسنودة على جدار الحانوت، رافعة وجوهها لأعلى تنتظر نداء السّماء، لا يدركون أنّ الحانوتي مثله مثلهم، لا ينقص من آدميته كونه معاونًا لـ «عزرائيل»، فيما يمارس مثلهم تمامًا كلّ قسوة ما يدور، إنّما كلّ ما هنالك أنه يتكسّب من إخفاء خطايا الموتى عن عيونهم، وأن يودعهم مثواهم المحتّم مزيّنين جاهزين لعاقبة المصير.

لعلّهم وهم يعبرون أمام الحانوت، بل بعضهم يفضل مرور الشّارع إلى الناحية الأخرى، وتتّسع أعينهم بهلع، وهم يرمقونني، وأنا أصنع اللّحود الخشبية وأزيّن جوانبها بآيات القرآن، لا يعي أحد فيهم، نظرتي هذه التي تدعوه لأن يبتسم في وجهي، إذ إنّي أفتقد هذه الابتسامة منهم.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وفي اللّيـل؛ تجتاحنـي الـرؤى، كلّهـا عبارة عن مشـاهد مـوتي، بأكثر من صـورةٍ.

ورأيت «عزرائيل».

❋ ❋ ❋

رهبـة الظّـلام المحيطـة، وأصوات الخلـق الهـادرة التي أسـمعها من الخـارج، وهـو واقـف أمـام بـصري يملمـل جناحيـه السّـوداويين في ضجـر، أشـياء، لم تكـن لتمنعنـي من إنشـاد الشّـعر.

- اخلص.

- لا داعي للعجلة يا سيّد الموت.

❋ ❋ ❋

أفقـت من هذه الرؤيا وجسـدي مغمـورٌ بالعرق، مـن ذي قبل رأيت الله، ورأيت ملائكـة، واليوم أرى «عزرائيل»!

لم يكن الإسـطبل الذي أسـكن بجوارِه بعيدًا، لكن مـا أغربها الخيول هـذا المسـاء! بـدت تحمحم قريبًـا منّي، حمحمـة حزينة، لم أكـن أنام من قبـل إلّا عـلى أصواتهـا التي تؤانسـني، اللّيلـة، أصوات الخيـول تأتيني كأنّهـا مـن حلمٍ بعيـد، نمت على مجيئه وعشـته كثيرًا من قبـل في خيالي، لعلّني أيضًا عشـته بشيء من الغمـوض في واقعي، وشيء من القسـوة، أصواتهـا حلم، وأصواتهـم حلم، الأصوات هذه كلّهـا، عندما تتداخل في بعضهـا البعض، تشـوّش على صـوت الخيول المحبّـب، ولا يعود لي قـدرة على تمييزها، فأُصاب بالخبـل، وأدرك، أن حمحمة الخيول، القريبة

This file was downloaded from QuranicThought.com

الواضحـة، تبتعـد الآن، وتروح، شـيئًا فشـيئًا، تـروح، أدرك أنّي حتمًا سـأروح ،كما هـي تمامًـا تروح.

وجـب أن أتبـع صـوت الخيـول إذًا مهـما بـدا الأمـر جانحًـا، لكنّـي أرجـأت الأمـر.

* * *

في اللّيلـة التّاليـة، أُغرِقـت في الحلـمِ، ورأيتنـي في صحـراء، ورأيتني فاقـد هويتـي، وكان حـولي جمـعٌ مـن الرّجـال، وكان لكلّ رجـلٍ فيهم في الصّحـراء فكـرة مغايـرة عـن النجاة، بـدا اختُطفنـا، أو تـمّ تنويمنا، أو ربّـما اسـتفقنا، لم يكـن أحـدٌ يعلـم عـلى وجـه التحديـد، لـذا، أُطلق الخيـال، فتباينـت التأويلات، بين مُضحـكٍ، وأكثر إضحـاكًا، لكنّي في الحلـمِ قلت:

- لعلّ ما عشناه في الأصل من حياةٍ مجرّد حلمٍ لطيف..!

- ليس ألطف منك.

فضحكـوا، وظللـت وحـدي في الحلـمِ أتأمّـل في ضياعنـا، محـاولًا وضـع تصـوّرات عـن سـبيلٍ للنجـاة.

تحلّقنـا النّـار، افتعال الأمـل أجدى، وثرثرنـا كثيرًا، بل خدرنا نسـيم الصّحـراء غـير المعهـود، فبُحنـا بالـذي لا يُمكـن البوح به عـلى أرض الواقـع، وراحـت نـزوات كلّ رجـل تُكتشـف مـن تلقاء نفسـها، ففي الوقـت الـذي كنّا نتصيّد طـيرًا نافقًا، أو زاحفًا جنح، مـن أجل أن نتمّم وسـائل الحيـاة في مثل هـذه الصّحراء القاحلـة، كان أحدُنـا — مثلًا-

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يُعاشر آخر خلف تبّة رمل، كنّا نسمع الأصوات، وقدر ما استسلم بعضُنا لفكرة الفقد، فعاقر الواقع المُعاش، قدر ما حاولت أن أتمرّد، لإيجاد حلّ منطقي.

قُلت:

- فلنتحرّك إذًا.. لعلّنا نجد مخرجًا..!

- تحرّكنا كثيرًا.

- العجب أنّنا لم نتعارف إلّا في هذه الصّحراء..!

- الأعجب أنّنا استيقظنا في الصّحراء..!

- لكن لا يُمكنني تذكّر آخر حدث مرّ بي..!

- كلّنا كذلك.

- إن تلك إلّا حياة أخرى.

- أو موت حقيقي.

استوقفني تعليقه، موت حقيقي..! ربّما، من يعرف كُنه الموت على وجه الدقّة؟ من مات وعاد يحكي لنا؟ عليّ أن أصدّق أنّنا موتى لئلا أُجنّ..!

الجنون أزمة المصادفة...! عادة الجنون..!

رفعت رأسي إلى السّماء، عبست ملامحي، همهمت، وبشكل غير إرادي كانت أصابعي تتّجه إلى أعلى، وأنا أزوم، فقال لي أحدهم:

- هل ستتشاجر مع الرّب؟

- لعلّ شجارنا يُنهي المسألة..!

This file was downloaded from QuranicThought.com

وبـدا أنّي حقيقـة أودّ التّشـاجر مـع الـرّب، الإنسـان الـذي لا يفهـم عاجـز، وميـزة الإنسـان الأصيلـة هـو شـعوره العميـق بالكراهيّة تجاه العجز.

تركت مجلسـهم، وحثثت الخطى صوب ربوة قريبة، تسـلّقتها، وكان واحـدٌ يضاجـع آخـر أسـفلها، فلـم ألتفـت، تأمّلـت السّـماء المظلمة، كانـت النّجـوم لا تومـض، وكان الأمـل واهنًـا وبـدا لا يُـرى في غمرة التسـاؤلات، الصّحـراء علامة اسـتفهام، والسّـماء مجـرّد نقطة سرمدية في فضـاء الذّهن.

وفي الحلمِ؛ كنّا جميعًا نجهل أسماءنا.

بـلا جدوى كنّا نحاول اسـتنطاق الذّاكرة، وفكّرنـا أنّه ينبغي أن نُعيد تدوير هوياتنا، بما يتناسـب وعُزلـة المكان، ومعطيات الوضـع الرّاهن، فأُطلـق عـلى أحدنـا مسـمّى «رمـل»، وآخـر «فضـاء»، وآخر «سـماء»، وأطلقـوا عليّ اسـم «شـمس»، لما في نفسي مـن حدّة ومن تمـرّد وعنف، وبالطبـع مـا كنّـا أدركنـا هـذه المسـميّات، لـولا أنّ الـذي نفانـا في هذا المـكان تـرك في أذهاننـا ومضات عـن معاني بعض الأشـياء..

أقلّه مفردات الصّحراء التي وجب أن نتقبّلها كموطن إجباري.

فجأة هتف «سماء»:

– «شـمس»..! أيـن النّسـاء يا «شـمس»؟ جسـمي تأكله الشّـهوة إليهنّ.

– في ذاكرتي خيالات عن نساء قُدامى.. إنّما استعضنا ببعضنا عن

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

النّساء.

قال «فضاء»:

- من عجب أن تكون هذه سنّة الصّحراء...!

فقلت:

- بل من عجب أن تصبح هذه عادة مستحبّة...!

وتمدّد الزّمن في الحلم، آمنا أنّ الإنسان يصنع مأواه، فبعد أيّام توالت، لم يكن ثمّة مفرّ من تشكيل المكان وفق إحساسنا بأنّنا علقنا هنا، ولا نجاة من الصّحراء، انصرف بعضُنا يبحث عن أخشاب متفرّقة في الأنحاء خلّفتها بعض القوافل، وذهب بعضٌ آخر يبحث عن بئر ماء، وآخر عن مخابئ وجحور الزّواحف، وهكذا، أنشأنا كوخًا، وزرعنا أشجارًا تقريبًا من بذورٍ منتهية الفعالية، وشيئًا فشيئًا بدت تستطيب الحياة.

لولا أنّي وجدت صحيفة مطويّة بين حشاش الرّمل ذات يوم، صحيفة قديمة، بالية، لكنّي بوعي غريب رحت أقرأ ما خطّ فيها:

«المُبتدى»

(علَى عهدِك يا أولَ الإنسِ، وعلَى عهدِي أكون).

(قبل الإنسان، كان تقديسٌ وكان نور).

(المَجدُ للإنسانِ سيّدُ الأرض، أرض أولى وأرض آخرة، ثائبٌ يومَ يَدين، إيّاك نجيء إيّاك نستبين، رحماك بنا ربًّا رحماك بنا مَكين، يومَ نُفِخنَا ويومَ أُنزِلنا ويومَ لم يكنْ لنَا إيّاك إذ يَحين، ولا كنّا قيامًا ولا كنّا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قعودًا ولا كنّا إلاّك مستبصرين، فانظرنا).

بعدها؛ لم أفهم كيف كان يُمكن أن تتكشّف الأشياء؟ وإلام ترمي هذه الصحيفة؟ هل يُمكن أن يكون معناها مجرّد لمحة من غيب أم شذرة من ماض؟

ثم بدا كأنّي نُدهت، لا أعرف ما فيّ..! لكن استمسكت بذهني الهواجس، ورُحت أمضي خلف تصوّرات بدت للجميع جزافية، عن أرض وسماء وبشر وحياة وموت، مضيت خلف تهيؤاتي المزعومة بعزم غير مفهوم، بل ملتبس عليه، وإن اكتشفت أنّه مغلوط، إنّما شيء ما ظلّ ينازعني، ورحت - في صحوة أمل غير مسبوقة - أطارد ظلال الأشياء، وأستقصي، بل وكان ظلّي نفسه يسرح بعيدًا عنّي، فأتتبّعه، وكثيرًا ما فقدته، ومن خلف ربوة، بدت تلوح امرأة، لم أستوضح ملامحها، لكنّه خيال امرأة، هرولت إليها، وصعدت الرّبوة، امرأة، كانت تستنزف طاقتي في التخيّل، امرأة، من ورائها أصعد الرّبوة، ثم اختفت.

فألقيت بنفسي من فوق الرّبوة.

وسمعتهم بروحي يتساءلون:

- أين ذهب هذا المجنون؟

- رأيته يُلقي بنفسه من على الرّبوة..!

- لكنّه اختفى..!

- أو سقط من على هذا الكوكب...!

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

- تلك آخرة التّطاول على الرّب.

- وعاقبة الشّجار مع السّماء.

ولكنّي سريعًا ما عُدت، ولمّا عُدت، عُدت بلا ظلّ، لم أشأ أن أروي لهم أنّي سقطت فعلًا من فوق الكوكب، ووجدتني أدور بدوران الأرض، وكِدت أضيع في غياهب الفضاء لولا أنّي وهبت ظلّي قربانًا كيما أنجو، لم أشأ أن أخبرهم أنّي قابلت الرّب ورأيته وتشاجرت معه، ولم يعاتبني، بل لم يمنحني حتّى أيّة إجابات، فقط تركني أنجو، أنجو من السّماء، واستحوذَ على ظلّي.

لم يروا ظلّي، فاندهشوا، لم أقل لهم قط، طيلة حياتنا في هذه الصّحراء في الحلمِ، أنّنا هُنا بُعثنا من جديد، وحتّى اكتمال المشيئة.

***

بعد الرؤى الصّاخبة، ارتحلت ثانيةً، ضربت في الوديان بعد ذلك عن غير هدى، في السّفوح والمدائن والصحاري، صاحبت حشراتِ اللّيل وزواحف الصّحاري، يتحلّقون معي النّار وينقضي اللّيل في سمرٍ وحكايات، ولم تزل صورة «عزرائيل» في رأسي، وددت لو أرى الله في رؤيا قريبةٍ أخرى، لم أكن أكاد أصل إلى محطٍّ لرحلتي حتّى أغادره في اليّوم التّالي، ثمّة شيء يُجبلني على الترحال، تكشّفت لي طاقات ما تخيّلتها، كنت أحلّ ليلًا على السّفوح والوديان لأصحو في صباح تالٍ مستكملًا رحلتي، وفي كلّ ليلة بدت تتكشّف لي غياهب الحياة أكثر، قابلت رجالًا سود، ورجالًا بيض، قابلت عمالقةً وأقزامًا، أختبئ من عاصفةٍ في كنفِ مغارة لم تطرقها قدمٌ، أو أهجع

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جوار مسرب من مسارب المياه، كانت حياتي متبدّلة بتبدّل مواضع الاستقرار، وكنتُ أُمسك كفّ الرّجل من هؤلاء فأقرأها، أو أضع يدي على رأسه فأستشرف غيبه، وكثيرًا ما كنت أفسّر أحلام النّاس، بالطبع تكسّبت من وراء هذا واعتبرته حرفة، كي أستطيع أن أؤمّن طعامي، كنت أتّخذ المستقرّ كيفما اتّفق، أوسّد رأسي بلبنة طوب، أو بعض الحشائش، ارتحلت بين بلدان النّار، وبلدان الثلج، ولم أكتفِ، كانت رحلتي إليه، لأجل أن أستبين حقائق عِشقه، وكي أفسّر رؤاي.

وأثناء سيري، ضربتني عاصفةٌ، أطاحت بي فسقطت متدحرجًا من أعلى تلٍّ إلى سفحٍ فوق الحصى والرّمل والحشائش، تكسّر جسدي، كان ذلك عند بلدةٍ قريبة من تخومِ «أوزبكستان».

في اليوم التّالي، بدا كلّ شيء فوضويًا، السّماء تكشّر، كلّ شيء يُنذر بموجة كهذه من البرد، وبكثيرٍ من عدم الأمان.

كانت السّماء ملبّدة بالغيم، وريحٌ أخذت تراود حشايا الشّجر، ومتون الزّروع المترامية.

ظلّت العواصف لأيّام وأيّام، قبعت بأحشاء الشّوارع، مرّة في عمق جدارٍ تهدّم، ومرّة في حظيرةٍ منحني صاحبها ليلةً للرّاحة دون أجرة.

- الدّراويش أحباب الله، ادع لي فقط يا مولانا.

قالها، وسحب من ورائه البّاب، وعند حلول الفجر، لم تكن رُوحي قد استكانت في هذه الحظيرة، فقلت حضن الشّوارع أرحب.

ومضى أمسٌ، وبعده أمس.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لكنّ الأمس الأخيرِ لم يمض تمامًا، ثمّة بقايا منه كانت لم تزل تجوب الأمكنة من دون هدى، كلاب ائتلفت مع الصّقيع، لا نباح لها، وقطط مشرّدة لم تعُد تموء.

ثمّة بقايا من الأمس لم تزل متناثرة بداخل رُوحي.

- أيّها الأمس؛ كنت ثقيلًا مررت بكلّ بطء.

رُحت أعاتبه، شعرتُ أنّي كما بقايا من الأمس، أبدو كذلك مثل بقايا من طفلٍ كان، تقوقعت آنذاك، وكان وجهي مغطّى بياقة ثوبٍ متهرئ ملأته الثّقوب، اختبأت بداخله من البرد، تسترّت بجدارٍ من ظلام، وبدوت كأنّي رقعة من ثوب الظّلام عينه.

ما بين برهة ومثلها، يظهر أنفي من أسفل ياقة الثّوب محمرًّا، بعدها تتحرّك أهدابي معلنة النّظر إلى أعلى، إلى حيث يجلس معشوقي الأكبر، إلى رؤوس البيوت التي تتراص في غير انتظام لتصنع خريطة عشوائية لشوارع تحتضن بقايا المساء المنصرم في عشوائية أيضًا، وأستعيد وجوه قاطنيها الذين يمدّون أياديهم لي في النّهار بالزّاد فأشكرهم بابتسامة ودودة، أقرأ لهم أكفّهم وأفسّر بعض أحلامهم.

أضمّ على وجهي الياقة مرّة أخرى لأستدفئ قليلًا، وهكذا، بدوت لا أملّ النّظر نحو الأعلى هناك، نحو الله، وأناملي بلا إرادة تتحسّس بطنًا جوفاء لم يزرها طعامٌ منذ طلعة هذا النّهار، واللّيل يُخفي في طيّاته كلّ التفاصيل.

فيما قليل، يستعدّ جسمي لنهوضٍ يشوبه الخمول، أبدأ في التحرّك

This file was downloaded from QuranicThought.com

بنفس العشوائية التي تتحرّك بها الكائنات البقايا من الأمس، وساقاي تفترضان الاستقرار عند أول مكمن لأيّ وقودٍ للمعدة الخائرة، أتلفّت حولي بلا هدف، أمسح بعينيّ نواصي الطّرقات والأزقّة، تحدوني خروشة أوراق شجر خريفية مبعثرة تتراقص فوق بساط الأرض، أحاول أن أتبع حفيفها القادم من دربٍ جانبي، آملًا وجود بغيتي من نزر يسير داخله، أطوي تراب الدّرب المغطّى بنتف الثّلج بقدمين حافيتين وأظلّ أُنصت للحفيف الآتي، فتلمع عيناي لمعةَ فرِحة، ذلك عند أن يفاجئني تلٌّ من قمامةٍ طازجة، لم ينل منه جفاف الصّقيع الذي يعم كلّ المفردات، دنوت في سرعة، أثناء هرولتي حطّت قدمي اليمنى على شظيةٍ من زجاج متكسّر، أحسست بعض الشيء بألمٍ طفيف حين تسلّل عمودٌ باردٌ داخل لحم ساقي، غير أنّي لم أكترث، لم أتعوّد أن أكترث لمثل تلك المصادفات الطّارئة، أكملت في سرعة اقترابي من التلّ العامر بالأمل، ومن ورائي تتقاطر نقاط من دمٍ اختلط فيه اللّون الأحمر باللّون الأصفر، فبدا شاحبًا، لم أكن أعرف إن كانت الشّظية قد استقرت بداخل قدمي أم انتُثرَت بعيدًا من حركة السّاق المهرولة فوق التّراب! مع ذلك لم يعد يستولي عليّ إلاّ ذلك الإحساس بأنّي أخيرًا سوف أذود عن جوفي ولو بكسراتٍ من خبزٍ حتّى وإن سكنه عشب، أقلّه كي أستكمل رحلتي، لم تكن المسافة بتلك الدرجة من البعد، لكنّها بدت بعيدة، التلّ القابع في زاوية من الدّرب -والآتية رائحته شهيّة - لا يود أن يخلص ويدنو، ماله يعاندني! بل مالي لا أقوى على الإسراع أكثر قبل أن يظفر به

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ضالّ غيري!

وجـدت نفسي أخـيرًا وجهًا لوجه أمـام التلّ وقلبي متهدّج، تلاشـى الشّـعور بالبرد وتلاشـى الشّـعور بـكلّ شيء محيط في لحظـة أن جعلت أتأمّـل كـوم القمامـة والأفـكار السّـعيدة تملُـك علـيّ أنفـاسي، انحنيت ومضيـت - بحـذر طبيعي - أنبش داخـل متن القمامة عن غـذاء ويدي تنتفـض مـن فرط الـبرد، هنا لابـد أنّي سـأجد ما قـد يقيـم أودي لأيّام أخريـات قادمـات في الخـلاء، فظللت أنبـش في رويّة.

راحـت يـدي تتداخل في عمق التلّ، خدشـني حـدّ صفيحة عوجاء، ولم أحفـل، ظلّـت يدي بنفس مرونتها ونفس الحافـز، وهي تقلّب بطن القمامـة علّها تسـتقر على كسرة خبـز أو ثمرةٍ لم تـؤكل لآخرها.

يـدي تقلّب، وعيناي تجوسـان في تركيز شـديد كلّ مـا تتحصّل عليه يـداي، ولم يكن اليأس قد انسـلّ داخل أعماقي للدرجة المحبطة بشـكل تـام، غـير أنّ يـديّ أصابهما بعـض التراخـي في البحث، كانت الأشـياء التـي وقعـت عليهـا يداي مجـرّد بـواقٍ عفِنـة لا تنتهـي ولـو لقليل من خبـز، زفرت في مرارة وكنت أخشـى مـن الفكرة التـي جالت بذهني؛ أنّ بحثـي لـن يفـضي إلاّ للمكوث خـالي الجوف من الـزّاد، إذًا سـأظلّ جوعانًـا لحلول الصّباح، فاشـتدّت أصابعي في ولوجهـا داخل القمامة، ففكـرة أن يؤول بحثي إلى فشـل أوقـدت لهفتي أكثر، فأخـذت -لاهثًا ومـن غير كلل- أسـعى بأصابعي محتمـلًا أيّ غـذاء، وكان لفحة باردة مـن هـواء قد راحـت تعبث بياقـة الثّوب المتهـرئ، ولم أعبأ بهـا أيضًا.

تتشـابه المعـالم تحت جنح الظّـلام، لم أنتبـه للجرو الهزيـل الذي يلوح

This file was downloaded from QuranicThought.com

مـن خلف التلّ وكأنّه بقعة أشـد حلكة من سـواد عتمـة تُخفي بداخلها كلّ التفاصيـل، جـرو كان يبحـث عن غذائـه في جهة أخرى مـن التّل، بـدا عليـه اليأس وهو يجـرّ قدميه من ورائه ويسـتدير ليُكمـل بحثه عن طعـام في هـذا الجانـب، توقّـف قليـلًا وقـد لمحنـي؛ شريكـه في المأدبة، انتصـب ذيلـه، كاد ينبـح لـو لا أنّ الهـزال لم يسـعفه، فاكتفـى بـأن كشّر عـن أنيـابٍ يجـري اللّعاب مـن بينهـا في خيط واهٍ، وتسـمّر عـلى مقربة متحفّزًا.

- إلام تنظر؟ هذه ليست قمامة، إنّها وجبة عشائي.

(ووجبة عشائي أيضًا).

أوشـك الجـرو أن ينطقها، بانـت في محيط عينيـه اللتين ازدادتـا تحفّزًا وعنـادًا، وكان ذيلـه يهتزّ متأهّبًـا لأيّ ردّ فعل.

بادلنـي النّظـر قليـلًا، ثـم مضيت أسـتأنف البحث غـير آبهٍ بـه، بقي الجـرو متحجّـرًا في تأهّبـه كما لـو أنّه على يقين بـأنّ ليلة الغـذاء ليلته من دون ريـب، سـامحًا لي أن أقـوم نيابة عنـه بجهد البحث.

كان الكـوم قـد بـدأ في التبعثر من متنه عـلى مسـطّح الأرض، ويداي بـلا ملـل تفحصـان مـا بالدّاخـل، والعبـوس راح يسـتولي عـلى وجه الجـرو، وبـدا أنّ فكـرة الإخفـاق تسـتوطن نفسـينا معًـا أكثـر فأكثـر، والـبرد يُحتمـل؛ إنّـما ليس لـكلّ هـذا الوقت.

فجـأة توقّفت يدي، انفرجت أسـاريري شـيئًا ما، شـعر الجرو فتقدّم خطـوة للأمام، خرجت يـدي برغيفِ خبـزٍ كاملٍ لم يُمسّ، بدا ناشـفًا،

This file was downloaded from QuranicThought.com

ورغـم ذلـك بـدا طازجًـا بشـكلٍ مـا، وكأنّـما خـارج لتوه مـن قلبِ فـرن، التفـتُّ للجـرو قائلًا:

- لا بأس أن نقتسمه سويًا..

لكـن الجـرو في سرعـة وثب، تعـرّى من هزالـه ومن ضعفـه وقبض بـين أسـنانه عـلى نصـف الرّغيـف، أمّـا يـدي فلم تكـن لتنهـزم عقب كلّ ذلـك التّعـب، قبضـت هي الأخرى عـلى النصف الآخـر في إلحاح وصلابة، تهشّـم الرّغيف وتساقط متناثرًا على الأرض، فمضينا نلملمه في حـذر وكلٌّ منّـا يحـاول أن ينال ما اسـتطاع مـن كسراته.

بعد كسرة وثانية، رفعت رأسي للسّـماء، ابتسـمت لمعشـوقي ابتسامة حمـد طفيفـة، نظـرت للجـرو الـذي أتى عـلى كلّ القطـع المبعثـرة على الأرض مـن الرّغيـف ووقـف مسـتجديًا قطعـة كانت تمسـكها يدي، ناولتهـا لـه وربّـت عـلى رأسـه، تدثّـرت بياقـة الثّـوب مـن الـبرد مرّة أخـرى، وافترشـت جانبًا مـن الطّريق بجـوار تلّ القمامة، انـدسّ الجرو في دفئـي، فابتلعَنـا لـون ظـلام اللّيـل، وحتّى هـلّ الصّباح.

في الصّبـاح خرجـت من البلدة، كانت السّـماء لم تزل مدجّجة بالغيم، لكـنّ العواصف طارت شـمالًا، وبين بلدة وأخرى يتبـدّل الطّقس، بين بلـدة وأخرى اكتسـب صداقات، وأنِسـت مـع الحيوانـات التي ترتحل بدورهـا من مـكان لآخـر وفق منابـع الغـذاء والأمان، طالـت لحيتي، وتهـرّأ ثـوبي عن آخـره، ولكنّ رجـال الخير وهبـوني ثوبًا آخر.

استغرقتني الدّروب، واستغرقني العِشق، والنّور بقلبي لم يكن

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لينطفـئ، بل كان يترعـرع ويتبلـور، في الوقت الذي كانت الوحشـة مـن ماديـة العالم تترعـرع أيضًا.

أثنـاء ذلـك؛ رغم مرور السـنوات، وشـقاءات الرّحلـة، لم يكن وجه سـيّد الجـلال، رجـل الرؤيـا الأولى، يفـارق خيالي، ظـلّ حيًّـا بداخلي، تسـتدعيه الذّاكرة بـلا حيلةٍ، قال طريقانا سـيلتقيان، وكأنّـما بتّ أرتحل بـين القرى والمُـدن لمجـرّد أن يلتقي طريقانـا، وأقابله وجهًـا لوجه.

أجل أبحث عنه؛ ولو برُوحٍ عاشقةٍ.

وكنـت قـد أرهقنـي الترحـال؛ ذلك عندمـا انتهـت بي الـدّروب إلى «حلب».

* * *

في «حلـب»، أرشـدوني إلى إمـام الأئمـة، شـيخٌ يُبـارك الأحبّـة والزّاهديـن والدراويـش، اسـمه «ركـن الديـن السـجاسي»، قلت لا بـأس، لعلّه يزيدني علـمًا وتقرّبًـا، أو يرعاني لبعض الوقت ويسـبغ عليّ عنايتـه، كنـتُ في حاجـةٍ لملاذ.

وفي تلـك السّـاعة التي تتشـاجر فيهـا بقايا من ألـوان نهـار متزاوجة بـين أحمـر وبرتقالي باهتة، في سـاحة السّـماء، ونسـيجٌ شـبكيٌّ مـن لون اللّيـل يزحـف ببطء ليطردها ويأخـذ مكانها، كان لون البخـور الأزرق يلـفّ بيتَ الشّـيخ الإمـام، بيتٌ يتصـدّر المشـهدَ أمام الأعـين، والمدى أمـام بـصري رُصّع بأنـوارٍ كأنّها تقفز مـن جوف البيـت وتتناثر حوله، الأصـوات تقتحم حـدودَ السّـمع مشـوشرةً ومتداخلة، لكنّهـا عالية، ويبـدو أنّ توافقًـا ما يحكم سـيطرتَه عليها.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قعقعـةُ الخشـبِ في ركيـة النّـار كتمـزّق عضـلات رجل، الجالسـون خـارج بيـت الشّـيخ - يدخنون النرجيلـة - يلتّفون برؤوسـهم نحوي وتنفتـح أفواههم، ثم يبتسـمون إذ يدركـون أنّي مجرّد درويـشٍ عابر، لا مكانَ هنـا إلاّ لطالبـي البَرَكة والعلـم أمثالي.

نـدفٌ مشـتعلةٌ -كذبابٍ يحـترق- تتطاير مـن قلب الرّكيـة وتَفنى في الهـواء، أرفـع بصري إلى فـوق، جهة البـاب الضّخم، وتمامًـا فوق بروز البـاب العلـوي من الخـارج، توجد حنطةٌ لتمسـاحٍ ضئيل الحجـم، إنّما تجويفا عينيه كانا غائريْن غورًا أضرم في كلّ جسـديَ رعشـة، لا أعرف! أحسسـت كأنّ بـه حياةً ويتأمّلني مـن مكانه في الأعلى بتحفّـزٍ ورفض.

دلفـتُ، رحت أتفقّد معـالمَ البيت المُغـرق في الجلال، الجـدرانُ ممتلئةٌ بحبّـاتٍ معقودةٍ ببعضها من الـدّوم الجاف القديم وكأنّهـا أفئدةٌ ضامرةٌ يابسـة، صور لمشـايخَ وأوليـاءَ وأئمة مِن نواحـي البلاد، كلّهـم يُطِلّون منهـا في تواضـع، أبـواب الغـرف مطعّمة بتشـكيلات «الأرابيسـك» والزّجـاج الملـوّن، وكان دقّ الطّبـولِ يـأتي مـن عمـق البيـت منتظـمًا أخّـاذًا، يـدوّي داخـل جمجمـة الـرأس كهديـرِ شـلال، سـقف المنـزل تتـدلّى منـه «تعريشـة»من أليـاف نخـلٍ تبدو كنسـيج من أقمشـة بالية محترقـة داكنـة اللّون، وأمام العـين يتراقص البخورُ الكثيـف الطّالع من أطبـاقٍ نحاسـية تتأرجح بمنتصـف الحوائط في سلاسـلَ تشـبِه حبّات المسـابح، كان الجـو دافعًـا للتّشـظّي، والسّـتار المـؤدي لحضرة الإمـام ينفـرج ببـطء، أول مـا وقعـتْ عينُـه عليّ بـدا أدركنـي، فابتسـم، وكان يدخّـن نرجيلة بـدوره.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مشـدوهًا وقفت قبالتَه، شِـبهَ متحجّرٍ، مُغرقًا في نظرةٍ شـاخصة إليه، لم يكُـن طويـلًا ولا ضخـمًا كـما أُشيع في وصفِـه لي، بـل بـدا متوهّجًـا بأمـارات العِشـق الإلهي.

كان ثابتًـا بجلسـتِه الوقـور، عـلى وجهـه ابتسـامةِ مـلاك، وفي عينيـه نظـرة متفرّسـة، عينـاه تألّقتـا بمزيـج مـن لونـين أخـضر وأزرق، هذا التألّـق العفـوي الذي لابُدّ وأن يدفعك للتّسـاؤل عـن ماهية لون عينيه تحديـدًا؟ هل هُمَـا زرقـاوان؟ أم خـضراوان؟ وقد يأخذك التّسـاؤل إلى الغـوص بعـض الـشيء في بحر الثّقة الـذي يتموّج في عمـق عينيه، كان كلّ شيء فيـه تقريبًـا مضبوطًـا لأن يـأسر فـؤادي، ثقة متناهيـة، رصانة غـير متكلّفـة، وكاريزما ربّانية، وكأنّ رسـامًا بفرشـاةٍ شـديدةِ الدّقة قد أتقـن خلـطَ كلّ هـذه التفاصيل، شَـعر الـرأس الفاحم المنسـدل قُربَ المنكبـين، الوجـه الُمشرّب بحمـرةٍ خفيفـة إنّـما يشـع مـع ذلـك بياضًا كبسـتانٍ مِـن فُـل، لحيتـه المهذّبـة بعنايـةٍ ودقـة كأنّهـا حُفَّـت بموسـى سـحري، كلّ هـذا مع حضورٍ طـاغٍ، مثل غمامة مسـحورة تلف العين.

ثـم هـبّ ناهضًـا، ولم يـزل يرمينـي بنظـرة مبتسـمة، لـوّح لأحدهم فمـضى أمامـه، تبعتهـما، أزاح بابًـا بيـدِه، وكان جمـعٌ يجلـس في انتظاره.

- السّلام على أحبابي.

فأقبلـوا يلثّمـون يـده، قلـت في نفسي: بعـضٌ من فيض المحبّـة خالدٌ لا يفنى.

جلس متربّعًا، أشار لأحدهم كي يستكمل حكاية لم يُنهِها في

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جلسة سابقة، فقال الرّجل:

– بعدئذٍ، ورغم الرّحلة وما تخلّلها من شجون ومن بأس، رغم مشقّة السّفر والسّعي يا مولانا، أيقنت أنّي لست بباغ، أيّ بغي في رجل هجر ملكوته لأجل ملكوت الله! لست بباغٍ ياً مولانا وإن تباينت الخطوب، وإن أُشيع ما أُشيع عنّي، أنت أدرى يا مولانا، هل يُمكن أن يُغفر الذّنب لمجرّد السعي؟

قال:

– الله وشئونه يا رجل، ليس أدرى منه بالغفران.

– ولكنّي جئتك كيما أتطهّر!

– تطهّر به، تطهّر إليه، ليس لعبدٍ أن يعرف إن غُفر له أم لا، تطهّر في محرابه، هو أولى بالتطهّر، يقول الإمام «علي» كرّم الله وجهه: «داؤك منك وما تُبصر، دواؤك فيك وما تشعر، تحسب أنّك جرمٌ صغيرٌ، وفيك انطوى العالم الأكبر».

– أغثني من الحيرة يا مولانا.

– سبحان الذي بعث النّور يضوّي للأبد، سبحان من بعث ابن «آدم» بعد غيبة في مجاهل الخرف، سبحان من نجّاه، يا رجل ألا يُمكن أن تصطفّ الكائنات إجلالًا لمعنى الحقيقة الكامن في رُوح الرّب؟ أنت ضربت الرّحلة لأجله، فهل سيتركك؟

اكتفى الرّجل بشرودٍ أسيان.

بعد قليلٍ، أخرج الإمام مسبحة، ثمّ تطوّحت رأسه وأخذ يدمدم

This file was downloaded from QuranicThought.com

مسبّحًا:

- أنت الحقيقة يا الله وما نحن إلّا نزق الغواية، مستهلّ رحلة الأكوان حول أزمانها، أنت منتهى بصيرة الكاشف والمكشوف، ومحطّ البحث عن مستقرّ، أنت نحن ونحن جزء، الحقيقة محجوبٌ جلالها عند حدود العدم حيث دام ذكرُك وفاضت رحمتك.

كنت قد آمنت مع انهيار الرؤى على أحلامي إنّما بعثني الله وحيًا للتّائهين لا ينقطع، وإن انقطعت الرّسالة.

إنّما؛ بعد لقائي بهذا الإمام، بدا التّيه واصلًا لمنتهى الحقيقة، هل كانت الرؤى صادقة؟ هل حقًّا عافرت لاستبيان الحقيقة؟ هل نجوت من ملابساتها وخيباتها؟ لعلّها تراوغني، إذ يراودني من حينٍ لآخر نقع الضّلال القابع في قاع رُوحي، عاقرت اللا نجاة، بين مُدنٍ وأخرى، كأنّها الخلود وما أطيب، هل أثِمت؟ تُرى أحقًّا مددت بيني وبين عين الحقيقة شعاعًا من نور؟ أم أنّي كنت مطموسًا بغفلات الضّلال؟ مساقًا بسطوة الضّلال؟ الضّلال باغ، وإنّ التّساؤلات كفيلة برميي من شطٍّ إلى شطّ، حتّى شطَّ عقلي، أَو كاد، نازعتني نفسي، بنزال لا نزاهة فيه، وإنّ النّفس لأمّارة بالمنازلة، نازعتني: أيّهما أوجب حيادًا وجنوحًا نحو السّلام والعِشق؛ أهو العقل أم القلب أم الرّوح؟

هل أدركت كلّ زوايا العِشق بمجرّد رحلةٍ إلى خلاء الله؟ رحلة عبثيّة ربّما!

كان أثرُ الرؤى لم يزل منقوشًا على رُوحي، كأنّي سيّد الكون أو

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يزيد..!

طلّ عليّ الإمام بعينيه، وقال:

- لعلّ القلب إذ يطمئِن، يخابث العقل، فتشدّك دوّامة من تداعيات الحيرة، وتُستنزف، بوساوس ابن جهنّم، يرمح صوتُه في مهبّ تساؤلاتك: إنّ الذين آمنوا صفحة بالية في تاريخ غبر، اليوم يوم السّؤال، يوم التفنيد والتوكيد، اليوم يا ابن «آدم» يوم الضّلال، ضلال الأفكار بسياقاتها المُخادعة، المُهلكة رغم ذلك.

همهمت مدهوشًا:

- مولاي! قرأت أفكاري؟!

فضحك ضحكة فضفاضة، وأضاف:

- يا درويش؛ لا تقل أعليّ أن أُهادن ما أمكنني؟ لعلّ في المهادنة سلامًا واستكانةً، ولو بشكلٍ مجازي حتّى، بل أنزِل العقلَ منزلة السّفهاء، وارتق بالقلب حدّ القداسة والشّفافية، ستجدك بالفطرة ساعيًا إلى الخلاص، باحثًا عن الحقيقة بحثك عن الأسفار في عالم عاصفٍ لا يستقرّ، بحثك عن حياة في فؤاد أوشك الضّمور، بحثك في الحياة عن خلود.

قلت:

- حسبتني أدركت الحقيقة أو سأُهلك دونها..!

قال لي:

- الأصل؛ إنّه لا توجد حقيقة وافية تجاه تعريف ماهية العِشق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

نفسه، نحن نتحدّث فقط، نتحاور، أحيانًا نتحدّى، في النهاية نحن لا نبلغ جوهر الحقيقة مهما أقنعنا أنفسنا بذلك، الحياة تسير كيفما تشاء هي، لا كيفما تشاء أنت، أو بأصدق الحالات، كيفما اتّفق، الحياة تسير دون تخطيط، بعشوائية تصنع السّؤال ذاته، لا إجابة بلا سؤال، الأسئلة مُلقاة في الأذهان، المهم أن نكتشف الإجابة المُريحة، التي تُشعرنا في مُجمل الأمر بالتفاؤل، كيما نستكمل الحياة، أليس كذلك يا بني؟ في غالب الأمر جميعنا سننتهي إلى نفس المكان، سواء كان هذا المكان في الآخرة أو في العدم، فالإجابة الأصدق والأعمّ والأشمل لم يجبها الزّمن بعد، الإجابة قابعة في النهايات، ونحن لم نصل للنّهايات بعد، كلّنا لم نصل إلّا إلى مفترقات الطّرق، البدايات التي تشتّتنا، دورنا هنا أن نهيّئ للنّاس قبول فكرة أنّ المنتهى لم يأتِ بعد، وأنّ البدايات ستصنع المعجزات، أن نستخلص منهم الأفكار الخبيثة، لنصوّر لهم الاستحقاق الذي يُمكن أن يكون في هذه الحياة، دون زيف ولا تلفيق ولا أوهام، أنّ الحياة نفسها - دون حتّى وضع تصوّرات عن النّهايات - ذات معنى وتستحق أن نعيشها كما ينبغي.

لكنّي رددت عليه مجادلًا:

- نخدع أنفسنا إن زعمنا أنّ للحياة معنى وأنّها ذات جدوى بغير العِشق الرّباني، تلك خلاصة السعي.

- هذا مفهومٌ، لكن تُرى، عبر سعيك، عبر بحثك عن الحقيقة، أقصد حقيقة العِشق، ألم تمنحك الحياة هبة ما، درسًا أعانك على فهم سرمدية المعاني نفسها؟ ألم تمنحك تضادًا قد يدفعك لإعادة تدوير

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الأفكار؟

- لقد خضت رحلة يا مولاي وأنا لم أزل يانعًا لم يشتدّ عودي، عصفت بي رؤى لم أستطع تفسيرها، لكن في الأخير، كلّ ما يُمكن فهمه هو أنّ الحياة ستزول، والشّمس ستنفجر، والأرض ستتبدّد، والكون سيتلاشى، وكلّ الأعمال العظيمة ستصبح بلا معنى في يوم من الأيّام، مهما قدّرها العالم، من المستحيل أن تقنع النّاس بأيّة فكرة بديلة عن الزّوال، يؤمن النّاس منذ بدء الخليقة بالزّوال في الأساس، إذًا كلّ ما عدا فكرة الزّوال مجرّد عبث، لذا عليهم أن يبعثروا هوياتهم وأفكارهم فوق محيط هذا العالم، أن يفتّتوا شيئًا فشيئًا أنفسهم وأحلامهم وطموحاتهم، كي يطمئنوا لمعنى الفناء نفسه، مثلًا أنت تسأل الله عن الحلول، عن المصائر، والأقدار: ماذا لو أنّي طيرٌ يجوب سماء! أكان سيتغيّر مصيري ولو مقدار بُرهة زمن؟ والدّنيا! هل يُمكن أن يكون فيها معنى غير العِشق؟ سامحني يا مولاي، المصائر لا يُمكن أن تتبدّل بمجرّد الرّجاء أو النجوى أو السّؤال، أنت تشتّت عقلك، وتوقن في قرارة نفسك بأنّه لا مفرّ من الشّتات، كي ترتاح على الأقلّ، هذا ما نفعله جميعًا، الأمور التّافهة، لمجرّد أن نرتاح، في النّهاية سنموت جميعًا، ولن يبقى منّا أثر، عدا عِشقٍ كاملٍ وتام له.

وبسملتُ، فقال:

- الأثر الحقيقي قد تصنعه بعد موتك، حاول صناعة الأثر، فقط حاول، بدلًا من الجلوس والتأمّل ومخاطبة الله في أمور انقضت منذ بدء تاريخنا نفسه: يا ربّي هل سأموت عاشقًا؟ وأحبّتي؟ ما معنى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الحياة إذًا والعِشق إن كنّا سنموت؟ هل أعشقك حقًّا؟ وما معنى العِشق؟ وما معنى الرؤيا المجرّدة؟ وهكذا.

- إنّنا نعيش في الخيال لنبتعد قدر الإمكان عن مواجهة طبائع الدّنيا، أتّفق معك في أنّ العالم لا يُمكن احتماله بحال يا مولاي، لكنّه سيظلّ عالمًا مسكونًا بالبشر، مهما بلّغت قسوته ومهما بلغ إذلاله، لذا؛ من الأسلم ألّا نراه طالما في قلوبنا عِشق لا يفنى، أن ننسلخ عنه، لنلبس ثوب العِشق.

- يجوز! أن تعيش في الخيال أولى من العيش أسير الأفكار التي تقود إلى الموت شيئًا فشيئًا، أقصد الموت على مراحل جزئية، الموت البطيء، الذي يستنزف حياتك منذ بدايتها، فلا كأنّك عشت الحياة، ولا أنت عشت في الخيال.

ثم أمعن فيّ بنظرة متأمّلة وقال:

- «شمس»، عم تبحث يا بني؟ النّور يصنعه البصر، ولا بصر بغير بصيرة كاشِفة، ألا يكفيك أنّك قابلته وحدّثته وجهًا لوجه؟!

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كيرا

قونيّة/ الأناضول -٦٢٨ هـ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

- في اللّحظة التي يمرّون فيها بجوارِك، تحاشيهم، فقد يلوّثونك بالدّماء التي يلطّخون بها أياديهم.

هكذا كانت توصيني أمّي دائمًا، وفي كلّ مرّة، كنت ألتصق بهم أكثر، حيث يحلو لي من العام للعام أن أغمس يدي - بدوري- في الدّماء، وأهرول بين الأطفال، لنرسم فوق الجدران الصّور والأشكال قانية اللّون.

عيد الأضحى عيد لكلّ أهل المدينة، ليس المسلمين فحسب، كنّا صغارًا حين كنّا نتجمّع لندور نباشر تزيين جدران البيوت بالدّماء.

نستيقظ مع صوت الأذان، نختزل فرحتنا ونخرج نجري في الشّوارع، نُمارس جميعًا طقس الأضحية، نتحلّق الجزّارين الذين ينزلون بسكاكينهم فوق رؤوس الخراف والجواميس، نسبح في شلّالات الدّماء، نغوص بأيادينا ونحنّيها بالدّم، ونهرول ندور نمسحها فوق حوائط البيوت، كان «آزار» يقول لي متفكّهًا:

- «كيرا»، لو عندنا ذبح كالمسلمين، ما الذي ترغبين في ذبحه؟ خرفان أم جواميس أم ديوك أم عصافير؟

- أذبحك.

فيشدّني خلف جدار ويطبع قبلة صبيانية على خدّي.

- حسنًا، اذبحيني، لكنّي سأذبحك أولًا.

أغضب، أضربه على صدره، أهتف:

- تأدّب يا «آزار».

- القبلة ترياقٌ يا «كيرا».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

- القبلة شهوة يا «آزار».

كنّا صغارًا؛ وكان كلّ شيء هادئًا، عدا الأقدار التي تُحيك مصائر المعذّبين.

يا لفعل الأقدار!

لكن في غضون كلّ هدوءٍ مستلذّ عُنوة، قد تأتي عاصفةٌ هوجاء غير منتظرة، وفي غضون كلّ استقرار نسبي، قد يجيء ما لا نصمد قبالته، هكذا حِراك المشاعر، وهكذا يكون الخطر المستحبّ محدقًا.

كان السّأم يُغدق على حياتي بظلاله أكثرَ فأكثر، تلك الظّلال المستأسدة، اللّحوح، الظّلال التي كادت تنفذ نحو مَعين الرّوح فتسوّده تمامًا.

البنتُ في مجتمع المنكوبين لم تكن أكثرَ مِن قطعةٍ مِن جماد، لا يُفترض أن تعايش أيّ هوى أو تعتركها المشاعر، مجرّد كائن هشّ قد تذروه رياح الاكتئاب يومًا، جلّ ما تفعله أن تستنفد طاقتَها في أعمال البيت، أن تصمّ آذانَها عن كافّة الانتقادات، أن تستغرق طويلًا في إضفاء خصلة الصّبر على معنى الحياة.

من البديهي أن تكون أبواب الخيال أمامي موصدة، ذلك الخيال الذي لا يحجمه قيدٌ عن الانطلاق، غير أنّ الخيال في حدّ ذاته هنا مجرّد مأساةٍ ملحقةٍ بكلّ المآسي المعهودة.

في بيتنا نافذةٌ نحو الخلاء، نحو الخيال إيّاه، أتحايل على سائر المقدّرات وأصبو نحو اللا مقدّر.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في بيتنـا أجلـس أمـام هذه النّافـذة وأمدّد الخيـالَ كيفما شـئت، لم أكن لأدري إلى أين سـيفُضي بي خيالي؟ إنّما طالما ألّا سـبيل للمعايشة الفعلية فالخيال واجب.

الصبيّـة -أنا- صرخـة تود الفكاكَ مـن حلقوم اليأس الملـزوم قسرًا، الصبيّـة يا أمّي -كثـيرًا ما قلت- ترغـب في نزول المدينة وزيارة كنيسـة «آيـا ألنـا» الكُـبرى، لكن أمّي تَـضرب بيدها فوق صدرهـا وهي تهتف في فزع:

- جُننـت يا «كيرا»، كنيسـة «آيا ألنـا» لا يزورها إلّا الرّهبـان والزّهاد الباحثين عـن الخلاص.

كنـتُ أعـرف أنّهـا تتحجّج، فقط تبغـض المدينة لأنّ أبي مـات هناك، أحـضروه لهـا جثّة ملفوفة بالقـماش، كنتُ معه، عندما سـقط في عرض السّـوق، مـرّة واحـدة، ثـمّ قبـض عـلى يـدي، وطـلّ فيّ بعينـين بدأتـا تخبيـان، وصعد.

لكنّـي كنـت مـصرّة، هنـاك سـأقابل الأرواح الطّاهرة وجهًـا لوجه، سأشـعر بهـا، علّ يـذوب بعض الأسـى الـذي بات يسـكنني.

كنّـا وحيدتـيْن في قريـة نائية عـلى حـدود مدينة تشـغي بالتناقضات، هـزم المـوتُ أبي مبكّـرًا، أرداه في لمح البصر، صحـوتُ يومًا ووجدته قد ودّعنـي ومـضى، ودّعنـي أولًا أثناء نومي، حـضَرني في الحُلم متخفيًّا في ثـوب مـلاكٍ رقراق وديـع الطلّـة، راح يراوغنـي نافخًا مزمـارَه الغاب وصادحًـا باللّحن الشـجيّ في أصـداء الـرّوح، كان يتراقص، وكنتُ

This file was downloaded from QuranicThought.com

معـه أتراقـص، نتمايل والحدّ الفاصـل بين الحُلـم والألم يترقرق، ذاب اللّحـن في ثنايـا الغيـب، وذاب أبي، بعـد أن ابتسـم ابتسـامةَ مـلاك، ثم طبَـع فـوق جبيني قُبلـةً ومضى.

هـزم المـوتُ أبي بغـير إبـداء مقدّمـات وهزَمَنـا معـه، ترَكَنا بائسـتيْن عُرضـةً لـبرد الحياة القـاسي، تمامًا كثمرةٍ مـن دون قشرة، كنبتـةٍ جزافية في مهـبّ الرّيـح، لم أكن كبـيرة، ولم أكـن صغيرة رغم ذلـك، كان عقلي يمكنه تدبّر شئونِ الفراسـة والتكهّن، كنت أشـعر بمـدى حرقة أمّي، مـدى إحساسِـها بأنّنـا انقطعنا عـن احتـمالات الصّـون والحماية، كنت أشـعر بـأنّي مِـن بعد أبي مثـل نتفة قـد تُفـرك في يُسرٍ ودونـما جهد.

وحيدتـانِ يـا أمّي تَسـكنان أطـلالَ الذكريـات، لا أنـتِ ولا أنا عدنا ندرك كيف سـوف تمضي الحياة أو كيف سـوف ترسـو بنا عـلى برّ آمن؟ إنّـما يا أمّـي أجيبيني ولا تخـافي تعـرّضي لأيّ هاجسٍ ممّا يـراود ذهنك:

- هل ستسمحين لي بزيارة الكنيسة الكُبرى؟

ولم تُجِـب، بـات الاعـتراض القاطـع وجومًا شـديدًا في البدء، ثـم زَمّ شـفتين، ثـم إشـاحةً بالوجـه، فتنهيـدة طويلـة، أدركـتُ أنّها بـدأت في الاسـتجابة ولـو بظاهـر الرّفـض، وفي يـومٍ قالت لي عـلى مضض:

- سـنذهب للمدينـة، بـشرط، لن نزورها بعـد زيارتنا هـذه، تعرفين أنّي أكـره المدينة.

في المدينـة تمتـدّ المجاهـلُ حيـث لا رجعـة، ينسـاب نهـر «صكاريا» نحو الشّـمال مواليًا للبهجـة الزّائفة في حدّ ذاتهـا، والمركب يتهادى نحو مـراسي الخيـال كأطروحةٍ تستكشـف، يهدهـد الموجُ المغلـوبُ رغبتي،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ويقاوم معي جذورَ القسر، يحنو في رفقٍ ويأتي يخاطبني همسًا، ثم سرعان ما ينصرف نحو الشّمال لرحلةٍ دون عودة، يرحّب بحافزي لزيارة أيّة بهجة ولو مستَلَبة، ويطبطب على جانبي المركب يمهله هدوءًا غيرَ ملموس، أحتوي في عينَيّ ربيعَ المدينة، تبدو حوّافُ معبد «الزراديشت» الجلمود نابتةً من ظهر المدينة، كأجنحةٍ صخرية تتسامق لأعلى، كأنّها تهيئةٌ مناسبة لأبدية التحجّر، والماءُ يطلع يلامس ثنايا الأحجار ويعود مخضّبًا بالتاريخ.

ترسو مركبنا، توصله الأوتاد الخشبية المقدودة من جذوع الشّجر بالمَرسى، ننتظر ريثما يهيّئ جابي التعريفة وسيلةَ العبور، وفي ارتباكٍ تَصعد أمّي، في خنوعٍ أتبعها.

في مشيتنا تلكؤ مبدئي فرضته أعينُ النّاس، كانت الخطوات التي تحملنا لأعلى يعتريها حرجٌ ثقيلٌ ويكتّفها فضولُ الراصدين، صعدنا السّلالمَ الخشبيّة نلهث، وأمّي تحصّن جسدَها داخل عباءة صوفية قاتمة، تخبئ وجهَها عن عبث الأعين، وبدا في خطواتها فيما قليل ذلك العَجل الذي أخذ يتصاعد كلّما ازدادت حولنا النّظراتُ المتربّصة، ولولا التحفّظ لاستقامت تنهش وجوه الفضوليين وأعينهم في عداءٍ حقيقيّ.

تَحاشينا نظراتِ الخلق بقدر الإمكان، وتابعنا الطّريق المؤديّة للكنيسة دون أن تنبس إحدانا ببنتِ شفة، كأنّ أمّي تعاتبني وتحمّلني مسؤوليةَ هذه المغامرة، أدرِك أنّ أمّي تخشى كلّ مجهول، تخشى النّاسَ وتخشى مدينةً لم تزرْها في حياتها إلّا ما ندر، وربّما تخشى عليّ أكثر.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

تكاد خطواتنا تتعثّر حينًا، وتودّ لو تطوي الأرض طيًّا في حين آخر، حالما تبرز أبراج الكنيسة زاهية مزركشة، تضوّى زركشتها تحت أشعة شمس النّهار، وتنعكس على مرايا أعيننا.

وظلّ النّاس يداومون النّظر إلينا، ربّما بسبب ملابسنا القروية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

شاهين

خوي/ إيران -٦٤٦ هـ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كثيرًا ما حاولت أن أصنع صورة لله في خيالي، يروي لي مولاي «شمس» أنّه هالةٌ من نور، باتّساع السّموات والأرض، وأنّه جميل، لكنّه لم يكن يعرف أنّ شيئًا من هذه الأوصاف لا يُمكنني استيعابه، ببساطة لم أر السّماء، لا أعرف معنى الجمال، أو حتّى شكل هالة النّور، الظّلام والنّور سواء، يُمكن ببساطة أن أصنع تصوّرًا عن حجم الأشياء، لا عن ماهيتها، كيف أصنع تصوّرًا عن المحسوس؟ كلّ ما يُمكن لمسه يتحوّل فورًا لهيئة في الخيال، أمّا المحسوس فالبصر وحده يستطيع أن يصنع عنه آلاف الأفكار والتصوّرات، لو أنّي قابلت الله فاستطعت لمسه! مؤكّد كان سيسمح لي بلمسه.

كم صبوت لمقابلة الله، ومقابلة سيّدنا «محمّد» بالأعلى، يطوّف بذهني أنّهما سيعيدان لي عينيّ، سأبصر، سأرى العالم من جديد، رؤية غير مبتورة، علّ الذي حُرمت منه يأتيني، ولو في حياةٍ أخرى.

هنا؛ في حضرة مولاي «شمس»، الأرواح زاهية، تخلّص الكثيرون من حكمة الجسد، وارتاحوا لسمو الرّوح، يعانقون صفو السّماء بطهارة النّور نفسه، يتمّمون كافّة المسائل بإيعاز الرّوح نفسها، لا صوت يعلو على صوت القداسة، ننسلخ من أجسادنا، ونذوب في المعاني، نستغفر ونستغفر، يعلم بعضنا أنّ ليست له خطايا، لكنّ الاستغفار واجبٌ مقدّس، والاعتراف فضيلة المؤمن، حاولت كثيرًا أن أعترف، إنّما كنت أفكّر:

- على أيّ خطيّة أعترف!

قلت: لعلّ الحبّ الصّامت خطيّة؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

هل أعترف أنّي أحببت «كيرا» ولم أبح!

أم يجب الاعتراف أنّي استمنيت عليها في الحلم مرّات ومرّات، ولم أزل!

طالما كنت أدبّ على الأرض من فوق الفِراش بعد حلمٍ ب«كيرا»، سنوات يا «كيرا» ولم أنسك، سنوات في ظلامي وأنتِ بارقة النّور، كلّ العالم يدور من حولي وأنتِ باقية يا «كيرا»، لماذا إذًا لجأت للدروشة!

كي أنسى عذابي بكِ؛ لكنّ العذاب أبديّ.

كانت عاريةً في الحلمِ إلّا من شالٍ على كتفِها، وكان جسمها يضوّي، وكانت تبتسم في وقارٍ لا يليق بالعري، هبطت عليّ من أعلى، فباشرتُ معها كلّ مخاوف الجسد وهواجسه، قلّبتني وكانت لمساتها كالحرير، ليس على الأعمى أن يُغرق في وصف ملمس الأشياء، لكنّ الأعمى يشعر باشتعال الجسد، يشعر بأنّ الخطيّة لا تكون خطيّة إلّا إذا تجسّدت في الواقع، وليس على الأحلامِ من حرجٍ، ابتلعتها بداخلي، وتشرّب جسدي بكلّ روائحها، في الحلم قلتُ لها:

- كيفك يا «كيرا»؟ آه يا فعل الزّمن.

فقالت لي:

- الزّمن يدور، يجري ويعود لمنشئِه يا «شاهين».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قلت:

- لكنّي انعزلت منذ سنوات يا حبيبة قديمة.

فزامت وهمست:

- قديمة!

ثم ألقتني من فوق الفراش، اندلقتُ على الأرض، واستيقظت.

* * *

في هذا النّهار، قتلوا مولاي، اغتالوا الشّمس.

دفنوه ورحلوا، دفنوه وارتاحوا من عشِقه الذي انحدر من السّماء، رحت أدور داخل أحشاء المدينة، كمجذوب، لا كدرويش، لم أكن أشعر بالزّمن، أجلس في الحانات وفي الأزقّة وبين الشحّاذين وفي أحضان البغايا اللواتي يعطفن على حالي، نفق عقلي يا مولاي، كنت ملاذي، وبعدك ليس لي ملاذ.

رحت أدور أتحسّس الجدران الطينيّة، يقودني جدار لجدار، قُربًا من مدفن مولاي، أخذت أتعكّز على خريطة المقابر داخل رأسي، والعرق ينزّ من جبهتي، أدوس على أحشاء الأرض، وأتقدّم نحو قبر مولاي في وجل ودموعي تُغرق لحيتي.

رحت أدمع، ووهج نيران الحسرة يُشعل فؤادي، يملأني الأسى، مع كلّ ذكرى لي في الماضي البعيد مع مولاي سيدوم الأسى.

في مرّة؛ قال لي مولاي «شمس»:

- لو أنّك ترى فقط يا «شاهين»! لرأيت واحات الله على أرضه،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لرأيت الخشوع وهو يظلّل أديم السّماء، لرأيت أشجار العِشق الباسقة من حشايا القلوب الرّبانية.

وقتذاك، أخذت أجادله، قلت له:

- ألا يكفي أنّي أرى بقلبي!

لكنّه ردّ:

- لا، قلبك لم يعشق للثمالة بعد يا «شاهين».

أضرب في أحشاء المقابر، تجتاحني ومضات الماضي، صورة «كيرا» المصنوعة في خيالي من نور وبراءة تتهادى، فسقطت على وجهي، بُحّ صوتي، حاولت أن أنادي، لكنّي فقدت وجهتي، لم أكن أعرف أين المسار، مضيت أزحف، وبقليل من عزم ناديت، لم يسمعني أحد، ثم صوت مواء يبدأ يقودني، أتبعه، تقع يدي على ملمس ناعم اقشعرّ له جسدي، أدركت أنّه ثعبان، لكنّي - رغم ذلك - اطمئنيّت له، أحسست بأنّه يساهم في عوني، أخذ الثعبان يزحف كأنّما يشدّ يدي، والهرّة تمشي وأتقفّى أثر صوتها، حتّى دبّت كفّي على خشب ناتئ، فأدركت أنّه بابٌ قديم، هذا ضريح مولاي.

أتحسّس الباب القديم، أزيحه بيدي، وكأنّما لم يُفتح منذ دهر، أطلق صريرًا وكأنّه يطقطق عظامه، أشعر بالثّعبان الصّديق يزحف قبلي، ويلج إلى داخل الضريح، دفنوك يا مولاي وحيدًا.

تشعر يدي بأوراق ممزّقة جافّة مبعثرة فوق الأرض، والهرّة تموء، لو أنّ لي عينين أرى بهما تفاصيل هذا الضّريح، فكّرت: ما الذي يدفع

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ثعبانًـا، كلّ دوره في الحيـاة أن يحمل السـمّ والموت للبـشر، أن يقودني إلى الضريح؟

لا صـوت من حولي غـير حفيف بعض الأوراق المتسـاقطة من متون الشّـجر، الزّمن يسـاوي لحظة، يسـاوي فكرة، صدفة، الزّمـن في الحياة يـا مولاي لا يسـاوي أكثـر من انتظار بـلا جدوى، أحاول استكشـاف الضّريـح بحـواسي الغريزية القـاصرة، أجل هذا الاستكشـاف المبتور، وبـدا كأنّ مـولاي سـيُبعث مـن جديـد، أمـرّر أنامـلي فـوق الجـدران، نتـوءات حـادّة، بدت لم تُهذّب منـذ أمد، ورائحة ثقيلة كأنّها محبوسـة في فضـاء الضريـح، وأطلقتها بدخـولي، دفنوك وتُركت يـا مولاي.

أتحسّـس أكثـر، ثـم أنكفـئ عـلى وجهـي، أبصق الـتّراب الـذي ملأ فمـي، ولكن جسـمي يقشـعرّ، مالـك يا «شـاهين»!

أحاول استكشـاف هيكل الضّريـح، أدور بيدي عليـه، أدور في رفق، ثم فجأة تصيبنـي رعدة.

الآن أبصر قلبي، الآن يا ربّي أبصر قلبي.

أعنّـي يـا ربّ؛ تلـك أسرارٌ مصكـوك عليها معك في هـذا الضّريح يا مولاي!

قال مولاي من ذي قبل:

- خرائط العِشق جغرافيا الخلاص.

إنّي عاشق يا مولاي، مثلك عاشقٌ، لم يخبُ عشقي ولم يهُن.

يدي تتحسّس الضّريح، تبدأ الإشارات تتوالى، وإن لم تزل إشارات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

واهنـة، لم تتـواءم ورُوحـي بعـد، لكنّي أسـتقبل الإشـارات، أسـمع فحيـح الثعبان ومـواء الهرّة، دليلاي في غياهب الظّلمـة، يتحوّل الذّهن إلى إشـارات، عصيّـة، غـير أنّي سـأحلّلها، إرادة الرّب، لابدّ سـأفعل.

يا الله، في البدء كانت الكلمة، والكلمة إشـارة، ألا يُمكن أن تتجسّـد لي رؤيـا من عـالم الغيب؟ تمامًا مثلـك يا مولاي.

يصعـد الثّعبـان ببـطء إلى كتفي، أشـعر بـه، والهـرّة اسـتكانت جوار ذراعي، وكفّي منبسـطة فوق الضّريح تستكشـف، يُقـرأ لي، يُقرأ لي كلّ مخبـوء هـا هنا، والمخبوء سرّ لا يماثله سرّ، لم أكن أعرف أنّ الكشـف عن أسرار المـاضي قـد تُحيـي بداخلي مـا أيقنت أنّه لـن يُحيى، أنـا درويش في نهاية المقـام، عن اختيـار وإرادة وطواعية.

انكشفي أيّتها الأسرار.

ها أنا.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جلال الدّين محمّد بلخي

نيسابور/ خراسان -٦١٦ هـ

(سألته: كيف يمكن لقلبي المتناهي الصّغر أن يتّسع لكلّ هذا الألم ؟ فأجابني: اُنظر إلى عينيك كم هي صغيرة ولكنّها ترى الكون).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

ضربنا في مخابئ اللّيل، يرسو بنا القدر حينًا جوار طللٍ قديم متهدّم، فنحتمي به، أو في وادٍ مهجورٍ إلّا لقطيعٍ من ذئاب، فنضطرّ أن نقيم فيه خيمة أو اثنتين نتناوب النّوم فيهما، مررنا بقرى نافقة، وبلدان محترقة، ومُدن أُبيد أهلها، رأينا أحد عشرة رجلًا معلّقين على مشانق بمدخل إحدى المُدن، تحجّرت وأنا أتأمّل المشهد، لم أكن أتوقّع أن جيش المغول قد توغّل لجنوب «بلخ»، ثم هبطت أقدامنا فوق سطح رخو ظنّناه طينًا، فوجئنا أنّها مقبرة جماعية، بعد قليل بدأت الرّوائح تستفحل داخل أنوفنا، روائح الأجسام الميّتة، والتي لم تزل دافئة، خشينا أن يكون المغول على مقربةٍ، لكن المكوث بالقرب من مقبرة جماعية كان ضربًا من جنون، لن نحتمل الأعين المحدّقة ولا الرّوائح العفِنة الطّالعة من جيف الموتى، وإن شعرنا بمدى الحسرة والألم، فهؤلاء أهلٌ لنا وإن اختلفت المُدن وشسعت المسافات، جيش المغول لم يُبق على وطنٍ سليم، اجتاحوا بلادنا وكأنّ بينهم وبيننا ثأرًا أزليًا.

اقترح أحدُنا أن نباشر المسير، لولا أنّ أبي تشبّث بأن ندفن الموتى المكدّسين فوق بعضهم في مقبرة مفتوحة في العراء بما يليق، اضطررنا أن نرفع الأجسام -رغم الرّائحة والوجل والرّهبة- ونعاود دفنها كلٌّ في قبرٍ لوحدِه، وظللنا نتلو عليهم القرآن، ونترحّم، وبكت أمّي بكاءً حارقًا، وقالت:

- ما أبشع جور الإنسان على أخيه الإنسان!

واضطررنا - أيضًا - أن ننزّل الأجسام المعلّقة في مشانق لندفنها

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

بدورهـا، قضينـا اللّيلة كاملـة ونحن نحفر القبـور ونُـودع الموتى إلى مثواهم.

باشرنـا التحـرّك بنفـوسٍ منهزمـة، وكنـتُ أرى الأشـياء عـلى غـير طبائعهـا، انتفـت صفـات بعينهـا مـن أصـل الأشـياء، وحـادت أمورٌ عـن أمور، وظلّـت روائح الموتـى تعاقر أنفي، قحلـت روحي، تحوّلت لصحـراء تسـكنها الهواجـس والهـلاوس والظّنـون ويسـكنها الفقـد، تختـال حـولي في الأمكنـة أشـباح رجـال هيضـت أرواحهـم في مفرمة المجـازر، يسـامرونني أحيانًـا، لكنّهـم يُفزعونـي بقيّـة الوقت.

في اللّيل، وبمجرّد أن أغمض عينيّ، أرى الرؤوس تُقتلع، والأشـلاء تتناثـر فوق وجوهنا، رأيت ملك الموت يسـبح بجناحيه بيننـا، والدّماء تفـرش آمـاد البصر، وكنتُ أتسـاءل: مـاذا لـو أنّ العـالم بالفعل يمقت الحـروب! هل كان سـيصبح مكانًا أفضل للبشر! ماذا لـو أنّ الله لم يخلق مفـردة «حرب»، هل كنّا سـنجري في طريق الدّماء حتّى نُسـتهلك!

مات فيّ إحساسي بالعالم، لم أكن أعرف إن كنت سأستعيدني أم لا.

إنّ الله خلـق «آدم» لينجـو مـن شرك «إبليس»، لا ليسـقط في الوحل، ويُدنّس نسله.

باشرنـا التحـرّك، وكنّـا عـشرة نفـرٍ أو يزيـد، توطّـدت بيننـا أواصر المحبّـة، وزاد منهـا تلـك الحكايـات التـي كانـت أمّـي تُلقيهـا أثنـاء اسـتراحاتنا في الطّريق، منها نبـوءة ظهور الإمام «المهـدي» ليُنقذ العالم مـن الظّلـم والهوان، تقول أمّي أنّه سـيخرج من «خراسـان»، وسـتتبعه جيـوشٌ عربيّة جـرّارة تحمل رايات سـود، وسـيقيمون دولة الإسـلام

This file was downloaded from QuranicThought.com

مـن جديد.

كذلـك حكاية الملك الخراسـاني المسـلم، الذي صعد يومًا إلى سـطح قصره فشـاهد امرأة بيضـاء بضّة شـديدة الجمال، كانت واقفـة في شرفةٍ تجـاور شرفة قـصرِه، فراعه جمالها، فاسـتدعى جارية وسـألها: مِلك من هـذه؟ فقالت الجاريـة: إنّها زوجـة «فيروز» غلامك يـا مولاي.

استكملت أمّي وعلى وجهها ابتسامة حيّة رغم شحوبها:

- أسرع الملـك الخراسـاني يسـتدعي غلامـه «فـيروز»، وقـال لـه في دهـاء: يـا «فـيروز». قـال: لبيـك يا مـولاي. قـال: خُـذ هـذا الكتاب وامـض بـه إلى قائـد «طاجكسـتان» وائتني بالجـواب، حمـل «فيروز» المسـكين الكتـاب وانـصرف إلى بيتِـه وقد وضعـه تحت رأسـه، إذ يجهّز أمـره للغـدّ، نـام ليلته فلـمّا كان الصّبح اسـتيقظ يـودّع أهلَه كي يسـافر ملبيًّـا رغبـة مـولاه، ولم يكن يعرف مـا دبّره الملـك الخراسـاني، والملك لمّـا اطمئن لسـفر «فيروز» تخفّـى متنكّـرًا في زيّ حـارسٍ، وتوجّه لبيتِه وطرقـه طرقًا خفيفًـا خافتًا، فقالـت امرأة «فـيروز»: من يقـرع الباب؟ قـال: أنا الملك سـيّد زوجـك. ففتحت لـه فدخل وجلـس. فقالت له: أرى مـولاي اليـوم عندنـا! فقـال: زائـر. فقالـت: أعـوذ بالله مـن هذه الزّيـارة ومـا أظـنّ فيها خيرًا. فقـال لها: ويحـك إنّي الملك سـيّد زوجك ومـا أظنّـك عرفتِـي. فقالت: بل عرفتُك يـا مولاي ولقـد علمت أنّك الملـك، إنّـما سـبقك الأوائـل في قولهـم: سـأترك ماءكـم من غـير ورد، وذاك لكثـرة الـورّاد فيـه، إذا سـقط الذّبـاب عـلى طعـام، رفعـت يدي ونفـسي تشـتهيه، وتجتنب الأسـود ورود مـاء، إذا كان الـكلاب ولغن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فيه، ويرتجع الكريم خميص بطن، ولا يرضى مساهمة السّفيه.

وأضافت الزّوجة: وما أصدق يا مولاي قول الشّاعر: قل للذي شفّه الغرام بنا، وصاحب الغدر غير مصحوب! والله لا قال قائل أبدًا: قد أكل الليث فضلة الذيب. ثم قالت: أيها الملك تأتي إلى موضع شرب كلبك تشرب منه...!

فاستحى الملك من كلامها، وخرج وتركها، فنسيَ نعله في الدّار.

هذا ما كان من الملك، وأمّا ما كان من «فيروز» فإنّه لمّا خرج وغادر، بحث عن الكتاب، فلم يجده معه، فتذكّر أنّه نسيه تحت فراشه، فرجع إلى داره، وزامن وصوله عقب خروج الملك من داره بقليلٍ، فوجد نعل الملك في الدّار، فطاش عقله وعلم أنّ الملك لم يرسله في هذه السّفرة إلّا لأمرٍ يدبّره، فسكت ولم يبد كلامًا، وأخذ الكتاب وسار إلى حاجة الملك فقضاها، ثم عاد إليه فأنعم عليه بمائة دينار، فمضى «فيروز» إلى السّوق واشترى ما يليق بالنّساء وهيّأ هدية حسنة، وأتى إلى زوجته فسلّم عليها وقال لها: قومي إلى زيارة بيت أبيك. قالت: وما ذاك؟ قال: إنّ الملك أنعم علينا وأريد أن تُظهري لأهلك ذلك. قالت: حبًّا وكرامة. ثم قامت من ساعتها وتوجهت إلى بيت أبيها، ففرحوا بها وبما جاءت به معها، فأقامت عند أهلها شهرًا، فلم يذكرها زوجها ولا ألمّ بها، فأتى إليه أخوها وقال له: يا «فيروز» إمّا أن تخبرنا بسبب غضبك وإمّا أن تحكّمنا إلى الملك. فقال: إن شئتم الحكم فافعلوا فما تركت لها عليّ حقًّا. فطلبوه إلى الحكم فأتى معهم، وكان القاضي إذ ذاك عند الملك جالسًا إلى جانبه. فقال

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أخـو الصبيّـة: أيّد الله مولانـا قاضي القضـاة، أنّي أجّرت هـذا الغلام بسـتانًا سـالم الحيطان ببئر مـاء معين عامرة وأشـجار مثمرة فـأكل ثمره وهـدم حيطانه وأخرب بئـره. فالتفت القاضي إلى «فـيروز» وقال له: ما تقـول يا غلام؟ فقـال «فيروز»: أيّها القاضي؛ قد تسـلّمت هذا البسـتان وسـلمته إليـه أحسـن ممّا كان. فقـال القاضي: هل سـلّم إليك البسـتان كـما كان؟ قـال: نعـم، ولكـن أريد منه السـبب لـردّه. قال القـاضي: ما قولـك؟ قـال: والله يا مـولاي ما رددت البسـتان كراهة فيـه وإنّما جئت يومًـا مـن الأيام فوجدت فيه أثر الأسـد، فخفـت أن يغتالني، فحُرمت دخول البسـتان إكرامًا للأسد.

كان الملـك متّكئًـا، فاسـتوى جالسًـا وقـال: يـا «فـيروز» ارجـع إلى بسـتانك آمنًـا مطمئنًا، فوالله إنّ الأسـد دخل البسـتان ولم يؤثـر فيه أثرًا ولا التمـس منه ورقًا ولا ثمرًا ولا شـيئًا، ولم يلبث فيه غير لحظة يسـيرة وخـرج من غـير بـأس، ووالله ما رأيت مثل بسـتانك ولا أشـد احترازًا مـن حيطانه على شـجره.

فرجـع «فيروز» إلى داره وردّ زوجتـه ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك.

لكنّه ظلّ يتساءل: لماذا يرى نعل الملك في دارِه كلّما ألقاه بعيدًا؟

صفّق أبي ضاحكًا يقول في إطراء:

- من أين تأتيكِ مثل تلك الحكايات؟

ردّت أمّي:

- وهل لنا غير الحكايات نأتنس بها يا سلطان العارفين!

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وكثيرًا ما شعرتُ أنّي باقٍ أشهد على الحكايات، على ما جرى لمدينتنا، وما سيجري لُمدنِ الأحبّة، لكنّي كنت عاجزًا عن التدخّل لوقف انهيار المصائر الذي يتتالى، وبينما كان كلّ شيء في الأفق يتداعى، كنتُ مأسورًا بالأحلام المُقبضِة الضبابية، أسهر جوار أمّي وأعيد بذهني ترتيب الحكايات والأقدار، وأتأسّى، أتقفّى أثر الحوادث والخطوب التي جرت، وأُلملم شظايا الذّكريات، أقفز من نقطةٍ لأخرى، وأستمع لحكايات أمّي، التي كيفما يحلو لها قد تستطرد في حكايةٍ عن الأمل، ولكن عندما يبدأ لسانُها في سرد حكايات الحرب والغزو والتهلكة سرعان ما أشعر أنّها تقصف أحداث الحكاية، تقتضبها ربّما لتهرب من تداعياتها الرّوحية.

وبينما كنت منكمشًا جوار أمّي، سمعنا صرخةً، دوت في غيبة السّكون، هرولنا جميعًا، وجدنا صاحبًا لنا قد هجم عليه ذئب شرس، فبتر له ذراعه، انقضت اللّيلة وكنّا نباشر الاطمئنان على صاحبنا، حاولنا إسعافه بلا جدوى، إذ مع مطلع الصّبح، كان الدّاء انتشر في جسمه، فغادرت رُوحه.

ظلّت الذّئاب تحوّم حول خيامنا ليومين متتابعين، تختفي تناورنا ثم تظهر ومن أعينها يشعّ شرّ الجوع، وإن لم ينقطع عواؤها، كأنّما تُخبرنا أنّها تُحاصرنا وإن اختفت من حولنا، لم نكن نخشاها في النّهار، حيث كانت تلجأ للسّفوح الخفيضة من حولنا وقاية من الشّمس، وعندما يحلّ اللّيل، تبرق أعينها من طيّات العتمةِ، وتبدو ستنقضّ علينا في أيّة لحظة، لولا المشاعل التي حاوطنا بها خيامنا، والتي

This file was downloaded from QuranicThought.com

كانـت تتراقـص عنـد هبـوب الرّيـاح الطفيفـة، فتبـدو سـتنطفئ، فترتجـف قلوبنـا حيث تدنـو الذّئاب عـن كثـب، وكلّما انطفأ مشـعل، أعدنـا إشـعاله، بعـزمِ الخوف.

ولم ننـم خـلال هذيـن اليومـين، خشـية أن تباغتنـا الذّئـاب إن غفلنا عنهـا، وفي صبـاح اليـوم الثالث، بـدت تتحـرّك قافلة عـلى مقربة، وفي يـأسٍ منّا، غـادر قطيع الذّئـاب يتّجه صـوب القافلة، وفي ظنّه سـيظفر بوليمـة أكثـر تسـاهلًا ووافـرة اللّحـم، أدركنـا أنّ الوقـت قليـل لحين عودتها، فاسـتثمرنا الفرصـة، ولملمنا الخيام والمـؤن، وسرعان ما تحرّكنا عـبر مـدّق نافذ إلى «نيسـابور».

بالطبـع توقّفـت أمّـي عـن سرد الحكايـات، وسرنا ليومـين آخرين، حتّى لاحـت لنا مشـارف «نيسـابور».

❋ ❋ ❋

«نيسـابور»، أو «أبر شـهر»؛ مدينة الغيم والضباب، يسـمّونها «باب الـشّرق»، لأنّها البّوابة التي كان يعبر منها المسـتعمرون والغزاة والرّحل في الزّمـنِ الغابـرِ إلى حيث مدائن الشّرق السّـاحرة والزّاخرة بالخيرات، ويسـمونها مدينـة الفواكـه والبسـاتين، حيث تنمو عـلى أرضهـا أنواعٌ نـادرة وفريدة من الفاكهـة والزّهور.

واسـمها «نيسـابور»، نسـبة إلى الملك «سـابور الثـاني»، الـذي أعاد بناءها للمـرّة الثّانية في المائة الرّابعة للميلاد، و «نيسـابور» تعني: عمل «سـابور» الصّالح.

This file was downloaded from QuranicThought.com

هي أجمل مُدن «خراسان»، أهلها فطرتهم طيّبة، وعاداتهم مستحبّة، تجّارها أثرياء، إذ تخرج منها القوافل كلّ يومٍ بأصناف من الفخّار والصّناعات الخزفية والقطن والحرير والمنتجات الزّراعية، لتطوّف سائر بلاد المشرق.

تقوم «نيسابور» على أضلع كأضلع رقعة الشّطرنج، تمّ تخطيطها هكذا منذ زمنٍ بعيدٍ، حيث يحتوي كلّ ضلع على ثمانية مربّعات، أبنيتها باهية وألّاقة، ويبدو عليها زهو الأثر، صباحُها مشمس على الدّوام، وقيل أنّها منفذٌ متّسعٌ نحو السّماء، إذ يسكنها الملائكة.

عام ٣١ هـ فتحها «عثمان بن عفّان» رضي الله عنه، وُولّي عليها الأمير «عبد الله بن عامر بن كريز»، أقام بها مسجدًا كبيرًا، يقوم سقفه على أساطين الآجر، ويدور على صحنه ثلاثة أروقة، زُخرفت جدرانه بالقرميد المذهّب، وبالمسجد أحد عشر بابًا بأعمدةٍ من رخامٍ.

استُقبلنا بحفاوةٍ بالغةٍ من أهل «نيسابور»، أقمنا في منزلٍ أهداه لأبي أمير المدينة، إكبارًا وإجلالًا لعلمه ومعرفته بأصول الفِقه والصّوفيّة، وتقديرًا لقبوله التدريس في المدرسة.

تُحيط بالمنزل حديقة زُرعت بزهر «الياسمين»، عند دخولنا هبّت علينا الرّوائح، فابتسم أبي، كأنّما استراحت رُوحه للمكان.

وكانت هجمات التتار تتوالى على المدن الخوارزمية مدينة بعد أخرى، بلا هوادة، يقتحمون الأسوار والقلاع ويحطّمون البيوت، فيذبحون الرّجال ويسبون النّساء، ترك هذا في أنفسنا أثرًا لا يمحوه زمن، يُباد المسلمون في بلادنا، وكلّنا عاجزون إلّا عن التأسّي

This file was downloaded from QuranicThought.com

والتحسّر.

يومًا قال «جنكيز خان» لأحد الأمراء:

- سأمحو بلادكم من على خريطة هذا العالم، اعتبره وعدًا.

* * *

مـرّ عـامٌ، وربّما أكثر، وبدا الأمرُ استتبّ، كان أبي قـد بدأ التدريس في أكثـر من مدرسـةٍ، وألحقني بمدرسـةٍ تدرّس الفقه، بـدت نفسي مُغلقة تجـاه التعلّـم، أعـرف أنّنا فقدنا وطنًـا وليس من بعد الوطـنِ وطنٌ، غير أنّ أبي جاهـد أن يمحـو مـن داخلي أثر العدوان الغاشـم، وأثر المشـانق والمقابـر الجماعيـة، مـرّة بالخـروج معـه وقضاء سـهرة مع الأخـدان في سـاحة الشّـعر والسّـمر، ومرّة بالخـروج إلى النّهـر للصّيد، ثـمّ ألحقني بدرس الشّـاعر «فريد الدّيـن العطّار»، وكانت لـه «داروخانة»يُشرف عليهـا، يـزوره المـرضى فيبيع لهـم الأدويـة، يركّبهـا بنفسـه ويحضّرها، وقيـل أنّ خمسـمائة وأكثـر من المرضى يـتردّدون عـلى دكّانه.

في البدايـة رحـت أناطحـه نـدًّا بنـد، وكأنّـما طُوّعت لي متـون المعرفة دونـه، كان يصبر عـلى عِنـدي وصلفـي بلطفٍ، ويـردّ على تسـاؤلاتي المُغرِضـة وحججـي الواهنـة بصـبرٍ وتفهّـم، وأهـداني مجلّـدات مـن عيون الفِقـه والشريعة والتصوّف والعلوم الإسـلامية، فرحت ألتهمها كجـرذٍ نهشـه الجوع يقـرض قطعة جبـن، ووجدتني أبعد مـا أكون عن المعرفـة، بـل وجدتنـي أجهـل العلـماء بالعلـمِ! يومًـا بعد يوم اسـتطاع أن يصادقنـي، فـصرت لـه رفيقًـا يحلـو محاورته والتسـكّع معـه بعض الأحيـان، أهـداني ديوانـه «أسرار نامـه»، ففُتنت بـه أيّما افتتـان، رُحت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أغـوص في عـالم الشّـعر شـيئًا فشـيئًا، والعبـارات الرّوحانيـة الجذلـة، والتركيبـات والمعـاني الصّوفيـة التي تغلغلـت بداخلي، قـال لي أبي يومًا وهـو يضحـك ممازحًا:

- الشّعر أخطر عليك من التتار، «العطّار» سيُفسد عقلك.

سـهرت ليـاليَ وأنـا أعـود لأسـتذكر «أسرار نامـه» مـرّة بعـد مـرّة، حفظتـه عـن ظهر قلب، وبـدا لي أنّي يومًا قد أضاهـي «العطّار» في لغته وإحساسـه ومعانيـه وترفّعه عـن خطوب الدّنيـا، أحببت «نيسـابور» أكثـر بسـببه، كان دافعًـا حقيقيًـا للمعرفـة، فاقتحمـت بـكارة الكُتـب ومجاهلهـا أغـترف ولا أتوانـى، قرأت في الشّـعر والتصـوّف، وفي الفقه والقانـون، وحفظـت القرآن كاملًا بأكثر من لسـانٍ كي أتسـلّح باللّغة، وكان «العطّـار» يُباركنـي، ويربّـت عـلى كتفي يقول:

- خـيرُ الابـن وأنجـب التلامذة، شـغفُك هـو طريقـك إلى الحقيقة، فاصـبر على وعيـك، وكُـن محصّنًا بشـهوة المعرفـة دومًا.

قلت له:

- أريد إذًا أن أعرف عن تاريخ «نيسابور» أكثر.

تنهّدوغمغم:

- آه، كم من مرّة هجرتها ولم أستطع!

ثم مصمص شفتيه في أسى، وقال:

- «نيسـابور» حيـاة موازيـة لحيـوات هـذا العـالم، حيـاة متفـرّدة، بأكملهـا، بهـا خمسـون دربًا، تـؤدّي إلى خمسـين بابًا، وبها أعظم أسـواق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الـشّرق، سـوق «المربّعـة الكبيرة» قُـرب الجامـع، الذي يفـدِ إليه كلّ تجّـار العـرب والعجـم، وسـوق «المربّعـة الصّغـيرة» في «الأربـاض» الغربيـة، قريبًـا مـن ميـدان «الحسـينية» ودار «الإمارة»، تلك أسـواق مليئـة بالدّكاكـين، والتّجـار، تمتـدّ مـن مربّعـة لأخـرى، دون انقطاع، تتقاطـع معهـا أسـواقٌ أخـرى، تصـل جنوبًـا إلى مقابر «الحسـينيين»، وتصعـد شـمالًا إلى «رأس القنطـرة» عـلى النّهـر.

وزفر زفرةً طويلة، ثمّ أردف:

- ذكّـرني أن نـزور «رأس القنطـرة» يومًـا، إذ يجـري نهر «نيسـابور» في وادي «سـفاور»، ينحـدر من قرية «بشـتفقان» المجاورة، ستشـاهد هنـاك في هـذا الـوادي القنـاني الضاربـة عميقًـا تحـت الأرض، تلك يا «محمّـد» تظهـر على وجـه الأرض بعدما تتجاوز المدينـة، وحين تظهر، تسـقي المزارع والبسـاتين، تخيّل أنّ لكلّ دارٍ في المدينة قناة تسـتمدّ ماءها مـن هـذا النّهـر العظيـم، بـل إنّ أكثر البيـوت بهـا صهاريج يُخـزّن فيها المـاء للاسـتفادة منه في موسـم الجفاف.

ثم غمغم في ضيقٍ:

- لكنّـي لا أفهـم النّـاس هنا! هـذه الصهاريج لا يسـتخدمونها أبدًا، حيـث إنّ في كلّ بيـتٍ بئر عذبـة الماء..!

وناولني ثمرة «ريباس» بيضاء كبيرة الحجم، وقال مبتسمًا:

- خذ، هذه لا تُنبت إلّا في «نيسابور»، فقط في جبال الثّلج الّباردة..

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كدت أقضم، لكنّه استوقفني مُستدرِكًا:

- احـذر، هـذه ثمـرة لا يأكلهـا إلّا الرّجـال، فطعمهـا حامـضٌ مُرّ، ستنقبض معدتك.

وضحـك، فقضمت قضمـة كبيرة ولكتهـا في فمي بسرعـة متحدّيًا، لكنّـي سرعـان مـا فـارت معـدتي، وقمـت أُفرغهـا مـن حموضـة «الرّيبـاس».

فازداد ضحكًا على ضحكٍ وصاح:

- قلت لك لا يقدر عليها إلّا الرّجال.

في اليـوم التّالي اسـتأذن «العطّـار» أبي أن أرافقه إلى جبل «نيسـابور»، عـلى مضـض وافق أبي، قـال لـه «العطّار»:

- اتركـه يشـتدّ عـوده يـا رجـل، لا تخـش عليـه، المعرفة فـرضٌ على الإنسان.

صعدنـا إلى الجبـل، كانت الحمائم تفرّ من سـنّ الجبـل إلى موطنٍ آخر، وفي عُمـق الجبـل مغارة، تخرج منهـا رياحٌ باندفـاع، الغريب أنّ شـلّالًا مـن المـاء كان يندفـع من بطن المغـارة مع قـوّة الرّيح.

قال لي «العطّار»:

- هذه مغارة الرّيح العجيبة، تكفي قوّة شلّالها لإدارة رُحى.

تجوّلنـا بـين الأقاليم الزّراعية التي تُسـمّى «رسـاتيق»، كانت أرضها خصبـة، وإنتاجهـا غزير على مدار العـام، أكلنا «المشـمش» و «العنب السـفرجلي» الـذي لا نظير له، ثم قـصّ لي أنّ النّبـي «محمّد» عليه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الصّلاة والسّلام قد زاره في المنام، وباركه، وأحاطه بأسرار لو عرفها البشر لما قامت حربٌ في نواحي الأرض. وحطّ يده على جبيني وقال:

- ليته يزورك ويباركك..!

انتهى اليوم بسرعةٍ مستهجَنة، قلت لمعلّمي:

- يومٌ وحيدُ لا يكفي في صحبتك.

فضمّني إليه طويلًا، واستبقاني مضمومًا إليه، ثم تنهّد قائلًا:

- ولا أيّام هذه الأرض تكفي يا حبيب.

وكنتُ أرنو ببصري إلى حيث غدٍ ليس مكشوفًا ولا مأمونًا، ولم تزل المشاهد التي صادفت رحلتنا تختلج في ذهني، ووجوه الموتى وأعينهم المحدّقة كأنّها تحدّق في عُمق ذاكرتي.

وطالما صحوت في اللّيل فَزعًا، كانت أمّي تُسرِع بجلب كوب ماء، ثمّ تقرأ القرآن وهي تطبطب على رأسي، وتمسح عليها بأصابعها.

وليلة بعد ليلة، تغزو أحلامي الكوابيس، رأيت قرودًا، وأبالسةً، رأيت وجوهًا تشبه الشمع، كانت سريعًا تذوب متى حاولت القبض عليها بين حدود العين، رأيت شوارع ممتدّة مغطّاة بنتوءات لم أكن أفهم كيف تظهر أو متى تظهر؟

رأيتني مخلّصًا للأرواحِ، إنّما بيني وبينها غيمٌ وضبابٌ وشياطين.

ورأيتني مسحوبًا للعدمِ كمن نُودي عليّ.

ورأيتني أعوم وسط سحاب، وسط متاهات لا تخلص، ثمّ تنطلق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

صرخـةٌ، تحتضـن المسـافة فيـما بـين الأرض والسّـماء، فتنحـسر كافـة أصـوات الحياة، ويبقـى صداها يطنّ؛ كزئير «عزرائيـل» داخل الآذان.

رأيتنـي مُحاطًـا بمئـات الأرواح، التي تدفعنـي ربّما للحاق بـروح ما، مئـات الأرواح التـي تصطـفّ على جانبـي طريقي وأنا أسـير في الحُلمِ.

ومـن كابـوسٍ إلى كابـوس، ألمحهم متناثريـن حـولي في كلّ الأمكنة؛ الرّدهـة، المطبـخ، الحـمّام، الشّرفـة، الحديقة، غرفـة النوم.

لم أفكّـر في طريقـة للخـلاص منهـم بقـدر مـا كنـت أفكّـر مـا الذي يدعوهـم لزيـارتي؟ الغريـب أنّنـي بعـد فـترة، رحـت أشـعر أنّ بعض الأرواح تكاشـفني عـن خطاياهـا، وأقف أمام مرآتي، أتحسّـس تشـقّق بـشرة وجهـي من السّـهر وعـدم راحتـي، أدقّـق النبش عـن هويتي في أعـماق مجهـول ذاك الوجـه، وكثـيرًا مـا يحـيّرني أنّنـي لا أجدني.

مـع الأيّام، بـدوت رقيبًا عـلى الأرواح، مشـبكًا واهنًـا تتأرجح عليه في هـذه الحيـاة، كانوا يرشـقون في منتصـف رأسي بأعينهـم البرّاقة، فلا أنـام، الهمسـات تتبعثـر حـولي لا أكاد أفسّرهـا، لا أدري أيّ أسرارٍ هذه التـي تتزاحم نحـو عقلي! لا أدري كيـف أحملهـا.. ولا كيف أحفظها؟ أسرار.. أسرار.. توصيـات.. مراثـي، كلّها احتمالات الـوداع المباغت، أنـا آخر وجـوه الأمل ربّما، أو لعـلّي العزاء الذي لابدّ منـه، لم أعد أفهم!

وكثـيرًا مـا كنـتُ أشـدّ لجام الفـرس وأضرب بـين الطّرقـات، في منتصـف اللّيـل، أو في ولـوجِ الفجر، أخـترق مجاهل الطّرقات عسـاني أسـتريح، وأمخر عبـاب الرّيـح في ألـق، أرى الأرواح تسـبح حـولي إذا التفـتُّ، تقـترب محلّقـة بسرعة من زجـاج عينـيّ، أرتدّ بـرأسي، تبتعد،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تتناوب النقر عليه روح بعد أخرى، والهمسات تعلو، تعلو، أطياف غير بشرية تتكدّس حولي، مثل موج يتلاطم فيرفع نبضات الحيرة، الأسئلة تنهمر عليّ من كلّ اتّجاه، سرعة الفرس تزداد، والأرواح في أعقابنا.

الوقت ليل، واللّيل لا يُخفي عن بصري تفاصيل المقذوفات التي تشقّ الطّريق عكس اتّجاهي، لكن الفرس في لحظة تتوقّف، وتستدير برأسها إلى الوراء، فأستدير معها.

وهناك، فيما وراءنا تمامًا، تنبذر غرفةٌ في الخلاء، تنبذر من عدمٍ، بابها مفتوح على مصراعيه، وينطلق منها وهج ضوء، وعلى فراشٍ من خوصٍ داخل الغرفة، كان ممدّدًا ساكنًا لا يحمل أثر النّجاة، تجلّطت -من اقتحام الرّيح كلّ منافذ الغرفة- دماءٌ، قد تفشّت على سائر ملابسه، أقترب أكثر فأكثر، شيئًا فشيئًا، وجهه مطمئن، ابتسامته مألوفة تحمل ارتياحًا عجيبًا، ابتسامة «عزرائيل»تطلّ من عينيه دون خجل.

وهناك، فوق الفراش، داخل الغرفة، رأيت جسدي ممدّدًا ليست به حياة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

محمّد بن ملك داد التبريزي

حلب/ سوريّة -٥٩٩ هـ

(إلهنا حيٌّ، إذ ماذا نصنعُ بإلهٍ ميّتٍ؟).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ركنتُ إلى حضرة مولاي الإمام ونفسي طائعة، أدركت إنّما أنا لست أكثر من درويشٍ راءٍ لم يلبس ثوب الحكمة بعد، لم يقتصد عليّ مولاي في نصيحةٍ أو علمٍ أو تساؤل، وكان يقابلني حجّة بحجّة، وذريعة بذريعة، وأضاء لي جوانب غامضة في ثنايا رُوحي، وبدأ جوهر الوجود يتبلوّر في فؤادي.

بهدوءٍ – ويومًا من بعد يوم – تعوّدت استكشافَ التّفاصيل التي يحفل بها بيت مولاي، شَعَرت كثيرًا أنّ حالةً مزاجية موّحدة تستولي على الكلّ هنا، فمجموعة قد تنهمك في جلسة ذِكر يَخرج ترتيلُها متواترًا منسجمًا دون غرابة أو استهجان، ومجموعة في جوار قريب قد تُجهّز الطّعامَ والشّراب للمجلس، وجماعة يأتي نقر طبولِها من إحدى الغُرَف في جوف الدّار متناغمًا وإيقاعه تطرب لها الأُذُن، لم أمنع نفْسي في الحقيقة أن أختلس نظرةً عابرة وأنا أمرّ بجوار هذه الغرفة بالذّات، بداية ما لازمت تكيّة مولاي ودراويشه، لعلّ فضولًا استأثر بحفيظتي وقتذاك وأنا أمرّ مِن أمامها، كان بعضهم يرتدي ملابسَ تشبه ملابس الزّهاد، مجرّد أقمشةٍ متّسخة وعمائمَ خضراءِ اللّون كأنّها مقلوبة إلى أعلى تتّخذ شكلًا هرميًا، تستدير في إحكام مع استدارة الرّأس ثم تنتهي إلى فوق بطبقاتٍ تزداد عرضًا وتضفيرًا، تتهدّل مِن رقابِهم سلاسلُ مصنوعةٌ من أحجار مختلفة الألوان، تبلغ منتصف بطونهم، تمامًا كلحاهم التي تفترش صدورَهم في إهمالٍ وعشوائية، وربّما زهدٍ فريد، كثيفة كثافة بدت وكأنّما تغزو الوجهَ كلّه، فلا تعرف الفرقَ بين رَجل وآخر، ملامحهم كلّها مختبئة وراء

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الشَّعر الهائش الذي يسرح من ذقونهم في شتّى الاتجاهات، كانوا يدورون خلف بعضهم في تواترٍ بدا معتادًا، منتظمًا، وفيه دقّة كأنّها مخطَّطة، لكنّي كذلك في هذه اللحظة المسروقة – عفوًا – استطعت أن ألمح امرأةً متغضّنةَ الوجه، عيناها خطّان رفيعان لا تُميّز بينهما فتحةٌ محددة، جِلد وجهِها مكرمَش من شدّة الكِبَر، تلبس عباءةً سوداءَ استحال لونُها باهتًا من تأثير الأتربة، كأنّها لم تخلعها مِن على جسمها منذ سنوات، وتنسدل إلى ما بَعد كتفيها طرحةٌ يغيب تحتها ثلثا وجهها، كانت متربّعةً في منتصف الدّائرة وأمامها بِضعُ قِدورٍ تفوح منها روائحُ نفّاذة بشكل ما، يخرج الدّخان من فوّهتها كثيفًا مضموغ اللّون، وتتناثر قبالتَها أعضاءُ مِن طيور مذبوحة، كان ريشُها هائمًا يسبَح في الهواء في دوائرَ وسط الرّجال الذين يلفّون في عدم انقطاع، قال لي مولاي:

– هؤلاء هم صُفوة الدّراويش يا «شمس»، وهبوا أنفسهم لله منذ زمنٍ.

– ليتني مثلهم يا مولاي، أعشق الله وأراه، وإنّما ثمّة منقوصٌ في عشقي، لا أفهم بعد ما هو!

– حين يأذن الله، سيهب نفسه لك أولًا.

كانت دروبُ بيتِ الشّيخ كمدينةٍ فسيحة، بيت واسع، بدا لا آخر له، وبدا واضحًا أنّ مولاي لم يبخلْ في الإنفاق عليه، ففي كلّ ركنٍ وكلّ ملف، تظهر التّحف الباهظة الأنيقة والتماثيلُ الضّخمة، وعلى الجدران تتهدّل السّجاجيد الغالية ومسابحُ مِن فضّةٍ وذهب.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

- تلك هبات الأحبّة.

قال مولاي.

وفي كلّ التفافةٍ لي بداخلِ البيت المقام على هذه المساحة الهائلة، كانت الأصوات تغيب رويدًا، والبخور يتبدّد، يسحبني هدوء روحاني إلى مسالكَ ملتويةٍ متعرّجة مختلفة، ومولاي يتقدّمنا دون أن يُصدِر صوتًا.

أنضمُّ للحلقة، نبتهل ونقرأ الأدعية وننسلخ، نغادر ثيابنا فننطلق إلى السّموات، يخامرنا شعور الترقّي، ونطوّف بين سرايا الإحساس كأنّنا لم نكن بشرًا، ولن نكون. يدقّ الطّبل وتتراقص الأدمغة، تلتحم الأجسام، وتغيب العقول، وتغدو الحلقة دُخانيّة اللّون، مُفرِطة الضّبابية.

ويصبح الزّمن مثله كالعدم، إذ تتوقّف الأرض عن الدّوران، لحين تتوقّف رؤوسنا عن الدّوران.

* * *

في المساء، أرافق مولاي إلى عُرسٍ، يجلس ويجلس جواره مريدوه، العُرس يدور، ومولاي يبدو عليه الانبساط...!

العُرس انبساط، إنّما الجميع يذوبون في الجميع، كأنّهم يمارسون فاحشة مُعلنة.

قال لي مولاي:

- تؤخّذ الدّنيا على علّاتها يا «شمس»، هؤلاء يُخطئون حتمًا، إنّما

This file was downloaded from QuranicThought.com

بهجتهم نادرة، والصّباح للاستغفار، يشربون الخمر، وفي الفجر يمضمضون أفواههم ويدعون الله التّوبة، يتحرّشون بالنّساء اللواتي يرقصن، ولو بأعينهم حتّى، لكنّ هذا مباحٌ في كلّ الأعراسِ، يحسد الرّجالُ رجالًا آخرين على نسائهم ذوات الأجسامِ الفائرةِ الرّشيقة، أو ذوات الأعينِ المكحّلة، أو ذوات الوجوهِ البِيضِ النّاصعة، ويصفّقون لمن تُحسن الأداء في الرّقص، تتفنّن وتتمزّج وتتنغّج، التضوّع يا بُني حيلة أخيرة ووحيدة لجلب الاستحسان ومصمصة الشّفاه بحسرة، التلوّي وسيلة لإبراز المفاتن، النّساء بالطّبع فيهنّ من جاوزت الأربعين، وفيهنّ من حبلت أكثر من عشر مرّات، وفيهنّ من جار عليها الزّمن، وفي الأعراسِ، على ساحة الرّقص، كلّ واحدةٍ لابدّ أن تجعل زوجها فخورًا بما امتلكت يداه، الواحدة منهنّ تحدج زوجها بنظرة لئيمة كأنّها تقول له: لم يجُر عليّ الزّمن بعد.

أمّا الرّجال فهم يتفنّنون أيضًا في تنميق الشّوارب وتهذيب اللُحى وهندمة الجلابيب والعمائم والقفاطين، لهم مع الدّنيا باعٌ وباع، أرجَلهم من يشرب قنطارًا ولا تلفّ رأسه، الغريب أنّهم جميعًا يسكرون، وتدور أدمغتهم، ويأتون الأفعال التي تجلب الخجل وقت تذكُّرها، لكن الله كريم، غفور، كلّهم يصبحون بعد الخمر والشّرب والمسخرة متساوين في المقام والهيبة والوقار، بمعنى أدقّ؛ في عدم المقام أو الهيبة أو الوقار، يعني في هذه اللّيلة يا «شمس» قد يقوم فلان ويُراقص امرأة فلان، درجة أنّه قد يحكّ ذكرَه بمؤخرّتها، لكن الله كريم، كلّه سكران، وآخر قد يشدّ بنت فلان من عباءتها، والله

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ستّار يا بُني، ليلة وتفوت، وحالما تفوت اللّيلة، ليغترف كلّ واحدٍ من محاسنها كيفما اتّفق، لا بأس من بعض الأنس والتسرية.

قلت له متعجّبًا:

- أنت تقول هذا يا مولاي..!

- لسنا أرحم من الله بعبادِهِ يا «شمس».

هناك، خارج بيوت المدينة، في السّاحة الكبيرة، يقدح الزّمر، وتتمازج الأجساد، وتترنّح الرؤوس، بالضبط كأنّها تنتظر نحرها.

لكنّ مولاي ظلّ يدمدم:

- بعض الرّجا نجوى، بعض الرّضا عنّا، نجّنا يا الله.

والرّقص يشتعل، تفور النّساء، ويشتهي الرّجال، تتحطّب مواضع الذّكورة، ويرنو كلّ رجلٍ إلى امرأة رجل آخر، كذا تفعل النّساء، لا يُمكن أن يُقاس معطوبٌ بسليم، تمامًا كما لا يُمكن أن نقيس عقلًا مُدركًا بعقلٍ قد ذهب، لذا؛ فليأتِ الجميع حسنات اللّيلة لأنّ الأعراسِ لا تدوم ولا تحدث كلّ ليلة، ما أندر الأعراسِ في مدينتهم على حدّ قول مولاي!

في عشيّة هذه اللّيلة، استغرقني نومٌ عميق، وراودتني رؤيا خصبة.

رأيتني قادمًا من حشاش الأرض، كماردٍ عمره ألف عامٍ، وفي سلطتي شفط أهل الأرض بين ضلوعي كشجر أوراق خريفيةٍ، في سلطتي أن أثب لشمال الأرض ثمّ أثب لجنوبها في لحظتين متتابعتين، كنت سامقًا برأسي إلى سجف السّماء، الباديّة نورًا وسحابًا وزرقة،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ولكنّـي في هذه الرؤيـة لم أر الله، ولا رأيت ملاكًا، فقط رأيت وجهها، بل وباحت لي باسمها، سألتها:

- من أنتِ؟

قالت:

- حوريّة.

- واسمك؟

فردّت:

- «كيميا».

ثـم اعتلتني وراحت تمشّـط شـعري بأنامل يديها، فغفـوت بين يديها كصغيرٍ اشـتهى النّوم.

أفقت فهرعت إلى مولاي، قصصت عليه رؤياي، فهزّ رأسَه وقال:

- أبشر، هي لك.

قلت:

- مَن..!

- حوريّتـك، قسـطٌ مـن عِشـق الدّنيـا يغـذّي عشـقَك الأكـبر أيّهـا الدّرويـش.

انقطعـت عنّـي الرؤى لأيّـام وأيّام، غـير أنّ وجه «كيميا» ظـلّ عالقًا كغيمـةٍ في خيـالي، لكنّي لُمت الخيـال الذي يصنع لي حوريّة تُشـتهَى ولا تُطال.

وفي سـوق الزّيـوت بوسـط المدينـة، بعد شـهرٍ مـن رؤيـاي أو يزيد،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قابلتها، لم أكن أتصوّر –مجرّد تصوّر– أنّ الواقع يُمكنه أن يمنحها لي، إذ كفرت بالواقع منذ زمن، وهيض إيماني به مقابل العِشق الأعظم، كانت تتمشّى على مهل، وكانت تضوّي، وكانت ساهمة تتأمّل وجوه النّاس.

ما زالت بنت الحلمِ ساهمةً وهي تتابع بعينيها ولوجَ الحركةِ إلى قلب السّوق، رجل عجوز مرّ أمامها وابتسم لها يغازلها، فابتسمتْ، أدركت أنّ الحوريّات يُلاحظنّ رغم ذلك، ما تلا هذا بدا صخبٌ لن ينقطع حتّى نهاية اليوم، راحت حركةٌ تدبّ بحشودٍ من الوجوه المكشّرة التي لم تزل آثار الوسن عالقةً بها، ومن شوارعَ جانبيةٍ أخذت عربات البضائع التي تجرّها البِغال والأحصنة والحمير تتوافد بشكل متواتر، امتلأ الجو بضجيجٍ مدوّ، وروائح الغبار والأتربة التي سرعان ما راحت أقدام المارّة تتناقلها في عجلة، همهمات التحيات والسّلامات تنتشر داخل أجواء السّوق.

قلت أبادرها، لكنّ خوفي كان أكبر، إن كان ردّ فعلها قاسيًا سيُفتضح أمري ولعلّي أُرزق بعلقة ساخنة..! وما أنا إلّا درويش مهلهل الثّياب.

في لحظة اختفت، رحت أبحث بعينيّ عنها، وكانت قد أكلها الزّحام.

مضى اليوم، انتظرتُ في مُحيط السّوق أن تظهر ثانية، دونما جدوى.

مضى اليوم، ومضت بعده أيّام.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لم أعُد أحتمل، كاشفت مولاي بهمّي وعدم احتمالي، فقال لي:

- اصبر يا «شمس»، في الصّبر زُهد.

- ولكنّي.....

فسكتُّ، ابتسم يُكمل:

- سنزوّجها لك، إنّما دع الأمور تمضي كيف يشاء الله لها.

- لكن يا مولاي..

بدا استبطن ما تحرّجت من قوله، فقال:

- لك السّكن والمأوى.

وخبا بريق رؤياي، اقتصرت أحلامي على «كيميا»، إن غفوت نهارًا وإن غفوت ليلًا، استحكم طيفها ببصيرتي وبصري، وكدتّ أجنّ، وفي يومٍ، استدعاني مولاي، وقال لي:

- ارتدِ ثيابًا تليق بعريس.

لم أصدّق نفسي، وقفت أمامه طويلًا عاجزًا، لعلّي أخرّف، أو لعلّ مولاي يخرّف هو الآخر.

صاح بي مولاي متفكّهًا:

- تأدّب، واجل عقلك من تلك الوساوس الماكرة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كيرا

قونية/ الأناضول -٦٢٨ هـ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

طيـورٌ تتسـكّع حـول الصّليب المنبثـق نحو السّـماء، ترفـرف في بطءٍ يدعـو للتأمّـل، تـدور دوراتٍ يسـاورها شيءٌ مـن زُهـد واطمئنـان، لا أعـود ببـصري عنهـا إلّا حين تشـدّني أمّـي لندخل الكنيسـة.

الباحةُ واسـعةٌ ونحن نتقدّم بخطوات شـابها ارتعاشُ التجربة، كيف لم نَـزُر الكنيسـة الكُبرى يا أمّي ولـو لمرّةٍ في حياتنا؟ توقّفنا عند اسـتدارة أحـد الشّمامسـة، والذي رمقنـا بدايةً بعينٍ مسـتغربة، كأنّه يتسـاءل عن داعٍ لزيارتنـا، ثـم سرعـان ما بَـشّ وجهُه حـين انطلقت أمّي تلثّـم يدَه، وأنا مِـن بعدِها.

- تفضّلا.

تبعنـاه، وثمّـةَ طريـقٌ مضـاءة بالشّـموع تُفـضي لغرفـة الصّلـوات، رحـت أجـوب بعينَـيّ متفقّـدةً فالتفـت الشـمّاسُ نحـوي يهمهـم:

- هنا لا تنطفئ الشّموع لا باللّيل ولا بالنّهار.

باركني يا أبتِ، كُن لي ملاذًا أستجير به من الحيرة.

دلفنـا، وبأعـلى الغرفة صـورةٌ ضخمة للعـذراء وهي تضم «يسـوعَ» الصغـيرَ بـين يديهـا، وقـد خـطّ في متنهـا: «أيّتها غـير الدّنسـة العفيفة، القدّيسـة في كلّ شيء، التـي قدّمـتْ لنـا اللهَ محمـولًا عـلى ذراعيها».

جلسـنا في غرفـة الصّلـوات، وكان قـسٌّ يصـلّي في غمغمـةٍ أشـبه بالنّشـيج، وعينـاه مليئتـان بالدّمـوع، أمـام صـورة للعذراء والمسـيح:

- «لكـن أحزاننـا حملهـا، وأوجاعنا تحمّلهـا؛ ونحن حسـبناه مصابًا مضروبًـا مـن الله ومذلـولًا، وهو مجـروحٌ لأجل معاصينا، ومسـحوقٌ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لأجل آثامنا، وبجبره شُفينا، كلّنا كغنم ضالّ، مال كلّ واحد إلى طريقه والرّب وضع عليه إثمَ جميعنا، ظُلم، أمّا هو فتذلّل ولم يفتح فاه، كشاةٍ تُساق إلى الذّبح، وكشاةٍ صامتة أمام جازريها لم يفتح فاه، سكبَ للموت نفسه، وأُحصيّ مع الأثمة وقد حمل خطيئة كثيرين وشفع في المذنبين».

ثم أضاف بصوت متهدّج:

- باركنا يا يسوع.. آمين.

وغَسل وجهه بكفّيه، ولما أدركنا أنّه انتهى، دنونا منه، وقبّلنا يدَه.

- بوركتما..

وجلسنا في رحابِه قليلًا، كان يمضي ببصره يتفقّد صورَ العذراء التي ترصّع الجدران، وفوق وجهه ابتسامةُ رِضا وعرفان، وأخذ يهمهم ولم يَدْنُ ببصره منّا:

- في سائر الأجيال تقف العذراء مِن التّاريخ في مركز الدّائرة، اختارها الله لتصبح همزةَ وصلٍ بين الأرض والسّماء، بين فردوسَيْن؛ المفقود والمردود، مِن أجلها نعظّم الله، ومعها، «مباركة أنتِ في النّساء ومباركة ثمرةُ بطنِك».

ثم استدار إلينا وقد عاجلته دموعٌ أخرى طفيفة، انحدر بعضها فكلّل لحيتَه، أبصرني صامتةً تعلو وجهي ملامحُ ضيق، وكنتُ ألوذ بصمتٍ، ربما كانت تجيش بذاكرتي وقائعُ مضت، رغم أنّي حاولتُ كثيرًا دفنَها، لم يستفسر ولم يعلّق، أكمَل بعد تأمّل مُستغرِق وهو

This file was downloaded from QuranicThought.com

ينهج، وبدا قد أحسّ بحيرتي:

- يا بُنيتي إنّ العذراء ملتقى الباغين طيبًا، «يوسف» حين أدرك حمْلها، لم يرضَ أن يشهّر بها، وآمَن بالمعجزة، «يا يوسف ابن داود لا تَخف أن تأخذ مريمَ امرأتك، لأنّ الذي حُبل به فيه هو مِن الرّوح القدس»، لم تكن العذراء «مريم»، أو «يوسف» رَجلها، مِن العائلات الغنية، فـ «يوسف» نجّار بسيط، وحين جاءت ساعة ولادتها، لم تجد غيرَ المذود لتلِد فيه، وحين أرادا أن يقدّما الطّفلَ «يسوع» في الهيكل حسب عادة الناموس، وعن تطهيرها حسب الشّريعة، لم يحملا معهما إلاّ زوجَ يَمام، أو فرخَيْ حَمام، وهي تقدِمة الفقراء.

أمّي تستمع وعلى وجهها خشوعٌ لا إرادي، ومضت تدمدم في خفوت، وتقطّر الماءَ المقدّس من الإناء فوق جبهتها، وقساوسةٌ ورُهبان يدلفون، ينحني بعضهم على أُذُنِ القسّ يهمهمون، ثم يمضي كلّ في هدوء.

كدتُ أقول له أنا يا أبانا أكرهُ صنفَكم، كلّ الرّجال نُسَخ لا نهائية من القمع والشّهوانية، خاصة الرّهبان، لكنّي آثرت أن أحتفظ بمَقْتي داخلي، قبّلنا يدَه ثانية ثم تقهقرنا عنه وفي قلب أمّي بَركة لم يُخفِها وجهُها، في الطّريق قالت أمّي:

- ارتحتِ يا «كيرا»!

نظرتُ لها بجنب عيني مؤيّدةً وقلتُ في نفْسي: «يكفي أنّكِ ارتحتِ يا أمّي».

الحياةُ مِن حولنا تدبّ في أوصال المدينة سريعًا، لكنَّ الحياةَ في قلبي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تأبى الحِراك، مالِ كلّ شيء يعتريه سأم لا نهائي! ليس السّلامُ بقريب إذًا! ليس ثمّةَ شعورٌ يكتنفني يُرشِد للسّلام، خشيتُ من نفسي، أُدرِك أنّ النّفسَ عظيمة الوسوسة، وأنّ هناك شرًّا يعتمِل في ذهني، لا أدري مِن أيّ جانب سيأتي أو في أيّ زمن، لكن هناك شرًّا، لا محالة، أحسّ به إحساسًا متوهّجًا، شديد الأخذ، وكنتُ أدعو الله أن يقيني شرّ نفسي.

أمّي تدركُ منذ زمنٍ أنّ شيئًا باطنًا يلهج في أحشاء لساني، لم أفصِح لها، أسراري مُرعبة، والبوح بها مهلَكة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

شاهين

قونية/ الأناضول -٦٤١ هـ

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

يقول مولاي «شمس» في كِتابه «قواعد العِشق الأربعين»:

- يوجد مُعلّمون مُزيّفون وأساتذة مُزيّفون في هذا العالم، ربّما أكثر عددًا من النّجوم في الكون المرئي، فلا تخلط بين الأشخاص الأنانيين الذين يعملون بدافع السُلطة وبين المعلمين الحقيقيين، إذ أنّ المعلّم الرّوحي الصّادق لا يوجّه انتباهك إليه ولا يتوقّع طاعةً مُطلقة أو إعجابًا تامًّا مِنك، بل يساعدك على أن تُقدّر نفسك الدّاخلية وتحترمها، إن المعلّمين الحقيقيين شفّافون كالبلّور، يَعبر نور الله من خلالهم.

- وكيف نكتشف نور الله يا مولاي؟

- بألّا تحاول أن تقاوم التغييرات التي تعترض سبيلك، بل دَع الحياة تعيش فيك، ولا تقلق إذا قلَبت حياتك رأسًا على عقب، فكيف يمكنك أن تعرف أنّ الجانب الذي اعتدتَ عليه أفضل من الجانب الذي سيأتي؟

- أشعر أنّي ممزّع أحيانًا يا مولاي، إذ كلّما ألحّ عليّ نزعٌ أُلقيت لضدّه.

- يقبع الكون كُلّه داخل كلّ إنسان في داخلك، كلّ شيء تراه حولك، بما في ذلك الأشياء التي قد لا تُحبها، حتّى الأشخاص الذين قد نحتقرهم أو نمقتهم، يقبعون في داخلك بدرجات متفاوتة، لا تبحث عن الشّيطان خارج نفسك أيضًا، فالشّيطان ليس قوّة خارقة تُهاجمك من الخارج، بل هو صوتٌ عادي ينبعث من داخلك، فإذا تعرّفت على نفسك تمامًا وواجهت بصدقٍ وقسوةٍ جانبيك المظلم

This file was downloaded from QuranicThought.com

والمشرق، عندها تبلغ أرقى أشكال الوعي، وعندما تعرف نفسك فإنّك ستعرف الله.

- دومًا أخشى من الطّريق التي أتّخذها للوصول إلى الله، حيث يُمكن أن تكون طريق الشّيطان.

- لا تهتمّ إلى أين ستقودك الطّريق، بل ركّز على الخطوة الأولى، فهي أصعب خطوة يجب أن تتحمّل مسؤولياتها، وما أن تتّخذ تلك الخطوة، دَع كلّ شيء يجري بشكل طبيعي، وسيأتي ما تبقّى من تلقاء نفسه، لا تسِر مع التّيار، بل كن أنت التّيار.

- حاولت كثيرًا يا مولاي أن أدع نفسي تصنع الطّريق، وتصنع التّيار، لكنّي طالما شعُرتُ بضآلتي حين أفكّر في الله.

- لقد خُلقنا جميعًا على صورته، ومع ذلك فإنّنا جميعًا مخلوقات مُختلفة ومميّزة، لا يوجد شخصان متشابهان، ولا يخفق قلبان لهما الإيقاع ذاته، ولو أراد الله أن نكون مُتشابهين لخلقنا متشابهين، لذلك فإن عدم احترام الاختلافات وفرض أفكارك على الآخرين يعني عدم احترام النّظام المقدّس الذي أرساه الله.

- اسمح لي يا مولاي، أين الله؟ أين يُمكن أن نجده بالضبط؟ ألا ترى أنّ حياة الدّروشة لا تختلف عن حياة الزندقة!

- عندما يدخل عاشق حقيقي لله إلى حانة فإنها تُصبح غرفة صلاته، لكن عندما يدخل شارب الخمر إلى الغرفة نفسها فإنها تُصبح خمّارته، في كلّ شيء نفعله قلوبنا هي المهمّة لا مظاهرنا الخارجية، فالصوفيّون لا يحكمون على الآخرين من مظهرهم أو من هُم، وعندما يُحدّق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

صـوفيٌّ في شـخصٍ ما فإنّه يغمـض عينيه، ويفتح عينًا ثالثـة، العينُ التي ترى العـالم الدّاخلي.

- كلّـما حاولـت أن أشـعر بعالمـي الدّاخـلي، تطرّفـت مـن فـرط التسـاؤلات.

- مـا الحياةُ إلّا ديـنٌ مؤقت، وما هذا العـالم إلّا تقليدٌ هزيلٌ للحقيقة، والأطفـال فقـط هـم الذين يخلطون بـين اللّعبـة والـشيء الحقيقي، مع ذلـك فإمّـا أن يفتتـن البـشر باللّعبـة، أو يكسِروهـا بـازدراء ويرمونهـا جانبًـا، في هـذه الحياة تحاشـى التطـرّف بجميـع أنواعه، لأنّه سـيحطم اتزانـك الدّاخـلي، فالصّـوفيُّ لا يتـصَرّف بتطـرّف، بـل يظـلّ مُتسـامحًا ومعتـدلًا على الـدّوام.

- ولكنّ العالم غابةٌ، التّسامح فيها مهلكة.

- يتبـوأ الإنسـان مكانة فريـدة بين خلـق الله، إذ يقـول الله: «ونفختُ فيـه مـن روحي»، فقد خُلقنا جميعًا من دون اسـتثناء لكـي نكون خلفاء الله على الأرض، فاسـأل نفسـك كم مـرة تصرّفت كخليفة لـه، هذا إن فعلـت ذلـك؟ تذكّر أنّه يقع عـلى عاتق كلّ مِنّا اكتشـاف الـرّوح الإلهية في داخله حتّـى يعيش وفقها.

- الخـوف أن نمـضي عمرنـا بحثًـا عـن الله وفي نهايـة الأمـر تكـون آخرتنـا جهنّم.

- إنّ جهنّـم تقبـع هنـا والآن، وكذلـك الجنّـة، توقّـف عـن التفكير بجهنّـم بخـوفٍ، أو الحُلـم بالجنّـة، لأنّهما موجودتـان في هـذه اللّحظة بالـذّات، ففـي كلّ مـرّة نُحبّ، نصعد إلى السّـماء، وفي كلّ مـرّة نكره أو

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

نحسـد أو نحـارب أحـدًا فإنّنا نسـقط مبـاشرةً في نـار جهنّم.

– لكن ما أشدّ ما تثير فينا أفعال البشر السّخط يا مولاي!

– لا ضرر ولا ضرار، فقـط كـن رحيـمًا، لا تكن نمّامًـا حتّى لو كانت كلماتـك بريئـة، لأنّ الكلـمات التي تنبعث مـن أفواهنا لا تتلاشـى، بل تظـلّ في الفضـاء اللانهائـي إلى مـا لا نهايـة، وسـتعود إلينـا في الوقـت المناسـب، إنّ معانـاة إنسـانٍ واحـد تؤذينا جميعًـا، وبهجة إنسـانٍ واحد تجعلنا جميعًا نبتسـم.

– ولكنّهـم يؤذوننـي يـا مولاي، أسـمعهم يسـخرون منّـي وأضطرّ للصّمت .

– يُشـبه هـذا العالم جبلًا مكسـوًا بالثلـج يردّد صـدى صوتك، فكلّ مـا تقولـه سـواء أكان جيّدًا أم سـيّئًا، سـيعود إليك على نحـوٍ ما، لذلك إذا كان هنـاك شـخص يتحـدّث بالسّـوء عنـك، فـإنّ التحـدث عنـه بالسّـوء بالطّريقـة نفسـها يزيـد الأمر سـوءًا، وسـتجد نفسـك حبيس حلقـة مُفرغـة من طاقـةٍ حقـودة، لذا انطـق وفكّر طـوال أربعـين يومًا وليلـة بأشـياءٍ لطيفة عن ذلك الشّـخص الذي يعمد إلى أذيتـك، إنّ كلّ شيء سـيصبح مختلفًـا في النّهايـة لأنّك سَـتصبح مُختلفًـا في داخلك.

ثمّ فجأة شبّ ناهضًا، وزام يقول:

– أين النرجيلة يا درويش؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جلال الدّين محمّد بلخي

نيسابور/ خراسان -٦١٨ هـ

(يا قلب، لا تُجالس إلّا الذين يفهمونك
ويعرفون حقيقتك، يا قلب، لا تجلس إلّا تحت
الشّجرة المُزهرة).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

سوف تعيش، قيل لي ستعيش، سوف يُدام لك خلودٌ لم يكن لبشرٍ من قبلك، ولا من بعدك ربّما، أنت كأنت، لا فارق بينكما إلّا مثل ما يُشبه الخيط الواهن، النّهار واللّيل، الأبيض والأسود، خيط مهما تتّبعته لن تلحظ امتداده بين نقيضين، أجل لا فارق بينكما غير الزّمن، وما أسخر الزّمن!

قيل لي ستعيش، وقلت: لكنّ مثلي لا يموت. كيف يموت مَن في قلبه غصّة وجحيم؟ إنّ المحسورين يا مولاي لا يموتون، التّاريخ لا يُهلكهم، يموت الجميع ولا يموت هؤلاء الذين فُطروا على الألم، أوليس التّاريخ بشاهدٍ؟

في مدينتي يا مولاي مات كلّ شيء عدا إرث الفجيعة.

تخيّل يا مولاي أنّي سعيت وكأنّما أقرّر مصير هذا العالم، العالم بحاجة إليّ، لا تبتسم هكذا يا مولاي، لست مجنونًا وإن كنت على حدّ الخبل، كما أنّك لست مُطالبًا بتصديقي اليوم، قدر أنّك يجب أن تستمع لحكايتي.

في الحقيقة إنّها حكايتهم، أو...

لعلّها حكايتك يا مولاي، استمع فقط.

* * *

خلال هذين العامين، قبل غزو التتار «نيسابور»، التهمتُ الكُتب والصحائف والمراجع بشغفٍ عظيمٍ، وساعدني أبي من علِمه وأزادني، غير أنّي دلفت إلى طريقِ الصّوفيةً على استحياء، كان «العطّار» قد

This file was downloaded from QuranicThought.com

هاجر مرّة أخرى، لكن أخباره لم تنقطع، أكثر من مرّة بعث رسولًا يُطمئننا على أخباره، سواء في النواحي المجاورة، أو البعيدة، وعكفِ على تأليف كتابٍ فآخر، فشغله هذا عن استئناف علاقته بالعالم، فاعتزل، وبتنا نسمع عن أخباره كلّ أمدٍ، وقد التزم في عامِه الأخير –قبل هجرتِه – بضريح الإمام «الرّضا»، ثمّ فجأة ساوره هاجس الترحال، قال لي آنذاك:

– تهفو نفسي لرحلةٍ لا أعود بعدها.

زرته في بيتِه، وكان يحتضن أوراقه في شجنٍ، بدا مهزومًا، أو بدا مختّلًا، لم أستنبطّ علّته على وجه التحديد، لكنّه ظلّ يهذي:

– إنّما تلك الأوراق أطفالي، سأظلّ أبعثرهم وألملمهم، سأحدّق في المرآة وأخلّل بأناملي رماد رأسي.

ثم استدار لي يهتف:

– هل تعرف كم عمري! خمسون انحناءة تتلّوى فوق وجهي، خمسون انحناءة يا رجل، تخيّل! لكن الحلم قادم، وسيأتي الله يناديني: أما حانت رحلتُك؟

قلت أواسيه:

– مولاي، إنّ الله بداخلك، بداخل كلّ عاشق.

صاح:

– الله بعيد، بعيد، لكن لو أنّه في قبضة يدي..!

ثم لطم أوراقه فسقطت على الأرض، وهمهم في يأس:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

- أنجبتهم بطريقٍ غير شرعي، أنجبتهم سفاحًا، بسببهم، فارقني الحلم.

- تريّث يا مولاي، إن هي إلّا حالة طارئة..!

- كلّا، منذ زمنٍ تزوّجت رأسي، وأنجبت منها هؤلاء.

وأشار نحو الأوراق المبعثرة على الأرض.

ثم فجأة لملمها، وكوّمها فوق بعضها، عند زاوية جوار جدارٍ خالية من سجّاد وفرش، ثمّ تناول مصباحًا، ورماه على الأوراق، فاشتعلت.

بعدها؛ كبّر تكبيرة عالية، وصلّي على الأوراق.

أيقنت إنّما أدركه جنون المعرفة.

جاءتنا الأنباء أنّه ارتحل من برّ «مصر» إلى «دمشق»، ومنها إلى «الكوفة»، ثم نزح إلى «الهند»، بعدها عاد فاستقر في «كدكن» قريته الأصلية، واشتغل تسعًا وثلاثين سنة من حياته في جمع أشعار الصّوفية وأقوالهم بعدها، لم أقابله من بعد مغادرتي «نيسابور».

و قد روى في «اشترنامه» أنّه رأى النّبي في أحد أحلامه وأنّ النّبي باركه، كما روى لي قبل ذلك، ومن كتبه المتأخّرة كتاب اسمه «مظهر العجائب»؛ عن منظومة في مدح «علي بن أبي طالب»، وإن بدت الميول الشيعيّة في هذه المنظومة غالبةً.

لذا؛ كان نشره لهذه المنظومة دافعًا لبثّ رُوح الغضب والتعصّب لدى أحد الفقهاء السّنيين من أهل « سمرقند»، إذ أمر بإحراق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وَقفيّة الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

نسختها، بل واتّهم «العطّار» بالإلحاد وأنّه مستحقٌّ للموت والإعدام.

ثم أمعن في الكيد له فاتّهمه بالكفر لدى «بُراق التركماني»، وحرّض العامّة على هدم منزله والإغارة على أمتعته، واضطرّ «العطّار» بعد ذلك إلى أن يرحل ويلجأ إلى «مكة» -كما اضطُررنا بحجّة الحجّ- حيث ألّف كتابه الأخير «لسان الغيب».

لكنّي نحوت لحفظ الشّعر بأنواعِه، وتوغّلت في أنواعِ العلوم، أهمّها «فقِه الحنفية»، وكان هذا بمباركة أبي.

لاحظ الجميع في «نيسابور» براعتي واهتمامي بالعلوم الإسلامية، فرُحتّ أدرّس في إحدى المدارس، آمنت بتعاليم الإسلام السّمحة، واستطعت اجتذاب أناس من ديانات وملل أخرى، إذ استراحوا لتفكيري المرن المتسامح، فالكلّ على حدٍّ سواء، إن كان مسلمًا أم مسيحيًا أم يهوديًا، الإسلام نفسه منحنا مرونة التّساهل مع جميع المعتقدات الأخرى، وإن كان لابدّ، فلنعلّل المسائل بتعليلٍ إيجابي يرقى بالفِكر الإسلامي التنويري، وإن كنّا نؤمن بالإسلام، فنحن نؤمن أيضًا بكلّ الدّيانات السّماوية، حيث إنّ كل مفاهيمها لا تتعارض مع إيماننا بالإسلام في حدّ ذاته.

قال لي مسيحيٌ ذات يومٍ:

- لقد رأينا المسيح عبرَك يا مولانا.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فردّ عليه يهوديٌّ:

- ولعلّنا رأينا «موسى» أيضًا.

فردّد بعض التلاميذ المسلمين:

- لقد التقى الأنبياء جميعًا على راحةِ يدِك.

وفي رحلتي مع العلم، ارتحلت مع المعاني الإلهية، الإنسان أعظم من خلق الله، قادر على التّواصل مع كلّ مفردات الكون، خلاف المخلوقات الأخرى، ما الذي يميّزنا عن الجبل أو الشّجرة أو الطّير؟ اللّغة. وهبنا الله خاصيّة اللّغة، التي ينبغي أن نحصّنها بالمعرفة والتشبّع، بل وأن نحملها على كواهلنا ونسلّمها للأجيال المتتابعة.

وإنّما سياق الألم لا يفارقنا، ففي هذا العام، اجتاح التتار «نيسابور»، وكنّا قد استرحنا إلى أنّ نزيف الحرب سيتوقّف، لكن لا جدوى، في صباح غائم، استيقظنا على ضرب المنجنيق، رأينا الأسوار تتهدّم، والأشلاء تحلّق، والأبنية تتهاوى، رأينا الحرائق تشتعل والأناس يفرّون مشتعلين من داخل بيوتهم، رأينا الجنون يعصف بالمدينة، كلّ شيء بدا يتداعى في لحظة، كلّ شيء عافرنا لأجله وتحمّلنا، حطّموا المدارس والجوامع والآثار، كأنّما يسكُنهم غلٌّ وانتقامٌ وحقدٌ تاريخيٌّ لم يفهم أحدٌ كيف نشأ! دخلوا على البيوت يحشّون الرؤوس بسيوفهم، ويهتكون النّساء، وبخيولهم يدهسون الأطفال، إنّ العالم في حدّ ذاته بدا متآمرًا علينا، العالم والتّاريخ والقدر، مصائر مدائن بأكملها تتساوى مع عدمية الصّفر.

من «نيسابور» هاجرنا ثانية، ارتحلنا إلى «سوريّة»، ثمّ لم يستطب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لنا المقام فارتحلنا إلى «مكّة المكرّمة» بدافع الحجّ، باشرنا طقوس الحجّ ولكنّنا كنّا على حدّ الكفاف، إذ لم يتيسّر لنا العمل، فواصلنا المسير إلى غرب «الأناضول»، وقرّر أبي أن يستقرّ في «كارامان» حيث اشتغل مدرّسًا لعلوم الفِقه.

لكن حالنا أخذت تنحدر للأسوأ، أدرك المرض طريقه إلى جسم أمّي، فبدأت في الوهن، كان المرض يفتك بجسمها سريعًا، بلا هوادة، وفي ليلةٍ من تلك الليالي التي كان ينبغي أن تسترسل في حكاياتها عن المُدن البعيدة، أغلقت عينيها، ولم تفتحهما ثانية.

في تلك اللّيلة تشاجرت مع الله، أصابني جنونٌ وانفصامٌ وحنقٌ، صعدت إلى سطح البيت ومددت رأسي ليراني، صحت به:

- أما كفاك!

لكنّه بدا لم يسمعني، تطاولت أكثر فأكثر، صرخت:

- ضاع كلّ شيء بسبب قدرك!

وإنّما كانت السّماء راسخة فوقي بلا معنى، ولا كأنّ راوية الحكايات المُلهمة قد أفلت، ولا كأنّ لها ابنًا سيحترق كمدًا، ولا كأنّ الله خلق هذه المُدن التي أهرقها الطُغيان والذّل.

من شدّة صراخي، بُحّ صوتي، فانهرت، دفنت رأسي بين ركبتيّ، وانطلقت في البكاء، هل هذا هو البكاء الصّادق يا الله؟ هل كلّ هذه الدّموع الحبيسة كفيلة بترجمة الأسى والحسرة اللذين يحاصرانني وينخران في قلبي المضطرب الآن؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أغثني فإنّي هزمتني الجُروح.

على إثر موت أمّي، ذبُل أبي، بدا لا يريد أن يُباشر طبائع الحياة، إذ انزوى، وانبرى يُناجي الشّخوص الغائبة قسرًا، يخاطب «بلخ» الضائعة، و «خوارزم» التي شاهت بِفعل الغُزاة، يخاطب أمّي التي رحلت دون بادرة، وتركته وحيدًا يناضل لأجل أن يستهدفه الموت بدورِه.

لكنّه استمسك بقراءة القرآن، وكان يقضي ردحًا من اللّيل يصلّي، ويناجي أمّي بتضرّع، وتبتلّ لحيتَه بالدّموع، وكنت أراقبه من وراء حشاش النّافذة، وأظلّ أبكي مثلما يبكي، لا يكاد يشعر بنا أحد يا أبي في ظلّ غيبة الوطن، تتقطّع سُبل وثاقنا بالعالم شيئًا فشيئًا.

بعد رحيلِ أمّي بما يناهز العام، ارتحلنا ثانية، كانت «المدرسة المستنصريّة» قد أرسلت لأبي رسولًا بخطابٍ يدعوه للتدريس هناك في «بغداد»، وسيتكفّل كبير المدرسة بإقامتِه.

خرجنا من «كارامان» لا نلوي على بُغية، كان أبي قد بدا استوطنه التّيه من بعد أمّي، وضربته النّحافة فبرزت عظام وجهه، وشدّ ما أدركنا أوجه التباين بين المذاهب الدّراسية عند وصولنا إلى «المدرسة المستنصرية» ومباشرة التدريس بها، كان التلاميذ نابهين وعندهم القدرة على استشفاف الملابسات وتفنيد المسائل وردّها إلى أصولها واستخلاصها من علّاتها.

نزلنا في «المدرسة المستنصرية» وأقمنا في دورٍ بالطّابق الثّاني، يُشرِف على باحة المدرسة، كُنت أصحو تخالجني ذكريات أمدٍ قريبٍ،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وتخامـرني حكايـات أمّي عن «المسيخ» و «الرّايات السّـود»، فأجدني أنـصرف إلى ضحـكٍ دون دافعٍ، وتتواتـر أمام بصري صـور الأحداث جميعهـا، كأنّـما كانـت بالأمس، يجيـش البصر بغبـار الأحصنـة وتناحر السّـيوف وصليل السّـيوف، فيباغتني الأسـى، كالعادة.

تمـرّ الأيّام، وتهـون الخطـوب رويدًا، ويشـفّ طيف أمّـي الرقراق في عينـيّ يومًـا من بعـد يوم، وبعـد أن كان الأسـى باتت السّـكينة، حيث دامـت أمّي تـزورني لتيسّر عليّ مشـاق الحيـاة ووعـرة أحداثها.

أجلـس في شرفتـي المطلّـة عـلى الباحـة الواسـعة الظليلـة بأشـجار «اللالنكـي» و «الرارنـج»، تُقبـل الرّوائـح فتعمـر جنبـات الـرّوح، وعـلى كـرسي من خيـزران في قلب الباحـة يجلس عـازفٌ، يضرب على الوتـر في حمـاسٍ وفي انبسـاط، يطلع النّغـم طيّعًا يمسّ شـغاف الفؤاد، أغمـض عينيّ وأسـلّم نفسي للنّغم، يطربني ويربّت عـلى خفايا الرّوح، أتمايـل معـه وأروح، أدندن، وأنا أرشـف من فنجـال «الزنجبيل» بروية واسـتمتاع، والعـازف في عُمـق الباحـة يـضرب الوتـر بشـجنٍ أكـبر، وعـزمٍ أصلـه ذوبـان في مناحي اللّحـن، وفي مجاهـل النّغم.

وكان أبي يسـتنفد دروسـه مـع التلاميـذ في رتابـةٍ وفي غـير ارتيـاحٍ أو التـزامٍ، وبـدا لا يـود أن يسـتكمل الطّريـق في أروقـة «المدرسـة المسـتنصرية»، قـال لي في يـومٍ:

– أما آن أن نستكمل رحلتنا؟!

فقلت في دهشةٍ:

– بعدما طاب لنا المستقرّ ها هنا يا أبي..!

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

- إنّما نفسي لا تتواءم والمكان.

- هنا يقدّرونك يا أبي ويحتفون بعلمك ومعرفتك.

- ثمّة هاجس بداخلي يا بُني.

- «بغداد» أرضُ علمٍ وأمان يا والدي.

- وكم من أرضٍ آمنةٍ خذلتنا وبدّدت مصائرنا..!

ولم نستقرّ في «بغداد» مدّة طويلة، أصرّ أبي على الرّحيل رغم تمسّك كبير «المدرسة المستنصريّة» به، بل إنّه عرض عليه عروضًا مجزية، وقال له صراحة:

- يا شيخ «بهاء»، «المستنصريّة» في حاجة لعلمك.

- أمر الله يا مولانا.

ومع رحيل خيوط شمس المغربية، كانت قافلتنا ترحل عن «بغداد»، ولم يكن أبي ليأسى على فراقها كثيرًا.

كلّما أخذنا نمضي بعيدًا عن «بغداد»، تضخّ فيه الحياة أنفاسها، وقلت في سرّي: ما أغرب أبي! لا يرسو به الزّمن على برٍّ آمن.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

محمّد بن ملك داد التبريزي

حلب/ سوريّة -٦٢٤ هـ

(قالوا: إنّ النّجاة في الصّدقِ، لكنّك لا تستطيعُ أن تقول الصّدق للنّساء لأنّهنّ يُفضّلن الكذب).

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ومساءً، تكون الدنيا مغسولةً بالسّكينة، نمشي وراء ظلال الأشجار تحت إنارة القمر المتسربلة، تنفتح علينا شبابيكُ الوجد من السّماء فرحة، نخرج مِن أجسادنا التي تقيّدنا ونطير، ولا ندنو من السّحابات أكثر ممّا يستلزم، حتّى لا تبتل أرواحُنا يا «كيميا»، نطلّ على العالم الرتيب ونُخرج له ألسنتَنا، لن نكتفي بك أيّها العالم!

ستصحبنا هتافاتُ الأولادِ الذين يلهون في الطرقات: (لا تعودا.. لا تعودا.. السّماء أحلى كثيرًا)، وفي الليالي التي يكون فيها البدرُ منتشيًا، والدّنيا تلمع في أملٍ يشعّ على البشر أجمعين، نتساحب وراء التماهي اللذيذ، لا يهمّنا أن نكون غيرَنا، غير هذا الحبّ الفائض فوق الكون، فانبتيني يا «كيميا» كغصنٍ من شجرةٍ وارفة في الجنّة، وربّما.. ربّما يا حبيبتي.. سأتحوّل إلى عود قرنفلٍ حين يجِن اللّيل.

لم نكن نخرج إلى الشّوارع كثيرًا، إلاّ عندما ينتابنا هاجس المعايشة، أن نرى الوجوهَ ونتصفحّها، رغم أنّنا لم نكن في حاجةٍ حقيقية لذلك، صَنَعنا لنا عالمًا مغلقًا علينا نحن الاثنين، اختصرنا كلّ الحياة بالخارج هناك في هذه التّكية الضّيقة التي منحها لي مولاي بطيبِ خاطرٍ.

وكنتُ دومًا أحسّ أنّ «كيميا» هي نهاية وحشةِ الاغتراب التي عشتُ فيها مِن قبل، بل في الحقيقة كانت أمثولة تصوّر عشقي الأكبر؛ عشق الله، كأنّ الله قد تجلّى وسكن «كيميا»، وكانت ترى الأشباح والأرواح وتكلّمهم، ولها هبةٌ في استبطان جوانب الرُّوح، وعادت الرؤى تتكشّف لي في منامي بهيّة ناصعة، رأيت الغيب ورأيت الله وسهرت في معيّة الملائكة، وكانت «كيميا» حين تفتح

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عينيها بعد عصر كلّ يوم؛ وغالبًا ما يحدث وأنا محتضنٌ إيّاها على سرير واحد، ثم تَبقى لوهلةٍ تستدرك الخط الواهي بين الاستيقاظ والغفو، تلك اللّحظة التي إمّا تفرك فيها عينيها بجذل وإمّا تعاود النومَ مجدّدًا في شهيةٍ لم تكن معتادة من ذي قبل، أحسّ وكأنّها زهرةٌ تتمطّى للحياة، تُشبع فيّ كلّ خلجات شهوة المراقبة، تتلوّى بجواري في كسلٍ، أدفعها بقدمي مداعبًا فتنتفض وتنطّ عاليًا مِن على السّرير ثم تنقّض عليّ بالوسادة، وتهتف: درويشٌ مزعِج!

تُسرع إلى الحَمّام، وقبل أن تغلق وراءها البابَ تجذني وثبتُ معها للدّاخل، نتعرّى معًا في خفةٍ وانتشاء، ينسكب الماء الفاتر على جسدينا فيخفّف ألم الإحساس بكلّ ما يحيط بنا، أتساءل كيف يمكن لأجسادنا أن تكون بمثل هذه المرونة الفجائية؟ أن تتحرّر بمجرّد أن يزاولها الجنون؟ وهل في ظلّ المتناقضات التي تمرّ على أجسامنا مِن مسراتٍ وملذات أيّ ضعف؟

كانت محقّةً «كيميا»، فأصغر اختيارٍ يمكنه أن يؤكّد أنّنا متمسّكان بالوجود، هو التوّحد بيني وبينها، تقول كلّما تعثرّنا بالبلادة والخمول أكثر كلّما تاقت أجسادُنا لنزوة التغيير، وأقول يا «كيميا».. يا صغيرتي الجميلة.. لا نزوة في تجربة التغيير.. كلّ ما هنالك أنّنا وقعنا على أهم حقيقة في حياة كلّ منّا.. وهي أنّ العشقَ لا يجيء مصادفة.. القدَرُ يرتّب ويهيئ ويفرض علينا هذه الحقيقةَ بلا إرادة.

ننتعش في أوقات، ويصيبنا الشّرودُ في أخرى، تتواطأ الأمزجةُ بطبيعة الحال مع كلّ إحساسٍ لم يُجرّب عن وعي أو استباق، يستولي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

علينا هدوءُ المساء وسكينة فناء بيت مولاي، الغافي في وداعة، تقول «كيميا»:

- مذاقُك كمذاق البخور.

- ومذاقك كمذاق دمعة من عينِ الله إن بكى عاشقًا يموت.

فتضحك في صفاءٍ وسعادة، تسند رأسَها على فخذي، فأمسّد شَعرَها بأصابعي، وأهمِهم في دلال:

- فقدت وجهتي إذ رأيتك أوّل مرّة يا أيقونتي، واليوم اكتشفتها من جديد.

فتقبض على يدي وتسبل جفنيها وتتنهّد، كيف كان لي أن أعرف أنّ روحي تفتقد كلّ هذا الكمّ الهائل من الحيويّة؟ لم أكن أدري أنّ الحماسَ له سكّة داخل نفسي، بعد أن كدتُ أتعثّر في جميع المنغصّات القديمة، وكنتُ أتعامل مع كلّ ما يؤرقني وكأنّي لا أراه، بل لا أرغب بأيّة حال في رؤيته، المجنون صار اليوم عاشقًا أزليًا، فرغت الدّنيا الآن إلاّ منّي ومِن «كيميا»، وقلبي راح يُثمِر عن الوجد مِن جديد، وشَعر «كيميا» المبتّل يسرح فوق فخذي ويدغدغ الحيل، آه يا حبيبتي، الألوان تغزو الحياةَ مرّةً أخرى، كلّ المَشاهد الرّمادية تلاشت، كم حكايةٍ من قبلُ صغتُها ولم أؤمِن بها! الآنَ هذا الفرح الذي ينمو بداخل قلبينا يجعلني أؤمِن بك يا «كيميا»، أؤمِن أنّ الأجسادَ مجرّد مجازٍ في الحياة، الأرواحُ هي ما يبقى مِن المطحنة الشّقية، لنصوغ حكايتنا معًا، ولنجسّدها معًا، ودَعيني لأول مرّة في عمري أتمكّن مِن إتمام حكاية وفقًا لرغبتي الكامنة في أبعد حدود الخيال، دَعي رغبتي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تتّسع وتتجدّد، ولأكُن سيّدَ موقفي في زمن نبتاعه معًا رغم الظّلام الذي قد يكتنف الحكاية، كلّ ظلال التّاريخ ستسكننا يا «كيميا»، وسينبع نورُ اليقين مِن داخلنا عمّا قريب.

العِشق معناه مكتملٌ لديكِ يا حبيبتي.

❋ ❋ ❋

أزواج من العشّاق كانوا قد بدؤوا في التلاقي أسفلَ المظلات الخشبية التي تستر غرامَهم بودٍ وتشجيع في حديقة الشّارع قبالتي، استغربتُ من الأحبّة الذين يفتتحون يومَهم بتفريغ شحنات الشّوق التي باتوا ليلَهم يختزنونها داخل القلوب، لم تكن السّاعةُ قد تأخّرت بعد، إنّما كلّ شيء كان وديعًا رغم اللّغط والصخب، كلّ شيء هنا وكأنّه رُتّب ترتيباً عفويًا، دون مساس بهندام اليوم الذي في الغالب لا يختّل، جستُ فيها بعينَيّ، بدت كأنّها تشعر بوحدةٍ امتلكت ملامحَها، ولها أشهر على هذه الحال، أوجعني ذلك، أيّ وحدةٍ هذه التي تشعر بها وأنا جوارَها! لكن هل أكفي لسدّ ذلك الإحساس؟ إنْ كنتِ تشعرين بالوحدة يا «كيميا» فذلك سينقضي عمّا قريب، ألمْ تدركي حجمَ المخاطرةِ حين خاطرتِ مع درويشٍ مثلي؟ لا شيءَ يأتي بسهولة؟ خاصة المغامرة، وطالما فعلتِ فاستمرّي، ولا يُحبطكِ خوفٌ أو حزن.

رحت ببصري نحو الحديقة ثانية، شعرتُ بدوارٍ مستحَب وأنا أستنشق العطورَ المنبعثة من مساحات الزّهور، يقينًا نحن نشبه هذه الزّهور، نحن واهنون، لكنّنا لم نزل نعرف معنى البراءة ونترك أنفسنا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

للحيـاة تعبث بنا متى تشـاء.

اقتربـتْ مِنّـي «كيميـا»، وفي ودّ مفاجـئ تطلّعـتْ نحـوي بعينيها ثم جذبتني لنتوارى خلف سِـتار الشّرفـة، تطلّعتْ لي بنظرةٍ تطلب الكثير، أهمّـه الأمـان، وبجـرأةٍ مـن دون مقدّمـات حطّـت بيدِها فـوق رأسي، وتوسّـدت رأسـها كتفـي، وانطلقت في نحيـبٍ خافت، كانـت كلماتُها خارجـةً مسـقيةً بالدّموع وهـي تقول:

- رائحة غريبة.. هل تعرف ما هي تلك الرّائحة؟

وتنشّقت الهواءَ وهي مغمضة العينين.

أمّـا أنا فـشردتُ، أحسسـت أنّي هشّ للغايـة، تمامًا كهذه الفراشـات التـي تحوم حول بسـاتين الـورود في الحديقـة، كومضاتٍ مـن ذكريات مؤجلـة، تأبى مفارقةَ الخاطـر رغم أنّه لا يستسـيغها، أكملتْ «كيميا» بصوتٍ مشروخٍ:

- رائحة طفلٍ ضنّ علينا الله به.

ضممتُها برفق إليّ أكثر، ودموعها السّـاخنة تلسـع رقبتي، أحسسـتُ حيالهـا بعطـف مـن نـوع غريـب، وكأنّهـا وُلِـدتْ عـلى يـدي، أو كأنّنا خرجنـا للتـوّ مـن بطـنٍ واحـدةٍ كتوأميْن يشـقّ عليهـما الانفصـال ولو للحظة.

مـا مأسـاتُنا في الحقيقةِ يـا حبيبتي؟ ما الـذي يقف حائـلًا بينك وبين الفضّ؟

تنهّدت، راح عقلي ينبش في التداعيات، انصرفتُ بسرعةٍ إلى نفسي،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كأنّما الوجع واحد، جعلتُ أتساءل ما الذي ينقصني بالفعل؟ طفلٌ؟ ما جدوى الحياة نفسِها إنْ كانت لا تُعيرُنا فرحة؟ لكن ما علاقةُ كلّ هذه التّساؤلات بمشهدِ الصّبي الصّغير الذي يسير بين الحقول يُلهبه أديم العِشق؟ يسير في الطّين وتحت حرارة الشّمس، وكأنّ العالمَ يختزل طموحاتِه في طريق العِشق كلّ يوم!

تأمّلتُ كثيرًا في ضعفِها واحتباس الألم داخل حلقها، وفي وجعي، فهمستُ لها بصوت خفيض وأنا أمسح جبينَها بأناملي:

- لو أنّنا نغادر لحياة غير هذه..!

* * *

كانت تراودني الرؤى، إنّما كانت أشبه بالكوابيس، حدّ أنّي كنت أصحو مفزوعًا أصرخ كأنّي ممسوس.

في ليلة راحت مشاهد العالم القديم تدور في رأسي، أسلمت نفسي للنّوم، وفي نومي وجدت ريحًا تقبض على عينيّ، كانت جفوني أضعف من أن تنفتح وتهبني الرّؤية، ظللت أشاكس بيديّ يمنة ويسرة، دون جدوى، أركل كلّ شيء من حولي لعلّي أرى، فلا أرى، ثمّ يظهر بوجهه الساطع؛ شيخٌ كبير، أبيضُ الوجه وفضيُّ الشّعر، ما أشبهه بمولاي «ركن الدّين»!

يمدّ لي ذراعه بقطعة قماش رائحتُها مسك، ويقول لي:

- هذا قميص النّبي.

- عليه الصّلاة والسّلام.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أتناول القميص بغبطة بها شيء من الرّهبة، فتنقشع الغيوم، وتتبدّد الرّيح، وأفتح عينيّ، وأرى هذا البستان الذي لا آخر له.

ثمّ استيقظتُ، وبدت روحي مثل ينبوعِ ماءٍ انفجر توًّا.

دعكت عينيّ وتثاءبت، يا له من حلم! رائحة المسك لا تزال ساكنة أنفي، قلت: لعلّه خير.

استيقظتُ وكانت «كيميا» لم تستيقظ بعد.

سُكنت مؤخّرًا بحلمِ أن يكون لي ولدٌ يعينني على مسارب الدّنيا، وأحيانًا؛ كنت أنفُث من صدري دخان الغضب تجاه «كيميا» بداعٍ أو بدون داع، كنت أعلم أنّ غضبي على كلّ الأشياء التي لا تدعو للغضب زاد مؤخرًا، ومن داخلي أعرف تمامًا أنّ الثّورة ليست لأسباب كتلك، لعلّه الحرمان بالفعل، لي أكثر من خمسة أعوامٍ متزوج ولم تنجب «كيميا»، الأطبّة حيّرهم أمرنا، أنا سليم وهي سليمة ومشيئة الله أكبر من العلّة وأكبر من شفائها.

اقترضت من مولاي مالًا للأطبّاء دون جدوى، دُرنا على كلّ مشايخ وعطّاري وأئمةِ «حلب» بلا طائل، والحقيقة أنّ «كيميا» كانت محبّة، ودامت تصبر على عشرتي.

قال لي مولاي:

– لا تؤخذ الأمور عنوة يا «شمس»، ولا يُمكن للقدرِ أن يتبدّل لمجرّد الرّغبة، إن قال الله كُن كان يا بُني.

نور الصّباح يثب إلى الصّالة حين تفتح «كيميا» النّافذة، نور

This file was downloaded from QuranicThought.com

الصّباح يخمش عينيّ.

آه، لكـم تبـدو لـه الأشـياء قديمـة! تبـدو وكأنّها أسـفل طبقـات من الـتّراب، «كيميـا» كذلـك تبدو قديمـة، يعتليها الغبـار، وأنـا؛ أنظر إلى نفـسي، أحسسـت أنّي أبـدو قديمًا.

وماذا بعد العِشق يا حبيبتي؟

الملـل؛ هـذا الملـل، ينـشر طـلاءه فـوق الجـدران، يـضرب جـذوره داخـل أعماق نفسي، الملل يسـكنني، ويسـكن «كيميا»، ويسـكن حتّى كلّ زوايـا البيت.

أدخـل إلى غرفـة النّـوم، أحـاول إلهاء نفـسي بالبحث عن أيّـة تسرية، أو ربّـما نمـت ثانية، لا بـأس من تكرار تفاصيل اليـوم، إنّما الغرفة، حين أدفـع بيدي بابها، تحتضنني، حضنًـا غريبًا، الغرفة؛ مالهـا دافئة مثل هذا الـدّفء! تّـرى، لم يختلـج فـؤادي بإحسـاس طمأنينـة مبهمـة! ورائحة المسـك هـذه كأنّها من الحلـم خرجت لتعبـق واقعي!

نـورٌ يـضيء الغرفـة كنـت أحسـبه شـمعة المصبـاح، فلـمّا جسـت تفاصيلهـا، ودنوت من فراشي، وجدتُ النّور مشـعًّا مـن هناك، دقّقت عـلى فـراشي النّظر وتسـمّرت، لم أر نـورًا كهذا من قبل، ثـم حين خرج صـوتي بعد قليـل، خـرج عاليًا، فرحًـا، مناديًا عـلى «كيميـا»، هرولتْ فزعـة فشـددتها من يدهـا وأشرت نحـو الفـراش وهتفت:

- اُنظري.. قميص النّبي!

«كيميا» ابتسمت ابتسامة كأنّما تتّهمني بالخرف، ثم أخذت تحدّق

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في الفراش وقالت:

- قميص جميل، متى اشتريته؟

- قلت لكِ هذا قميص النّبي.

- كما تشاء، واضح أنّك عُدت للدروشة يا «شمس».

ضحكت متدلّلة، ثم خرجت وهي تهزّ كتفيها، كيف لا تصدّقني؟ أثق أنّ هذا هو قميص النّبي، لقد أعطاه لي الشّيخ في الحلم، نفس القميص، برائحته، يا لهذا الإحساس! قميص النّبي على فراشي! الغرفة أضيق من فرحتي، وددت لو أحلّق بالقميص بعيدًا، سحبت إلى صدري كلّ هواء الحياة، وتخيّلتني مرفرفًا بجناحين يلبسان قميص النّبي، أطير فوق آلاف السّنين وأجاوز الزّمن، كلّ هذا النّور في قميص النّبي، تُرى: كيف كان نورك يا نبيّ؟

كانت الأيام تتوالى والقميص بضيائه المبهر ورائحة المسك مطبّق فوق رفّ وحيد في الدّولاب، كنت هائمًا في نور القميص، لعلّ «كيميا» أيقنت بخفّة عقلي، اعتزلتُ داخل غرفتي سارحًا في ملكوت القميص، إنّما النّفس؛ هذه التي تهفو دومًا -بشكل يتعسّر قبالته المقاومة- إلى السّمو، حرضتني، فيومها، قرّرت خوض التّجربة، سأرتدي القميص، فقط للحظات قليلة، لابدّ أن أرتوي من هذا النّبع الصّافي ولو لبعض الوقت، لابدّ وأن أشعر بهذا الملمس الربّاني الرّوحاني على جسدي.

توضّأت، ووقفتُ كثيرًا أمام المرآة أتساءل:

- هل أنا مهيّأ لارتداء قميص النّبي؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أمسكته، الملائكة تفرده وتمسك يديّ وتضعهما برفق داخل كمّي القميص، يدًا يدًا، جدران الغرفة تتباعد وتتباعد ويحتويني هذا النّور المدهش، برودة منعشة تسري في الجو، رائحة المسك تتغيّر، رائحة المسك تختلط في أنفي بروائح أخرى لا مثيل لها على هذه الأرض، بخورٌ يتراقص دخانه في الهواء، ملائكة تصفّق بأجنحتها في الأفق، والهواء ذاته يبدو لي ريحًا هادئة هادئة تحمل نفسي إلى بدايات زمن الصّفاء، قبل الحروب وأوبئة الحروب، قبل انكسارات النّفوس، فأصرخ منتشيًا، أجري في السّماء بين البساتين الخضراء وبين حقول الوجد، وأجري، العالم يدور وتتبدّى لي غياهب عقلي المظلم، عقلي الآن بريء من هذه الدّنيا، عقلي معك يا رسول الله.

أتنهّد، أنفاسي المتلاحقة تنخفض حدّتها حين أخلع القميص، أخلعه بصعوبة ومشقّة على نفسي، إذ ما كان يجوز له ارتداؤه من الأساس، نفسي أمرتني وتبعتها مخدرًا هائمًا، غائبًا عن دنيا الإنسان، الرّغبة في تجربة القميص كانت أقوى من الرّفض، سامحني يا رسول الله.

ألتقط أنفاسي المتسارعة، أدور برأسي حولي وأتحسّس الزّهور النابتة في كلّ مكان.

ثمّ لم أعد أحتاج من الدّنيا غير هذه اللّحظات القليلة التي أقضيها مع قميص النّبي، هذه اللحظات القليلة المختلسة، أطلب بعدها دائمًا المغفرة والسّماح، لحظات فيها زرت الكعبة وطفت في رحاب النّبي، فيها دخلت الجنّة وقابلت أهلها، فيها جالست الأحبّة في مجالسٍ لا

This file was downloaded from QuranicThought.com

شبيه لها في كوننا هذا، مجالس روعتها تدبّب الأدمغة وتحوّلها إلى أسطح ملساء ناعمة بيضاء، تحوّلها إلى مادة سلسة التّكوين، والتّشكيل، مادة تكتب عليها الملائكة بحروفٍ من نور، لفظ الجلالة، فأكبّر، وأصيح بصوت عالٍ:

- عفوك يا معشوقي.

والأحبّة يرددون خلفي الدّعاء، والبخور، لا يبدو دخانًا له لون ورائحة عذبة تحتوى الأنوف، بقدر ما بدا لي رحيقًا من حدائق الجنة، في هذه اللحظات القليلة بركة، بركة أن أعلو بروحي فوق كلّ شيء، كلّ شيء، وأن أجاور أحباب الله في المساجد، وأن أرضى بما قُدّر لي من الحياة.

وأن تبلغني «كيميا» -بعد فقدي الأمل- خبر حملها.

***

الأشهر التّسع لا تريد الذّهاب، أشهر ثقيلة بطيئة تقلقل كياني، قلت لـــ «كيميا»:

- إذا جاء ولد أسميته «محمّدًا» وإذا جاءت بنت أسميتها «فاطمة».

وكنت لا أرتدي قميص النّبي سوى في المنزل، إذ كنت أخشى أن أظهر به للنّاس، كان سرًّا خاصًا بي فقط، أخشى أن يغضب منّي رسول الله، الأمانة أمانة، وربّما كان ثمّة نوع من الفضول حين ارتديت القميص منذ البداية، ولكنّه فضول مشروع، مسموح به.

مع الوقت، بيتي أصبح جنّتي، هذه التي أعيش فيها مع زوجتي

This file was downloaded from QuranicThought.com

ولا أبغي سـواها جنّة، وحـين دنا موعد الوضع، جئـت لهذا الصّغير القـادم إلى جنّتـي بـكلّ مـا قـد يلزمـه، ومـلأت الجنّـة لعبًـا وهدومًـا وحلـوى، وكنـت إذ أرتـدي القميـص أرفـع رأسي إلى أعـلى مسبّحًا وأغيـب، تمامًا.

كان صراخ «كيميـا» مـن داخـل غرفة الطّلـق يأتيني منهـكًا، معذبًا، والوقـت يمـرّ بشـقّ الأنفـس، سـاعات انقضـت ومـا زالـت داخـل الغرفة.

كم تمنّيت أن أكون حاملًا الآن على كتفيّ قميص النّبي!

أجـوب البيـت جيئـة وذهابًـا، مـولاي يربّـت عـلى كتفـي، ووجهه يعتريـه القلق، مثلي تمامًـا، صراخ «كيميا» يخفت، فلابـدّ ها هو الصغير آتٍ إلى جنّتي.

ثـمّ يربّـت على كتفي الوجه السّـاطع الأبيض فضيّ الشّـعر فأنتبه، إنّما الشّـيخ يختفي، رجل الحلم هـذا ما به!

تخرج القابلة، أهرع نحوها:

- طمئنيني.

- عوّضك الله خيرًا.

- ماذا!

- الطّفل ولد ميتًا.

لحظـة من سـكوت تهبـط على وجهـي، طرقـات البيت تميـد بي، غير أنّي أجـري خلف القابلة وأسـألها:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

- أكان ولدًا؟

- كيف عرفت!

وتتركني وتمضي بعد أن ينقدها مولاي أجرها، أقف قليلًا ثم أتقدّم داخل الغرفة، يحتويني عطر المسك، أقترب من «كيميا»، أجوس بعينيّ خلايا وجهها، بإحساس جديد، وابتسامة جديدة، أحتوى بين كفيّ أناملها الرقيقة، وألثمها على خدها، آثار الجَهد كانت بادية على ملامحها، تتأوّه فينقبض قلبي، أتحسّس ملمس الورود على جبينها وأقول:

- «محمّد» ينتظرنا في الجنّة.

وآويت إلى غرفتي، مددت جسدي على الفراشِ عقب يومٍ عسيرٍ، ووجدتني في لمح البّصر واقفًا في المسافة بين الوعي والغيبِ، رأيت في الحُلمِ ولدًا من الأمواج اسمه «بحر»، ورأيت الموجَ امرأةً تُشتهى، ورأيت بحرًا وكوخًا وشمسًا بلون القرمز.

* * *

نظرت إلى طفلي المبتسم وحلّقت نحو سقف الكوخ.

في اللّيل، يسكن البحر، وتهدأ نفسي، تتماثل الأشياء، وتذوب تفاصيل الكائنات فتتشابه المعالم.

في اللّيل، أقف طويلًا، تصافح عيناي أكفّ الموج المطمئنّة بين أحضان الظّلام، أتردّد قليلًا قبل أن أعود لكوخي المتفاني في سكونه.

أتأمّل تفاصيل كوخي، ضئيل، يخلو من كلّ مؤثّرات المعيشة،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تحميه من الرّياح أعواد الغاب، تضيئه الشموع، ويضيئه وجهُ طفلي الذي أنجبته لي الأمواج، ظللت أعوامًا، أطارحها غرامي، أراودها، أدخل عالمها، وتأتي مشاعري، كثيفة فيها، أصل إلى ذروة نشوتي، وأنا أختلط بكلّ كيانها، فلأجلها أسكن البحر منذ بعيد، ولأجلها أتفكّك وأصبح أشلاء، أقذف نفسي فوقها، وأتركها لتداعبني وتدغدغ أحاسيسي، فلا أنجو من عشقها إلّا حين ترميني على الشط هائج الأنفاس.

في اللّيل، كلّ المعاني تحدث.

أنسلخ من ملابسي الثقيلة، وأنصرف نحو الأمواج ولهًا، أرتجف وهي تحملني فوقها، من فرط سعادتي ينقبض كلّ الجسد وهمومي تسقط داخلها، فأنساها وأكمل سيري في المياه عاريًا تتحسّس الرّمالُ بطنَ قلبي، تسبح معي، أسبح صوب الضّياء الذي يطلّ في منتصف الحُلم، ينتشر على مدّ العتمة فتنحسر وأظنّ أنّي إلى الجنّة أسبح، أزرع في تربة الأمواج رأسي، وأصبو لجنّة البحر، أنطلق والأسماك وعرائس الماء والجنّ وأرواح البحر والأمواج كلّنا نحو الجنة، فلا نبلغها، ويرمينا البحر ثانية هناك، على هامش الحياة.

منذ سنوات، وقلبي يأمل الولد الذي سأسمّيه بحرًا نسبة إلى جدّه، منذ سنوات وأنا أجلس أمام الأمواج، أتوّسلها أن تمنحني إيّاه، ونغرق معًا في عباب الشّوق، حتّى جاء اليوم الذي استجابت لأمنيتي الأمواج حبيبتي.

وقفت عاجزًا عن وصف فرحتي، وأنا أحمل طفلي من فوق

This file was downloaded from QuranicThought.com

الرّمـال.

كان هـذا الصّبـاح، والشّـمس تُـشرق تداعـب صفحة المـوج، وكان الولـد -ولـدي- ممـدّدًا عـلى حـدود المـوج، أناملـه تتحسّـس ملامحه، ملامحـه ليسـت واضحة، لكن قلبـي اسـتوضحها مبكرًا، إذ شـاهدت عنفـواني فيـه، وأنـا أمسـكه برفـق فيبتسـم في وجهـي، وتجـوس عيناه تفاصيلي في بـكارة.

رفعـت رأسي للسّـماء وشـكرت البحـر الـذي وهبنـي الولـد، ولـد رأيـت وجهـه في صبيحة يـوم يطلّ عليّ من نافـذة في السّـماء فأيقنت أنّ الأمـواج حُبـلى وسـتأتي لي بالولـد قريبًا، بكلّ سـعادة حملتـه وطفت به حـذاء الشّـط لتتفحّصه أمّه جيّـدًا، لقد كان جميلًا، له مزيـجٌ من الألوان في عينيـه يبعـث على الدّهشـة، فعـين لونهـا أزرق، تمامًا كلون عـين أمّه الصـافي، وعـين لونهـا أخـضر، كلون سـعادتي به، وكان شـعره يسـبح بانسـيابية على جبينه.

جميـلًا كان ولـدي، أخشـى عليـه مـن حسـد الكائنات التي تسـكن البحـر معـي، فكرّت أن آخـذه وأرحل بعيدًا، لكنّنـي تراجعت، لم يكن لأمّـه ذنـبٌ في حبّـي له، فهي أيضًـا تحبّه، ربّـما أكثر منّي، كـما أنّ رُوحي دامت تسـكن البحـر، فهل أتركهـا وأمضي؟!

وعنـد كلّ شروق للشّـمس، كنـت أصطحبـه على ذراعـي ونجلس نتحـدّث أنـا وهـو وأمّـه، قـد تشـاركنا الرّياح الحديـث، وقد تشـاركنا أسـماك ملوّنة، تخـرج من البحـر، وتلجـأ لدفـء الشّـمس، صراخ الولد ينثـر عـلى تفاصيل الحيـاة حيـاة، ويُضفي فـوق ملامح اليـوم بصمتي،

This file was downloaded from QuranicThought.com

كنت أقـول لأمّه: ما أجملـه! فترقص فرحًا، وتهـرول نحو أبيها، تفيض بهجـة لمجيئه إلى حياتنا الممتدّة منذ سـنوات جافّة بـلا تعرجات، فتُغرق بهجتُهـا ملابسـنَا وأضحـك، أحمـل ولدنـا وندخـل عالمهـا، وأحـاول مجـدّدًا، وأنـا أحمله عـلى كتفي، بلوغ الجنّـة البعيدة، غير أنّـه، وفي نصف المشـقّة، يلـوّح لي، يتركنـي ويعـود ممسـكًا ضفائـر أمّـه المتموّجـة كأنّه يغيظنـي، فأبتسـم وأعـود أنا الآخـر حيث أشـعر ألاّ جـدوى من بلوغ الجنّـة وحدي.

أتأمّلـه وهـو نائـم، كان لـه ملمـس جسـد أمّـه الشّـفاف، يتنفّـس الرّيـح كـما تتنفّسـها، ويـضرب بذراعيـه جـدران الكـوخ كـما تضرب هـي جـدران الشّـط، ولـدي «بحر» يفيـض، يسـتطيل يومًا بعـد يوم، أرى اسـتطالته بعينـيّ وهـو نائـم، تـسرح قدمـاه صـوب آخـر حدود الكـوخ، تتـماس وأحلامي، لكـن صفات الأمّ تتشـكّل فيـه كذلك مع الأيّـام، إذ كان عنيفًـا في معاملتـه لي، لا يقـدّر خـوفي عليـه، عنيـدًا، لا يكـترث لكلامـي، كنـت أحذّره مـن مرافقـة جدّه لشـطآنٍ بعيـدةٍ، إنّما كان يـضرب بنصائحـي عرض الكـوخ ويمتطـي صهوة الوقـت وراء جـدّه ويختفـي بالأيـام، في هـذه الأثنـاء، أتحيّن أيّـة فرصة للشّـجار مع أمّـه فتقـول لي: أتركه لجدّه يشـتدّ عـوده. فأنهرها صائحًـا: أخاف عليه من جدّه، قد ينسـاه على شـطٍّ. تبتسـم ابتسـامة صافية وتتمتـم: دائمًا ما يعـود أبنـاؤك.. كلّهم.

وأزرع جسـدي في الرّمـال انتظارًا لـه، أقضم أظافر ذهنـي من القلق والتّوتـر، تصطف جـواري عرائس اللّيل القاتمة مواسـية، تقضي العتمة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

معـي، وتفارقنـي في الصّبـاح، رغم غـيرة أمّه منهنّ، التـي تتحوّطني عند شروق الشّـمس لتطمئنني، لكنّني أنتظر، وأنتظـر، يعود والفرحة تستولي عليـه، ويحكى لي عـن عالم آخـر ذهبا وجـدّه إليه، عـالم لم أزره، يحكـي عن النسـاء اللواتي يجبن شـطّهنّ عاريات ويتسـلّقن به أشـجارًا تصـل إلى بوّابـة السـماء، يقول: تصوّر يـا أبي، نصفهن زوجـات جدّي، والأخريـات بناته! تتألّـق عيناه من نشـوة المغامرة وتـزداد الزّرقاء زرقة والخضراء اخـضرارًا، فيجيئنـي وقـت، أسـحب أمّـه داخـل الكوخ، ونجيـش سـويًّا، تتلاقى مشـاعرنا، أرفـع رأسي لأعلى داعيًـا أن يأتيني ولدٌ آخر يشـبهني لا يشـبه الأم ولا الجّد، يهتزّ الكوخ، يفيض إحساسنا ويرفـع كوخي إلى السّـماء، ولمّا ينـصرف عنّي ولدي، يحمـل بين ذراعيه كلّ إخوته، ويشـفط داخله رمال الشّـط، ويكتنز داخـل عينيه زرقة كلّ أجـداده وخضار العـالم، ويعدو نحـو الجنّة، يعدو، ليـس يحفل بقلقي، تتبعـه الأسـماك والعرائـس والأمـواج، ولا يعود، فلا أعلـم هل وصل إليهـا؟ إذ أخـرج أمارس انتظـاري المحتّم، وتمـر السـنوات، وأنا رهين الانتظـار، أتأمّـل تفاصيل الحياة حـولي، كنت وحيدًا، أشـعر ألاّ أمل في رجـوع ولـدي، ولدي الـذي خاض المغامـرة وصولاً للجنّـة، وتركني وحيـدًا عـلى الشّـط، والحياة حـولي جافة بائسـة قبيحـة، وإن كنت فيما ذكـرى قديمـة قـد تمنّيـت تمامًـا، أن أرى الجنّة من خلال عينـي ولدي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كيرا

قونية/ الأناضول -٦٣١ هـ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

كنت أعرف أنّه لا ملائكة على الأرض غيري، وكلّ ما يحدث سلبًا له تفسيرٌ حتمي، أرّقني كثيرًا من ذي قبل التفكير في التفسير، لكنّ مَصْلًا ما، يأتي في وقتٍ ما، تفرضه منظومة الحياة ذاتها، عندما نعاني من التخبّط وعدم الاحتمال، مَصْلًا يجيء في صورة نسيان، عدم اكتراث، أو حتّى في صورةِ زهدٍ عن الحياة نفسها، كم أشعر أنّي هشّة، كفراشةٍ تحوّم حول دائرة من دخان، دائمًا ما يترجرج المدى البعيد أمام بصري في بطء ويهدهدني، تتلاحق بقايا الذّكريات على ذهني كما تتلاحق أنفاسي مصاحبة تلك الذّكريات، أشعر أنّ في الأفق تنتظر ملامحُ السّكينة والاطمئنان، يتناثر من حولي وفي داخلي دقّ الذّكريات، لكن روحي كانت أهمّ، هي التي تتطلّب الإنقاذَ العاجل، هي التي ستبقى لي براءة من عالم مدنّس.

أجل أكره الرجالَ، أكره رائحةَ رغبتِهم، أكره أشياءَ دفَنَها الماضي، ولم أعد أكترث، أرمق قريتَنا وأسخط على حالي، قرية بائسة بؤسًا خرافيًا، كانت قريتنا فرعين شبه متوازييْن للنّهر، يتهاديان في بطء وفي خمول؛ بضع تكتّلات من نبات الحلفاء، وبيوتنا بينهم، ها هنا كلّ صباح ألتقي بالأحلام المطلّة من بعيد، كنت طفلةً تأمل ركوبَ صهوةِ الموج وتنطلق إلى عنان الغد، كنت طفلةً لا تعي معنى النضوج، يتطابق شكل هذا الصباح بشكل كلّ صباح، وأعرف أنّ للجنّة منفذًا قد لا يبين، أبحثُ بعينَيّ عنه في الجوار، بين سباطات النّخل المتدلّية وبين أربطة الشّفق التي تكمّم فم السّماء، كانت شمسُنا تشرق وتغرب دون إبداء استياء، أشعر بالضّجر يلف أعوادَها

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الذّهبيـةَ المغروسـة في لـبّ مـاء الترعتـين، دون مراوغة مسـيرةِ زمنٍ جامـد الوجـه، كنت الوحيـدةَ التـي ينقضي عمرُهـا سُـدَى، حتّى ولو تفرّعـت بي دروب الحيـاة، إنّـما أين هي الحياة إذًا وسـط هـذا الموات؟!

عمـري كلـه أحلامٌ مؤجلـة، تسـافر عيناي مـع الـزّروع الهائمة دون قيْـد بعـد ضفّتـي الفرعـين شرقًـا وغربًـا، أسـاءل نفسي إلامَ أحتـاج حقيقـة؟ هل أحتـاج إلى الخروج من تلـك الدّائرة المرهقـة إلى العالم؟ أم أحتـاج إلى التقوقـع والرّضا بالواقع؟ لكـن كلّ شيء يدعوني للخروج، كلّـما ضمـر بداخـلي حُلـمٌ نَبَتَ آخـر، كلّـما حطّـت عيناي عـلى المدى شـدّني نـداءُ الرحيل، ارحلي.. ارحـلي.. ليس هذا مكانَـك ولا زمانَك، ليـس يبقى مـن المرء غـير التمـرّد والإبـاء، فارحـلي لدنيا غيرِ هـذه، لا تحصري ملكوتَـك في هـذا المجتمع.

تبـدو حـوافُ الأفـق البعيـد متعرّجةً عابسـة، يتشـبّع الهـواء برطوبة تكتـم الأنفـاس، وتبـزغ تشـكيلاتٌ مـن الطّيـور مـن قلـب نقطة على الحـدّ الواصـل ما بـين الأرض والسّـماء، لكنّها سرعـان ما تحلّـق عاليًا وكأنّهـا تزيـح عـن كواهلهـا عـبءَ النّهـار، تطـير نحـو الفضـاء تختال بتحرّرهـا، تهاجر إلى مـكانٍ أكثر راحـة، تقترض عقلي وتخيـلاتي، أطير معهـا في الجمـع بجناحيْن من سـعادة، أعانق صفاءَ الأفق واسـترخاءَه، أرى قريتـي مجـرّدَ فجـوةٍ معتِمـة في بـراح الدّنيـا، فجـوة تتضـاءل كلّما حلّقـتُ مبتعدة، شـظايا المشـاهد الملقاة تحتـي كبقايا من خيالٍ اسـتعاد تأنقـه، أودّعهـا بنظـرةٍ متألقـة، وأمخر عبـابَ الهـواء العليـل وجناحاي يرفرفـان بوداعةٍ واسـتكانة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أعـدو وراء الصّبيـة والفتيـات، نتجمّع عـلى ضفّةِ النّهـر، يكبّون عليّ مـن ماء النّهـر، لكنّي أسـبّهم جميعًا، فيقـول أحدهم:

- الماء لعلّه يطفئ نار الكُفر.

ويرفع سـاعديه يضمّهما ليشـكّل بهما صليبًا، يعبس وجهي، فلسـت أفهـم، يتبادلـون الضّحكَ السّـاخر، أفطن أنّهـا لا تعدو كونهـا إلّا لعبةً مـن ألعاب الأولاد، أبتسِـم ببلاهـة وأمضي عنهم، وبيتنـا الكائن قرب الضفـة يضـجّ بالصيـاح، صيـاح الدّيكـة المتفرّقة على السّـطح، أسـأل أمّي:

- هل نحن كفرة يا أمّي؟

فتنهرني وتشدّني من شَعري صائحة:

- «يسوع» سينقذ العالم من شرّ الكُفر، كيف تقولين هذا؟

لم أرَ أمّـي يومًـا غـيرَ منكفئةٍ فـوق العجـين أو طبخ الطعام أو غسـل الأثـوابِ، تسـتيقظ بعد الفجر، تبـدأ أولًا في كنس فناء البيت بالمكنسـة القـشّ، حينهـا يكـون أبي نائمًا، ثم تـشرع في إعداد عجين الخبـز في حلّة كبـيرة، تتركـه ليتخمّر تحـت أشـعة الشّـمس الأولى، وتحمل مـن وراء الـدّار القشّ والأخشـاب وتحمّي الفرنَ الطـين، أرافقها في كلّ خطوات الخبيـز لأنّهـا تصرّ على هذا، تقـول لي: تعلّمي، لا يبقى للسّـت في الدّنيا غـير مهارتها في شـؤون البيت.

ينتفـخُ الخبـزُ المرصـوص في صفـوف طوليـة تحـت عبـاءةِ الشّـمسِ ببـطء، عندئذ تكـون الفرنُ قد سـخنتْ تمامًا، تتناول أمّـي رغيفًا رغيفًا بدقـةٍ وتَعَـوّد، تضعـهُ داخـل الفـرن التي تتلقّفه بشـهوة، أجـوس فيها

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بعينـيّ، كيـف لا ينال منك التّعبُ يا أمّي؟ ترهقين نفسـك طوال النّهار مـا بـين أبي وبين أعمال البيـت وبيني، ولا أحسـب أنّ لكِ شـكوى من أيّ قبيـل، تبدين دومًا سـعيدةً راضية، لكن أخشـى عليك، أخشـى أن يهـدّك الجهدُ في لحظـة ذروةٍ ما حبيسـة بأعماقك.

أبتعِـدُ عنهـا، أغيـب داخل الحظـيرة الصغـيرة المقامة بجانـب البيت على مشـارف النّهـر، أتفقّـد البهائمَ التي تخور خـوارًا محببًا حـين تراني، لا أعـرف كأنّ نظراتِهـا تود لو تبلغني شـيئًا! تطيل النّظـرَ في عينَيّ بطيبةٍ واسـتجداء، أشـعر أنّهـا ترجـوني أن أُفـرِج عنها، كأنّـما موقنةٌ بأنّهـا ربّما مؤهلـة للذّبـح عـمّا قريـب، أتحسّـس أجسـادَها الملسـاء، فتقـترب كلّ البهائـم منّـي، الأبقـار والماعـز والخـراف، روائحهـا التي تنفّـر الجميعَ تأتيني مسـتحبّة مريحة، ولا أدرك لِمَ؟! فكـم تروقني هذه الرّائحة! كنت لا أبـالي بعفـن البهائم بقدر ما أبالي بحبسـها داخل هذه الحظـيرة، أدور بعينـيّ فيهـا، كأنّ بي أقـول: لـو كان الأمر بيدي!

وحـين نضجـتُ، ومـات أبي فجـأة، أحسسـتُ أنّ أمّي هـي اختزال الحيـاة كلّهـا، أيقنـت أنّنـا سـنجابه حيـاةً شاسـعة متراميـةَ الأحـزانِ وحيدتـين.

كان أبي «زمّـارًا» كبقيـة رجـال قريتنا النّائية، لم أكـن أدري إنْ كان هذا فِعـلَ الإرثِ أم فِعـلَ الفقـرِ البليـد الـذي يمتلـك القريـة؟ ولكنّه كان يعشـق حرفتَه، كنـت أراقبه من حين لآخر وهو جالسٌ أسـفل شـجرة الأثـل نافخًـا مزمـاره، وأصابعه تـدور من ثقـب المزمار لثقـب آخر في انسـجامٍ وفي خشـوع، كنـت مِن فرط سـعادتي بعزفه واختـمار رأسي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أتراقص معه، أتلوّى بخصري ذات اليمين وذات الشّمال في نشوة، يطير من مزماره النّغمُ فأطير معه، يميل هو مع ميل المزمار، فأشعر باندفاع الهواء السّاخن البعيد من فوّهة المزمار وكأنّه يلامس وجهي.

لم أكن أعرف لماذا يُعيَّر رجالُ قريتنا بحرفتهم؟ إنّها حرفةُ فنٍ وتمكّن، لعلّ لا شيء يُعيّر به الرّجل في الحياة غير تذلّله من أجل لقمة العيش، وربّما هذا في الحقيقة ما كان يبعث في نفوس رجال قريتنا هذا الإحساسَ الباطن بالانكسار، فكلّهم يتذلّلون – بلا حيلةٍ – لأجل أجورٍ بخسة، يقتاتون بالنذر اليسير الذي يكفله سعيُهم بين القرى والمُدن المترامية في بقاع «الأناضول»، وفي الأفراح والمناسبات، تلك النّوبات التي يمارسون فيها مهنتَهم، والتي لم يكن ليعرفوا سواها، إضافةً لنتاج الأرض الشّحيح، والذي يكفي تقريبًا لسدّ حاجات البيوت من جبن ولبن وقمح وذرة ليس أكثر، تلك الكفاية الذّاتية، غير منتظمة المنسوب.

كان أثرَى رَجلٍ في قريتنا هو الإمام السّلطان «شرف الدّين»، صاحب الطّاحونة، أثراهم فقط لأنّه اشترى الطّاحونةَ القديمة في آخر القرية وأعاد تشغيلَها، وثراؤُه كان في أنّه امتلك –مع ما تدره الطّاحونة– بضعةَ أفدنةٍ من الأرض تطرح الفاكهة، وبضعةَ رؤوسٍ من البهائم، ولكنّه لم يكن ليُشرف على الطّاحونة أو يباشر سير العمل فيها إمعانًا في إضفاء صفة التوقير المبالغ فيها على نفسه، اكتفى بترك ذلك لبعض الموثوق فيهم والذين يتفانون في توكيد الثّقة تقرّبًا له.

كان آباؤنا يحملون فوق أكتافهم أجولةَ الأرزِ والقمح والذّرة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لطحنهـا، بعـد أن اسـتبدل السّـلطان حجـر الطّحن القديـم الكهل بحجر صـوان جديد وغـيَّر الغرابيل نصف الاسـطوانية لمضرب الأرز بأخـرى متينةِ المعدن وشـديدةِ الصلابة، كنّا نرافق الآبـاءَ إلى الطّاحونة، ننتظـر فيما وراء السّـور المَبني بالطـوب النيئ -والذي يلتـف حول فناء الطّاحونـة- جالسـين عـلى المصطبـة الإسـمنتية، أو في بعـض الأحيان نتسـلّل إلى الدّاخـل لنراقـب الـتّروس التـي تَطحـن في غـير كلـل ولا إنهـاك، يشـدّنا الفضـولُ نحو الأصـوات الطّالعـة من ناحيـة القادوس المعـدني المرمـي في جوفهـا، ومن مـضرب الأرز المكمّـم بالخيش.

أذكـر أنّنـا -ولم نـزل صغـارًا- كنّـا نخشـى مـن السّـلطان «شرف الدّيـن»، وهو مقبِـلٌ من بعيد كنّا نهـرول فرارًا منه، كانـت مخاوفُنا مجرّد ترجمـاتٍ لثرثرة النّـاس حول سرّ غامضٍ يخبئه السّـلطان في سريرته ولا يقـف عـلى مضمونه أحـدٌ بالتحديد، قيـل إنّه يؤاخـي الجنّ، وقيـل إنّه يصعـد كلّ يـوم إلى السّـماء ويعـود قبـل أول ضـوء للفجر وقـد عَرَف عـن غيب الخلق ومسـتقبلهم، إنما أحيـل السرّ عمّا بعـد- بطبيعة فوت الزّمـن- إلى تفسـيراتٍ لا تعـدو أن تكون في نظري أكثـرَ مِن اجتهادات اسـتقرّ عليهـا تحليل الجمـع، ولا تكاد تخلو مـن يقينٍ ليس فيـه موضعٌ لشـبهة- ذلـك لفطنة رجـال قريتنا وفراسـتِهم الخارقـة!- أنّ السرّ مِن عند الله، سرّ روحاني، كلّل اللهُ به السّـلطان محبّةً وبَرَكة، وكان السّـلطان يسـير في القريـة متباهيًا بالهالة المرسـومة حول شـخصه، والتي منحتها لـه قريتُنـا عديمة الجـدوى بكلّ يـسر، ودائـمًا ما كان يمـشي بصلفٍ في صحبـة الأقران مـن الدّراويش ومحبّـي التزلّف والتملّق، يـدكّ الأرضَ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الصلـدةَ بقدمـه فنراقبـه بفضـول، والتّراب يـوجّ من تحـت قدميه في حلقـاتٍ دُخانيـة اللّـون يظلّ ينفضهـا عن ملابسـه بخُيَـلاء، لكنّه كان مَهيبًـا، لم يكـن يجالـس أحدًا من ناس القريـة في أيّ وقت، بمعنـى أنّه لم يكـن متاحًـا للعموم، كما لم تكـن رؤيتُه عابـرًا في شـارعٍ أو درب داخل متـن القريـة إلاّ محـضَ صدفـةٍ أو مـن بـاب الاسـتثناء، ولم يكـن ذلك تعاليًـا بقـدر مـا هو محاولة نسـب غرابـة أكـبر وغموض أشـمل لعالمه الخـاص، لعـلّي كنـتُ الوحيـدةَ التي باتت تشـعر بعـد وقـت بأنّه ليس أكثـر مـن صناعةٍ محليـة، لظـروف مادية بحتـة أو لظـروف معرفية غير واضحة المعايير، وفي الحقيقة لم يكن يُعرَف عنه إنْ كان متأصّلَ النّسـب إلى قريتنـا كـما يدّعـي، أم أنّـه قَـدمَ عليها منـذ زمن محت ملامحَه سـطوةُ فلوسِـه، فلـوس لم تكـن كذلـك معلومـة المصدر عـلى وجـه التحديد، يُشـاع عنـه أنّه وفِـد من إقليم « تركمانسـتان» بعـد هجمة التتـار، وكان هـذا منـذ قرابـة ربـع قـرن، كان يمـرّ عـلى أهـل بلدتنـا فيلقي سـلامًا مختالًا، ينظرون له في إكبار وهو دانٍ ويشـدّون إلى أسـفل أحبال الماشـية التـي تطـوّق رقابها والتي يخرجون بهـا إلى الحقول، فتثبـت عن الحركة، ثـم يتسـمّرون هُـم بدورهـم ولا يجـرؤون على تكملـة السـير احترامًا ومَهابـة، حتـى يختفـي من أمـام أبصارهـم، فيسـتأنفون مشـيَهم المتأنّي صـوْبَ الحقـولِ القريبة، ويتهامسـون عن تواضـع هذا الرّجـل، الذي يقابلهـم بابتسـامة مؤدبة، كأنّ مجـرد إلقاء السّـلام عليهم مِـن رَجلٍ في مقام السّـلطان لَهُوَ باعثٌ عـلى الفرحة والتباهي، وكانـت -في البداية- التّسـلية الوحيـدة المتاحـة في قرية صغـيرة كقريتنا، لا تسريـةَ فيها ولا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لهـو، هي محاولـة وهب عنـصرِ التبجيل إلى هـذا الرّجـل، ثم سرعان مـا تطـوّرت التّسـليةُ إلى توكيد لا يجوز التّشـكيك فيه تحـت أيّ بند، أو أيّ احتـمال، فالرَّجـل ثـري، يجـيء بـكلّ ما هـو عجائبي، يَعـرف ما لا يعرفـون، يطبّب مرضاهم بالبَرَكة والدعاء وبعلـمٍ لا تُدرك معطياتُه إلاّ مـن العليم بمكامـن الأمور، يبلغ أعماقَ أنفسـهم ويكاشـفهم صراحةً عـمّا يبطِنـون، يقيهـم شرّ الحوائـج والعمـولات بالتعاويذ والقـراءات والأدعيـة والأحجبـة المباركـة، مـن دون أن يتقـاضى أجـرًا قبيـل هذه المنحـة الربّانيـة التـي لم ينلْهَا غـيرُه، كما أنّـه رَجلٌ كريم يفتـح بيتَه طول الوقـت لعابري السـبيل ولمحبّيـه، وكنت أسـأل أبي في صغري:

- فعلًا السّلطان مكشوف عنه الحجاب؟

- الله أعلم يا بنتي.

- المسيح فقط مكشوف عنه الحجاب يا أبي، أليس كذلك؟

يمصمص شفتيه فأصرّ مستطردة بعند:

- لكن من أين أتى السّلطان بكلّ هذا المال؟

فينظر لي ويقول بعد تفكير وحيْرةٍ لا ينتهيان إلى إجابة شافية يقينية:

- علّمنا «يسوع» أننّا لا نسأل على أشياء لا تعنينا.

والإمام السّـلطان – من وجهـة نظري – لم يكن إمامًـا بالمعنى الدّارج للكلمة، يعني لم يكن عجوزًا للدّرجة، ولا فقيهًا، ولا يحمل من سـمات الإمامـة أمـارة واحـدة، أو لم يعد –بالنّسـبة لي– ذلك الرّجـل الذي كنّا نخشـاه في الصّغـر، في الواقع، وكونه دجّـالًا بمضمون المعنى، جعل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أهلَنا البسطاءَ يطلِقون عليه هذه اللّفظة المجّانية التي تُطلق بسهولة، بل وتُنطق بسهولة أكبر، لكن حصوله عليها كان أكبر دليلٍ مع ذلك على أنّ طقوس الشّعوذة التي تتمّ في بيته قد خلقت آفة في أدمغة ناس القرية، عشّشتْ واستوطنت حتّى بلغت مبلغ الأسطورة، وصنعتْ مِن هذا الرّجل -بناءً على جهلٍ استشرى في بلدنا منذ أمد- زعيمًا وكبيرًا، له كلمةٌ لا يجوز بأيّ حال مراجعتها، يحكم فيمن يشاء ويتحكّم فيما يشاء - حتّى أمير «قونية»- بسطوة ماله ونفوذه وشخصيته المغلّفة بالهيبة، وقدرةِ لسانِه على تزيين كلّ الكلام وتجميله، بيته الكبير غرب القرية يلمّ في الغالب كلّ رجال قريتنا، هناك تَحدث طقوس الشّعوذة، وهناك -دون رقيبٍ أو معارض أو متفكّر- يستشرف مصائرَ الخلق برؤى لا يجوز المساس بمصداقيتها بأيّ حال، أو بكراماتٍ أعجب كيف انطلت على عقول الناس؟! إذ لا تخلو رقبةُ رَجلٍ أو امرأة من حجاب صنعه الإمام خصيصًا لغرضٍ ما، لحماية أو لتسهيل أمر، أو تبصير كلّ مَن له ضالّة مفقودة، العجيب أنّ شيئًا ممّا يتكّهن به في الغالب لا يتحقّق، ولم تعد ضالّة أحدٍ إلاّ مصادفة، الأعجب أنّ حضرته تزداد خلقًا يومًا بعد يوم، فسُمْعَتُه تزداد بريقًا، ولعلّ أكثرَهم -أغلب الظنّ- ممّن لا يجدون الزّادَ إلاّ عنده، حيث تمتد موائد الطّعام طيلةَ المساء، فيتوافد إليه رجالُ قريتنا ورجالُ القرى الأخرى ورجال المدينة، يمرّ بينَهم، يهرولون إلى يدِه يلثمونها، تنطلق أبخرة العطّارين الفوّاحة إلى أعلى، فتنطلق عيناه وراءها في زهدٍ ملفَّقٍ وغيبةٍ مصطنعة، ويشدّ يدَه مِن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

بين الأفواه وهو يصيح:

- أستغفر الله.

هو الذي غرس في رأس أبي فكرة التطيّر، حين قال له مرّة:

- احـذر مـن الغربان يا مسـيحي، إنّها تحـوم حول بيتـك، وهذا نذير غير حميد.

وأذكـر أنّ أبي كثـيرًا ما قـرّر ألاّ يخرج للشّـغل عند رؤية غـراب يحوّم في السّـماء، أو حتّـى عندما يسـمع نعيقَه، اسـتحوذتْ عـلى دماغه فكرةُ أنّ خَطْبًـا مـا سـيحدث إنْ خرج لو شـاهد بومـة أو غرابًا، لهـذا أعطى لـه الإمـام رُقْية عبارة عـن عصارة الثّـوم والبصل، مضافًـا إليها القليل مـن توابـلَ غريبةِ الرائحة أجهـلُ مصدرَها، خالَـفَ أبي كلّ تعاليم ديننا والكنيسـة، وصار يـرش منها على كتفيـه -إتّباعًا لتعليـمات الإمام- أو عـلى وِركيـه، إلى أن باتـت لـه نفـس الرّائحـة، كنت أشـمّها تخـرج من جسـده منفـرةً نفّـاذة، وكنت أفهـم أنّ هذه الأشـياءَ لا تنفـع ولا تضر، لكـن كـم كنـتُ آنَـفُ الارتمـاءَ على صـدره كـما تعـوّدت! أمّـي لجأت للدّيـر، لعلّهـا شـعرت بخطـر الإمام الـذي يحيـق بذهن أبي، مـا زلت أذكـر اليـوم الـذي زارنـا فيه أحد القساوسـة، حـين اسـتقبله أبي، رمق أمّـي بنظـرة مفهومـة، كأنّـه أدرك أنّها دافـع الزيـارة، قبّلَ يـدَه واحتفى بـه بـما يليـق، ثـم دخلا معًـا في إحـدى الغـرف، وخرجـا بعـد أقل من نصـف سـاعة ووجـهُ أبي يكـبّ حُمرةً، نـاول القـسّ أمّي صليبًـا وقال:

- علّقيه في بيتك، هذا مُبارك.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ثم التفت إلى أبي وأضاف:

- استمسك بالصّليب يا رجل، ودعك من التجديف، هل هناك مسيحي محترم يتبع كلام المسلمين الدجّالين؟

- كيفما ترى يا «أبونا».

كيفما ترى تعني انتهاءَ الموضوعِ وغلقَه، وأنّ أبي منذ اليوم سيقطع علاقته بالدجّال المسلم الذي نفذَ إلى عقله بلا مقدمات.

أذكر تلك الأيّام، تحرّر أبي من سطوة الإمام على يدّ قسّ من الدّير، لذا؛ أرسلتني بعدها أمّي إلى الدّير في مهمة، وهي إعطاء القسّ بعض الهدايا للدّير، بضعة ألحفةٍ وأغطية ومخدّات، أذكر تلك الأيّام، وذلك اليوم تحديدًا، حيث لم أزُر الدّيرَ بعدها حتّى الآن.

أجل؛ بعدها، صرت امرأة مكتملة الألم والانكسار.

كان صباحٌ، وحمائمُ مستكينةٌ أعلى الصّليب الخشبي الكبير بمدخل الدّير، لم يكن في الجوار عابرٌ، ودخلتُ وقد كان الباب العتيق مواربًا، صادَفَني أحد الرّهبان الشّباب، سألتُ على القسّ، قادني لغرفةٍ طينية واسعة مظلمة بعض الشيء، وتفوح منها رائحة ثقيلة، أدركت أنّها حظيرة، كانت في جانب من الدّير، أجلَسَني محتفيًا بي في مبالغةٍ مريبة، ثم أغلق الباب، اضطربت، سألت عن القسّ ثانية فأومأ الرّاهبُ برأسه مردفًا:

- سيأتي فورًا، انتظريه.

بدأ إحساسٌ مخيف يدبّ في كياني، والرّاهب يدنو منّي، ويجلس

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جـواري، وفي بجاحـةٍ تتسـلّل يـدُه لتقبـع فـوق كتفـي، ارتعـدتُ، وتلجّـم لسـاني وأنـا أتزحـزح عنه قليـلًا، غير أنّـه أصرّ عـلى المضايقة، ودَنَـا أكثـر، وتخشّـبتْ أناملُه في لحـم ذراعي، ونشـب أظافـرَه في عمق إحسـاسي، كانـت الغرفة تشـبه حظـيرة بيتنا التـي تطلّ عـلى النّهر عن كثـب، ومـن ورائها يترامي بيتنـا للداخل مطلًّا عـلى دربٍ قصير ينتهي بالشّـارع الرئيـسي، ولم أعـرف كيـف تسـنّى لي أن آخذ في تفقّـد الغرفة شـبه المظلمـة والرّاهـبُ يتحسّـس كلّ جـزء في كتفي بيديْـن آثمتين!

كأنّ لسـاني قـد شـلّ، وددتُ أن أصيـح فيـه مـاذا تريـد؟ لكنّي كنت طفلـة، لا أعـي، وكان الخـوفُ عصـف بي، إنّـما تراجعت قليـلًا، وهو يدنـو منّـي وفمُه ينفـرج عن ابتسـامةٍ كبـيرة قائلًا:

- أنتِ جميلة، هل تعرفين هذا؟ كم عمرك؟

وفجـأة نهـض، ابتعَدَ قليلًا، وأضـاء الغرفة أكثر بموقد غـاز، ثم أخذ يدنـو ثانيـة، خطواتُه حـذِرة، وكان وهو يدك الأرضية المملـوءة بالقشّ وروث البهائـم يفعـل باحتيـاطٍ شـديد، يخشـى أن يزعج تلـك البهائمَ القريبـة التي راحـت تتفقّده في عـدم اعتياد، كنت قد نهضـت بدوري، متقهقـرةً للـوراء، وصلـتُ بالفعـل إلى آخـر جـدار يمكـن لجسـدي أن يسـتند عليـه، لم يكـن ثمّـة منفـذٌ آخـر لي، فبـان هلعٌ فـوق ملامحي، وبـدأت شـفتاي في الارتجـاف والهمهمـة وفي إبـداء صيحـة، لكنّه قفز ولجّـم فمي بيـدِه في سرعـة وفي مفاجئـة، وقال:

- لا تخافي، سأعطيكِ البركة، وبالمرّة نلعب.

أيّ بركـة! كذلك بحثـتُ بعينَيّ عن لعبةٍ في يـدِه، أيّة حيلة في اللّعب،

This file was downloaded from QuranicThought.com

فلم أجد، تفكيري في كنه اللّعبة التي يرغب أن يلعبها معي أضعف قدرتي على أن أقاوم كتمَه لأنفاسي، كانت لمساتُه هي المعبر الأول لي إلى عالم النضوج، لا أدري، لعلّي كنتُ محمومةً بهذا الاجتياح الذي تسبّبه فورة الجسد الفجائية، لكنّه كان نهارًا غائمًا، تذكرتُ أنّي بالأمس فقط لا غير طرتُ نحو أمّي باكيةً وأنا أفتح ساقيّ ممسِكةً طرفَ ثوبي بين أناملي، لكنّها زغردت، زغرودة خاطفة، وتأمّلت قطرَتَيْ الدّمِ اللتيْن تقبعان فوق ملابسي قريبًا من فرْجي، وقالت في سعادة:

- مبارك يا «كيرا»، لقد صرتِ بنتًا كبيرة بالغة.

هل كان المفترض أن يتغيّر كلّ شيء؟ ألم يتوّجب أن تبقيني في البيت تحت نظرها أقلّه كي تمرّ تلك الفورة الطارئة على خير؟ لكنّي لم أشعر بأيّ جديد، فقط سخّنت إناء ماء على الموقد، ثم خلعتْ عنّي ملابسي، وراحت تدلق عليّ مِن فمّ الإبريق المخصص للتحمّم، وأنا مقرفصة في قلب حوض التحمّم مغمورة بالصّابون والماء، وفي الحقيقة كانت مغتبطة، راحت تغني: «ننتظر الفارس على حصان، يُشبِه رجال زمان».

كانت للرّاهب نظرةُ ثورٍ هائج وهو يكمّم فمي بيده، ويقرص نهدَيّ بعنف، حاولتُ عضّ يدِه، لكنّه لم يبد أنّه شَعرَ بألم العضّة، كان أشبهَ بتمثالٍ حجري لا روح فيه، حيوان خرج من أساطيرَ بائدةٍ وبدأ يعبث بمنظومة حياتي، كانت بداخله رغبةٌ فجّة لم يستطع كبْتَها ناحيتي وهو يحدّق فيّ ببلاهةٍ ونشوة، لمعة آثمة تطلّ من عينيه وهو يلتقط أنفاسَه في عُسر، يكتم بكفّ فمي، وبالأخرى يلفّ مِن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

خلف ظهري ويبدأ في النّزول إلى أسفل ويرفع ثوبي، كانت أنامِلُه مرتعدةً وهي تزحف فوق مؤخرتي، ثم بأسنانه راح يمزّق رقبتي في نهم، ويجري بلسانه إلى صدري، أرى في عينيه انعكاسًا لحلمَتيّ، كانتا ورديتَي اللون، حوْلَهما بضع نتوءاتٍ بُنيةٍ دقيقة وكأنّهما تطريزٌ لعذوبتِهما، كان الصّمت قد لفّ المكان، عدا أنفاسه المعتملة بالشّبق، البهائم راحت تشاهد ما يحدث من دون فهم، وربّما بنوع من استمراء، ولكن كلّ أوصالي أخذت تئِن بحنقٍ وألم، لا أعرف، هل كان يجب أن أفعل المستحيل لأصرخ؟ هل كان يجب أن أكوّر قبضتي فأضربه قدر ما أوَفق؟ غير أنّ قداسةَ المكان أثقلتني، وجثومه فوق جسدي كان مطبقًا، كان ثقلًا لا أقدر أن أطيقه ولا حتّى لوهلة، كلّ شيء يخنق، وقاحته وسطوته وعدم تركيزي، كنت أستصرخه من داخلي: هذا الجسد لا ينتمي إليك، لا تستطيع أن تلعب معه حسبما تشاء.

كيف عجزتُ عن الحركة؟ لا يتوقّف عن التحسّس ولا أجد وسيلةً للاعتراض، يسحق قِمتيّ نهدَيّ تحت أصابعه دون أن يعتدّ بصدري الذي يحترق ألمًا، أحاول الإفلاتَ، يزمجر، يشدّ جسدي داخله في قسوة، يطغي على كلّ مقاومة ممكنة، يطلق الخوار مثل عجل يتضوّر جوعًا، يمسكني بكلّ رغبة، ولا أعود أميّز، غالبًا أبي هو المكلّف بحمايتي ومنْعِ مثل هؤلاء مِن هتك براءتي! أين أمّي؟ لماذا لم تأتِ بنفسها للدّير، ربّما لم يكن لراهبٍ أن يجرؤ معها على فعل ما يفعله الآن معي! ولكن كلّ شيء بدا مرتّبًا للخلوة الآثمة، كلّ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

التفاصيل تآمرت ليَتِمَّ هذا الهتك الأليم، رحت أغوص في ظلمة، راجيةً أن أنصرف عن هذا الجسد العاجز الضعيف، وأصوات كلّ الحكايات القديمة تختلج في عقلي، كأسراب من ذباب نافق، يضرب داخل الأذن والرّأس على غير هدى، والرّاهب يلهث في فجور، يحملني ويرفعني عن الأرض، ثم يرتمي بثقله فوق ظهري، فأرتمي تحته وتنفلت كفّه التي تكبّل صوتي، لكن ذرّات القشّ الهائشة التي تفرش أرض الحظيرة تقوم بالدّور على أكمل ما يكون، تُكمل في قسوة كتم أنفاسي، تعبّئ جوف فمي وتتسرّب داخل فتحتَي أنفي، أشعر أنّي بالفعل قد غبت عن وعيي باختناق، والرّاهب مِن ورائي يكلبش على مؤخرتي ويرفع عنها ذيل ثوبي، كانت أمّي قد طبّقتْ خرقةً نظيفة ووضعتها بين وِركَيّ حتّى تحجّم نزول قطرات الدّماء الضريرة التي تقابل دنياي لأول مرّة، لكنّه لم يكترث، كبس بقضيبه المتصلّب على المنفذ السليم المواتي كسيخٍ من حديد متوقّد، ثم ضغط بقوّة، ضربه بداخلي ضربة عنيفة، فبدا وكأنّه سقط على ظهري بهراوة ثقيلة، وللحظة أفقتُ، اتسّعت عيناي وهو ينتهكني في مجون، كأنّ وتدًا من إسفين قد أطاح بجسدي من أولِه لآخره، خرج صوتي مسرسعًا مغلّلًا باللا احتمال، لكنّه أسرع بسدّ فمي، كان الوجع أكبرَ مِن أظلّ مغشيًا عليّ بهذه البساطة، أحسستُ أنّي هشّةٌ ووحيدة ومستهلَكة، أحسستُ كأنّ سكّينًا حادّةً قد عاثت بأحشائي، فصرتُ عرضةً للتشظّي وعدم الثبات، كنت بحاجة لمن ينتشلني من هذا البرد الذي لحق بأطرافي، وكنتُ مفجوعةً أكثر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

مِـن أنّ هـذا الرّاهـبَ هو الـذي بات يشـاركني صُنْعَ قـدري الآن، يا للكارثـة! كيـف صار مكتوبًـا أن أقف على حافة الجـرح الأبدي في مثل هذه السّـن؟ لم تعد الأمورُ تسـير نحو اتجاهاتها الطّبيعية، يا للمسـخرة! هل سـأصبح سـلعة لا تُشـترى؟ وهـو مِن خلفـي يواصل السّـلخ، لا يكتفـي بمجـرّد الذّبـح فقط، بـل يحاول أن يبلـغ أعمقَ موطـنٍ للألم في داخـلي، ويُمعـن في خلـق لذتِـه مِـن خيـوط واهيـة باقيةٍ متسـاقطة من داخـلي للخـارج هي التـي توثقني بالحيـاة، يضغـط أكثرَ فأكثـر، يُغرقه باللّعـاب ثـم يدفعـه مـرّات ومـرّات، أئـن، يمزّق نهـديّ بأظافـره من النّشـوة، ويفـحّ، وصـوتٌ خافق يعلـو من جـرّاء الاحتـكاك، يضرب ويـضرب، ويجتاحه الهياج، فيحـاول أن يصل به إلى مدخـل الرُّوح، إلى أن تتسـارع نبضاتُ وطرِه، ثم يتراخى جسـدُه دفعـةً واحدة، وتتصلّب سـاقاه فـوق مؤخـرتي، وهو يبـخ في عمقي دفقـاتٍ مِن سـائله الدافئ؛ دفء الفجيعـة الصامتة.

إنّ الأقـدارَ مُضحِكـة، يتحـوّل كلّ شيء في لحظةٍ غاشـمة إلى ضبابٍ يبـدو ألاّ انقشـاع لـه، كلّ ما تسـعى نحوه طفلـةٌ صغيرة لا يعـدو كونه أكثـر مِن محض سراب، تـدور الحياةُ في بطءٍ وألم، لكنّهـا أبدًا لا تتوقّف، حتّـى وإنْ كانـت الأمنيـة الوحيـدة أن تتوقّـف، فكيـف لا نصـدّق أنّ القـدرَ جـبروت؟ وأنّنـا قـد نعيش الباقـي مـن أعمارنا في لهفـة للرّحيل عـن الحيـاة؟ لم تعـد لي حيلةٌ في جـرح، ولا شـفاعة في ألم، كفّنـتُ بيدي كلّ أحلامـي ذلـك النّهـار البائـس، ودفنتُ نبـضَ الحيـاة داخل أرض الحظيرة الملوّثة بالاشـمئزاز، كان يبدو أنّي سـوف أعيـش الجرحَ الخالد،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وأنه سيلطّم سوادُ الدّمعِ عينيّ ما حييت.

في ذلـك النّهـار الرّمـادي طار نواحـي حـولي متبـدّدًا، وفي الحقيقة لم أكـن أبكي نفـسي، كنت أبكي عجـزي وقلة حيلتـي، لم أجـرؤ على أيّ انفعـال، فقـط رحتُ أشـهق وألملم بقايـا ثيـابي وبقايا عـزّتي وكرامتي، والرّاهـب يمسـح بقايـا سـائلِه في الجـدار كيفـما يتّفق، ثـمّ يفـرّ خارج الحظيرة في انتشـاءٍ وفي ظفَر، أخذ يهرول بعيدًا عنّي في حركاتٍ هستيرية مليئـةٍ بالفـرح والعشـوائية، إذ بـدا أنّي أولُ انتصارٍ لرجولته المحبوسـة، أول انتصـارٍ حقيقـي، بعيـدًا عن قيـد المحرّمـات، من غـير ضجيج أو تربّـص أو لهـو، انتصـار صـافٍ، خـام، ذاقَ فيـه معنـى جديـدًا لتحقّق الذّات الشّـهوانية، رحتُ بعدَه أبكي بكثير من التوسّـل والاسـتجداء، حتّـى للبهائم التـي أخذت ترمقنـي في لا مبـالاة، أقول لها: سـاعديني عـلى لملمة نفـسي، لا تكتفي بمجرّد النّظـرة العابرة غـير المهتمّة، فقلبي الآن يفتـل جدائـلَ مِن وجـعٍ لم يكن ليعرفها على الإطـلاق، وكلّ قلاع اللّوعـة تـذوب في آهةٍ مكتومـة بلا مصير.

كان وجهـي مبللًا بالعرق، وكانت الرضوض تملأ جسـدي المتهرئ؛ الـذي لم يعد يخصني في شيء.

أذكـرُ ذلـك اليوم، بعـدَه مـات أبي، رأيت عينيه وهو يحتـضر، كان في عينيـه حـزنٌ، كأنّه عايشَ معـي نحري.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

القسم الثاني

العشور

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

شاهين

قونية/ الأناضول -٦٤١ هـ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يقول مولاي «شمس»:

- النّور والنّار حروفٌ إن استُبدلت جنح المعنى وتضاد، وإنّما كم بينهما! إذا أراد الله إن يكون نورٌ كان، وإن أراد نارًا تكون، لذا؛ ليس يجب أن يحول بينك وبين الله بشرٌ، الرّوح سيّدة نفسها، فإن رُوحك تحرّرت رأيت الله، ولا سلطان لبشرٍ عليه، هو ذو السّلطان والحسب والعِشق، كما ينبغي أن تحرص أن تكون روحك شفّافة، فإن رأيت الله رأيته عبرها، إذ كيف يُمكن أن ترى الله عبر وسيط؟ الحقيقة دائمًا تسكن الأعالي، والظّافر من صنع من الحقيقة معبرًا، لا صنمًا يعبده، أنت تاركٌ كلّ الحقائق بعد موتك، والذي سيبقى منك إلهام العِشق نفسه، فعِش دُنياك صفرًا، لا تحمّل كاهلك بأرقام غير ذات جدوى، فرّغ رُوحك من أعباء الحصر، وانطلق إلى الملكوت، كن خفيفًا فارغًا، تصل إلى عدمية الوجود، وإن وصلت، رأيت الله.

كنتُ درويشه الأمين وخادمه الطّائع، وبرغم عدم قدرتي على الإبصار، كان يُوكل لي المهام في كثيرٍ من الأوقات، أهمّها أنّي كنتُ أعدّ له الطعام، وأرتّل له القرآن، وأحيانًا أغنّي له من أناشيد الدّراويش القُدامى، كما كنتُ مسئولًا عن فِراشه ومضجعه، كانت له غرفةٌ متواضعةٌ على سقيفة خان من خانات شرق «قونية»، وكانت له حصيرة موسّدة بالقشّ يمدّد جسمه عليها ليلًا، كنت أرشّ ماء الورد باهتمام، وأكنس الغرفة كي تليق به، وأتحسّس الأشياء التي اعتدت أن أحفظ معالمها، فصرتُ مع الوقت بارعًا في توضيب غرفته والعناية بها، وكثيرًا ما كان يطبطب على كتفي ويمسّد شعر

This file was downloaded from QuranicThought.com

رأسي براحتِه ويقول:

- ما أخلصك في عالمٍ مليء بالمكفوفين!

وكانت له عصا يتوكأ عليها، يُطلقها أمام ساقيه، ويتبعها، كانت لديه القدرة على الإيمان بكلّ ما هو غرائبي، فمثلًا هو يؤمن بأنّ العصا تعرف طريقها، يُمكنها أن تدبّ بين تفاصيل الدّروب والشّوارع وكأنّها تحفظ الخرائط، أكثر ممّا يفعل هو، لذا؛ فالعصا أمينة، تُرشِده للأمكنة التي تتواءم ورُوحه، تهديه للتكايا التي يقبع فيها الدّراويش يسهرون اللّيل يذكرون الله ويمدحون عظمته وجلاله، وكان يقول:

- ذِكر الله خمر الدّرويش.

تجوب به العصا تفرّعات المدينة، فليلةٍ يصطحبني لنجلس في صحبةِ إمام يتحدّث في شأن الدّنيا، وليلةٍ ننضمّ لحلقة إمام يتحدّث في شأن الدّين والآخرة، كان مولاي «شمس» منفتحًا على كلّ الآراء والرؤى.

رغم هذا؛ كثيرًا ما عجزت عن صدّ الأذى عنه أو درأ العداوة.

في الطّابق السّفلي من الخان الذي يسكنه، حانة، يسهر فيها الدّراويش والمعّذبون وذوو الهوى والعاطفة طيلة اللّيل، وينصرفون مع هلّة نسائم الصّبح، بطبيعة الحال، كان مولاي «شمس» يسهر بعض الوقت في الحانة، يشرب النبيذ إن راوحه مزاجٌ، ويستطعم مذاق الجعة إن بدا له أنّ رُوحه في حاجةٍ إليها، اعتبره كثيرون أنّه مجرّد درويش متسوّل يحطّ بين المُدن والقرى طلبًا للنفع والزّاد، لكنّه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كان يباغتهم حين يقرأ كفّ أحدُهم أو كأس، مرّة ناطحه صاحب الخان، قال له:

- اقرأني إن كان مكشوفٌ لك.

فابتسم مولاي وقال:

- لست مكشوفًا لي، وإنّما هو بحثٌ عن الحقيقة.

- فلسفتك تغلب على صدقك.

- الصّدق نسبيٌّ.

- والكشف أيضًا.

فسحب مولاي يده، وقال:

- أعطني كفّك إذًا.

ومرّر أنامله في بطن كفّه، ودمدم، قال لي مولاي بعدها أنّ كفّ الرّجل بدت كجحيم مستعرّ، رأى النّار وشعر بحرارتها، ورأى «إبليس» يجلس على قارعةِ طريق، وأبناؤه يتقافزون حوله، كانوا عشرة صبيانٍ، فقال مولاي للرّجل آنذاك:

- كم ولدًا أنجبت من السِفاح؟ عشرة!

بُهت الرّجل، شدّ يده بسرعة من بين أصابع مولاي، وهتف:

- وكيف لك أن تعرف؟

- كلّه محفورٌ على خارطة المصير.

- كذبت وإن صدق الكشف، الله لا يكشف لأمثالك.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ردّ مولاي:

- وإنّما الله بذرنا من حشاياه.

- من أنت كي تتطاول على الله؟

- الله جالسٌ يراقبنا، ولعلّه يحتسى معنا نبيذًا.

هبّ الرّجل، وهبّ معه رجالٌ آخرون، صاح أحدُهم:

- مال مدينتنا عمرها الدّراويش المجدّفون!

ولطم مولاي «شمس»، ثمّ تحفّز نفران آخران وأحكما تكبيله من وراء، حاولت أن أزود عنه فلم أفلح، إذ سرعان ما طوحني أحدُهم فسقطت على الأرض، وتخضّبت جبهتي بالدّماء، وهاجوا على مولاي، تكالبوا عليه واحدٌ بعد الآخر، انهالوا عليه ضربًا ولم يكن ينبس، تصوّرته مبتسمًا يرفع وجهه للسّماء في رضا، كان يؤمن بأنّ الدّفاع عن النفس لا يأتي إلّا عبر الاستغراق في العِشق، وأنّ الإنسان يجابه أخاه الإنسان عن سوء حكمة وتقدير، والمغفرة رُوح العِشق.

انتهوا منه، فألقيت بجسدي عليه، وتساندنا حتّى صعدنا إلى الغرفة، وسمعته يبتهل ويناجي الله، وكان وهو يتضرّع يشهق من فرط البكاء، فسألته:

- مولاي كيف احتملتهم؟

فقال لي:

- علينا أن نستسلم لإرادة القدر، ليس ضعفًا ولا سلبية، إنّما القوّة الرُّوحانية الحقيقية تكمن في الاستسلام والصّبر، إنّها تنبعث من

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

داخلك كلّما استسلمت أكثر، العالم من حولنا فوضوي ومضطرب، العامل الوحيد الذي يضبط استقراره وأمانه هو الاستسلام للجوهر الإلهي في الحياة، لذا؛ فالدّراويش الحقيقيون يعيشون في سلام دائمٍ وطمأنينة لا تفنى.

- لكنّهم أوغادٌ جاحدون يا مولاي!

- اسمع؛ في هذا العالم، لا الأحداث المتشابهة ولا الأحداث الآمنة، ذات جدوى، بل المتناقضات الصّارخة، هي ما يجعلنا نتقدّم خطوة إلى الأمام، في داخل كل منّا توجد جميع المتناقضات في الكون، لذلك يجب على المؤمن أن يلتقي بالكافر القابع في داخله؛ وعلى الشخص الكافر أن يتعرف على المؤمن الصّامت في داخله، وإلى أن نصل إلى اليوم الذي يبلغ فيه المرء مرحلة الكمال، مرحلة الإنسان المثالي، فإن الإيمان ليس إلا عملية تدريجية، ويستلزم وجود نظيره: الكفر. إذ خُلق هذا العالم على مبدأ التبادل؛ فكلّ امرئ يُكافأ على كلّ ذرّة خير يفعلها، ويعاقب على كلّ ذرة شرّ يفعلها، لا تخف من المؤامرات، أو المكر، أو المكائد التي يحيكها الآخرون؛ وتذكّر أنّه إذا نصب لك أحدهم شركًا، فإن الله فعل ذلك، فهو المخطّط الأكبر، إذ لا تتحرّك ورقة شجرة من دون عِلمه، آمن بذلك ببساطة وبصورة تامّة، فكلّ ما يفعله الله يفعله بشكل جميل، إنّ الله ميقاتي دقيق، إنّه دقيق إلى حدّ أن ترتيبه وتنظيمه يجعلان كلّ شيء على وجه الأرض يتمّ في حينه، لا قبل دقيقة ولا بعد دقيقة، والسّاعة تمشي بدقّة شديدة بالنسبة للجميع بلا استثناء، ولكلّ شخص وقتٌ للحبّ ووقت للموت، وليس

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

مـن المتأخـر مطلقًا أن تسـأل نفسـك، هـل أنا مسـتعد لتغيـير الحياة التـي أحياهـا؟ هل أنا مسـتعد لتغيـير نفسي مـن الدّاخـل؟ وحتّى ولو كان قـد تبقـى من حياتـك يومٌ واحد يشـبه اليوم الذي سـبقه، ففي كلّ لحظـة ومـع كلّ نفس جديد، يجب على المـرء أن يتجدّد ويتجـدّد ثانية، ولا توجـد إلّا وسـيلة واحـدة حتّى يولد المرء في حياة جديـدة؛ وهي أن يموت قبـل الموت.

قلت:

– ومـا الـذي يُمكـن أن يتغـيّر في العـالم إن عاودنـا التجدّد مـرّة بعد مرّة؟

قال:

– لأنّنـا تـرسٌ كبير، نحرّك العـالم نحو الكمال، نحو الصّـورة الكُبرى التـي يجب أن ينتهي عليهـا، وليس معنـى أنّ الأجزاء تتغير فـإن الكلّ لا يظـلّ ذاتـه، لأنّـه عندمـا يغـادر لصٌ هـذا العـالم، يولد لـصٌ جديد، وعندمـا يمـوت شـخصٌ شريف، يحـل مكانه شـخص شريـف آخر، وبهـذه الطريقـة لا يبقـى شيء مـن دون تغيـير، بـل لا يتغـير شيء أبـدًا أيضًـا، لأنّـه مقابـل كلّ صـوفي يموت يُولد صـوفي آخر في مـكان ما في هـذا العـالم، إن ديننـا هو دين العشـق وجميـع البشر مرتبطون بسلسـلة مـن القلـوب، فإذا انفصلـت حلقة منهـا، حلّت محلها حلقـة أخرى في مـكان آخـر، إنّ الأسـماء تتغير تـأتي وتذهب لكـن الجوهر يبقـى ذاته.

– وهل ثمّة جدوى من عشقٍ لا ينتهي لحقيقةٍ؟

– العِشـق الأصيـل هو الذي لا غاية من ورائـه، إذ لا قيمة للحياة من

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

دون عشـق في الأسـاس، لا تسـأل نفسـك ما نوع العشـق الذي تُريده، روحـي أم مـادي، إلهـي أم دنيـوي، غـربي أم شرقي، فالانقسـامات لا تـؤدي إلّا إلى مزيـد مـن الانقسـامات، ليـس للعشـق تسـميات ولا علامـات ولا تعاريـف، إنّـه كـما هو، نقي وبسـيط، العشـق مـاء الحياة والعشـيق هـو روح من النّـار، يُصبح الكـونُ مختلفًا عندما تعشـق النّار الماء.

ونحـن المتصوّفـة، بعضنا نارٌ، وبعضنـا ماءٌ، ما بالك لـو اختلطا فينا! أيـن يُمكن أن يذهب بنا العِشـق وقتها؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مولانا جلال الدّين الرّومي

قونية/ الأناضول -٦٢٨ هـ

(كلّ ما أعرفه هو أنّني لا أنتمي إلى هنا، وهذه النّشوة قد جاءت معي من حانة أخرى).

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عندما مات أبي، رأيتني ورأيته في حلمٍ أشبه بكشوف الغيب.

عندما مات، كنّا في «قونية»؛ بلاد «الأناضول»، دولة «السلاجقة الأتراك»، وعاصمتهم، والمستقرّ الأخير لرحلةٍ بدت لا مستقرّ لها، كان «علاء الدّين كيقباذ» حاكم «الأناضول» قد وجّه دعوةً لأبي كي يُمارس التدريس في مدرسة «قونية»، فاستقرّ بنا المقام هناك، وبدا أبي قد نبضت فيه أمارات الحياة ثانية، كأنّما انبعث من جديد، ربّما لأنّ «قونية» تُشبه إلى حدٍ كبير بلادنا «بلخ»، كان أبي بارعًا في تدريس الفقه والعلوم الإسلامية، فصار تلاميذه مريديه، وازدادت أعدادهم يومًا من بعد يوم، ومن ثمّ أُسنِد إليه إدارة المدرسة بأسرها، وكُنتُ أحد تلاميذه حيث راح يبتدع مسائل الفِقه ويحلّلها ويميط اللّثام عن ملابساتها.

عندما مات، أُصبت بالذّهول، ليس لأنّي حزنت عليه فقط، وإن كانت غصّتي عليه ضاربة في الأحشاء، قدر ما شعُرت فجأة بالغُربة والفراغ، من بعد أمّي لم يكن لي غيره، ثمّ اليوم رحل كلاهما وتركاني أعاقر أزمنة الفراغ وحيدًا.

خرجت لأبي جنازةٌ لم تكن لمدرّس في مدرسة «قونية» من ذي قبل، فُجع عليه الجميع، وأدركوا أنّهم فقدوا عالمًا حقيقيًا.

قال لي بينما يحتضر:

- أوكلت لك نفسك، فاحرص ألّا يسكنها النكران والجحود، اعرف طريقك إلى الله بالعِشق، نجاة ابن «آدم» في العِشق.

وليلة مات، تقلّبت في الفراش طويلًا، إلى أن خلدت لنومٍ عميق،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وفي الحلـم، بـدا لم تعُـد النّهايـات تعنيه كثـيرًا، في الغالـب لم يكن يعنيه سـوى بدايتي، ربّما باتـت كلّ النّهايات- إليه - أمرًا نسـبيًا مجرّد التّفكير فيـه عبـثٌ، كان يتـوكأ - في اسـتنادة أقرب للتشـبّث بطوفٍ خشـب- عـلى كتفـي، وإن بـدت الشّـمس في حمرتهـا المزاجيـة الغاربـة نخـرج، نجلـس رفقـة أحدنـا الآخر عـلى شـطّ النّهـر في «بلخ»، وشرفـة البيت مـن الوراء تطالعنـا ونحن نسـامر النّهر، قـال أبي:

- ماذا تريد أن تصطاد اليوم؟

وغمـز بطـرف عينـه مداعبًـا، وتركنـي أرمـي صنّارتـه نحـو فضاء النّهـر، وانتظرنـا معًا.

- في القديـم، حـين فقدت أمّـك، قلت لنفسي أكفّ عـن الصيد، إنّما كنـت أنت الملاذ مـن الوحدة.

- تُرى يا أبي! لأيّ حدٍ أشبه أمّي؟

- لحدّ الكمال.

ثم هزّ رأسه في أسف وأكمل:

- اُنظـر يـا ولـدي، لقـد فرُغـت الدنيـا إلاّ منّـا، لم يعـد لنا غـير ذاك البيت...

ولوّح بإصبعٍ هزيلٍ للوراء...

- والتذكّر.. والصيد.

قـرص الشّـمس يغطـس في خطّ المـاء البعيـد، تتداعى قبالتنـا متون السّـماء النّهاريـة، فتسـبح ظـلال اللّيل - رويـدًا - بين أكـفّ الأفق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المفرودة، أقول والصنّارة لم تؤتَ صيدًا بعد:

- أُف..!

ينهاني أبي عن التعجّل، يقول في حكمة صاعدٍ إلى السّماء:

-الصّبر يفاجئك بالمعجزات.

فأصبر، أنتظر معه خروج أولى مكاسب الصنّارة، يحمل لي الهواء نسمات من حنين، وأنا أديم تأمّلي في جانب وجه أبي المليء بصفعات الزمن. لمَ عيناك شاخصتان في عبّ المياه؟ تُرى يا أبي ما الذي قد يسفر عنه صيد اليوم؟ مالك شارد شرود الموج؟ هل يحفل شرودك بالذّكريات؟ لو أنّ لي صبرًا في ذاك الملكوت كصبرك لأمسيت شائخًا دون الميعاد.

يهتزّ بين أنامله خطّ اتّصالنا بالنّهر، ترتجف يده قليلاً فأثبّتها بمسكة من يدي العفّية، نشدّ سويًا الصنّارة والموج يتلألأ، يظلّ أبي يلهث منفعلًا كلّما دنا صيدُنا من سطح الماء، ثم فجأة أغشى عيوننا بريقٌ لم يكن في بهائه مثيل، كانت نجمة أرجوانية.

نلمّ سويًا—وأنفاسي مُختَطفة- بدن النّجمة الرخو وندفئها في ثوبي.

- أبي إنّها نجمة حيّة.

- ومتى كانت النّجوم ميّتة؟ كلّما أفلت روح على الأرض سقطت نجمة من السّماء في مجهول النّهر.

أخذت النّجوم المتألّقة في السّماء تصطفّ أعلانا في منظومة قدرية وهي تطلّ على صاحبتها التي تضطجع في حِجري، كانت النّجمة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ترتعش بين ساقيّ كأنّها لم تعرف الدفء أبدًا، أو لعلّها تعزّيني فيمن فقدت! لا أدري! تخالط عليّ الأمران فأوشكت أن أنجرف نحو فضاء الذّكرى، وثمّة دمعٌ يتقاطر على النّجمة في حجري فتنتفض أكثر كما لو أنّها تُحيى من جديد، كم فقدتُ؟ ليس لي سوى حلم يتحايل بأواصر البقاء!

موج النّهر يتدافع نحونا مزدانًا باللّمعان، ومن صفحته تخرج هوام فردوسية مضيئة إضاءة ذكرى لم تبارحنا. قال أبي في وهن:

- تلك أرواح البحر تحتفل بتمام صيدنا.

ومضى يردّد مبتسمًا:

- كلّ روح آفلة نجمة في بحر.

وفي السّماء، تدور النّجوم دورة غير مسبوقة، يحتويني غديرٌ من سحر طالع إلى أعلى، يمسّ رُوحي والنّجوم، فأشعر بنبضها، ودفئها، وأروم صوب لذّة الإحساس بالبريق الذي أضاء الكون من حولنا.

- أبي.

أهزّه، لكن الابتسامة التي كست شفتيه جمدت، ورأسه تساندت على منكبه، وعيناه اللتان شردتا منذ قليل ها هما قد شردتا شرود الأرواح التي سكنت البحر.

مصفوفة النجوم بأكملها مضت تتساقط نحو البحر نجمة تلو أخرى، كأنّ العالم إلى فناء.

أفقت من نومي وقلبي مطمئنٌ، أدركت أنّ أبي إنّما استقرّ في حيّزٍ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أرحب، كانت الغُصّة فقط في أنّي لن أراه ثانية إلّا عبر أحلام متفرّقة.

بعد وفاة أبي بأشهرٍ قليلةٍ، التحقت بدرس الشّيخ «السّيد برهان الدّين محقّق ترمذي»، كان صديقًا لأبي، ومريدًا له، وفي الحقيقة هو من أرسل في طلبي، وحثّني على الانضمام لدرسِه، بدا شعُر بحاجتي للاستزادة من العلم والمعرفة، ولعلّه أدرك أنّي بموت أبي سأنقطع عن هذا، وكان قد انتقل منذ قريب من «قيصرية» إلى «قونية».

ربّت الشّيخ «برهان الدّين» على كتفي يومذاك، وقال لي:

- اظفر من تراث والدك بالنّصيب الكامل، ومثل الشّمس، ستنثر النّورَ على امتداد العالم.

وكان لمولاي الفضل في إشباعي بدروس الرّوح، درسًا بعد درس، يومًا بعد يوم.

والشّيخ «برهان الدّين محقّق ترمذي»، من السّادات الحسينية في «ترمذ»؛ التي أغار عليها التتار وأهلكوها، عندما جاء إلى «بلخ» في شبابه، أراد الاستقرار هناك، وعندما قابل أبي؛ سلطان العارفين، وكان عشق الحقّ غالبًا عليه، صار مريدًا له من القلب والرّوح، أدركت بعد فترة أنّه انتقل من «قيصرية» إلى «قونية» لرعايتي بناء على وصية من أبي، من أجل أن يتمّ أمري - وفق ما قال لي - على أكمل حال، وأصعد في سماوات الرّوح مثل مَلَكٍ من الملائكة، وأكون سببًا في حياة النفوس البشرية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وصف الشّيخ «برهان» أبي قائلًا:

هو حُجّة الحقِّ، والواصل إلى الحقّ، والمُكمّل، والمتمم.

ثمّ يقول معتزًّا أكثر بشيخه:

- أرى الأنبياء والأولياء في اللّوح المحفوظ، أعرفُ كلّ واحدٍ منهم، وبعد «أحمد» المُرسلُ وُجِد كثيرٌ من الأولياء، لم يكن لأحدٍ منهم منزلة سيدنا «بهاء الدين»، ليس في هذا مُراءةٌ.

تقع مدينة «قونية» جنوب غرب «الأناضول»، وتعتبر من أقدم المدن التاريخية ومن أوائل المدن المأهولة في تاريخ البشرية، تشتهر بتاريخها العريق، ثقافتها المتنوعة، ثرواتها الطبيعية، ومدارسها الدّينية.

يحلو لي في أغلب الأحيان أن أتسكّع بين شوارعها ودروبها، أقف أمام قصر «سرايا» الذي أمر ببنائه السّلطان «علاء الدّين كيقباذ»، تسرح عيناي مع عظمة بنائه وروعة زخارفه، أشعر أنّ الأرواح تخرج من بين بطون القصر مغتسلة، تصعد إلى السّماء مطمئنة، وتعاود رجوعها آخر كلّ ليلٍ.

أتحسّس نصب «فاصلار» التذكاري، وأقول لنفسي: ماذا لو اجتاح المغول هذه البلاد أيضًا؟ هل سيبقى فيها قصورٌ أو أثر!

بحيرات «قونية» جمالها ساحرٌ وخلّاب، تعتبر موطن العشاق من طلعة الصّبح وحتّى المغربية، بحيرات «مكا» و«طوز» و«ميرام»، يجلس على ضفافها المغرمون والدّراويش، يبتهلون ويسامرون المياه، ينتشر فوق وجوههم رذاذ المياه المتطوّح من الرّيح، فتنتعش القلوب،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وتُولد من جديد.

وعلى ضفّة بحيرة «أوبروك» أجلس، أتأمّل أقواس قزح التي تلتمع فيما وراء خطّ اتّصال المياه مع السّماء، تعتركني الذّكريات، وألوان البحيرة تتبدّل بتغيّر ساعات اليّوم، ففي الصّبح لونها أزرق، وفي الظّهر أبيض، وفي العصرية أخضر، والمغربية يصبح لونها أرجوانيًا بلمسة الفيروز، أداعب بأنامل قدميّ سطح مياهها، وتمرح رُوحي بين أغادير العِشق الإلهي.

على ضفّة بحيرة «أوبروك» قابلت أولى زوجاتي؛ «جوهر خاتون»، رأيتها كأنّها طالعة من لوحةٍ فنيّة استثنائية، كانت جالسةٌ على كرسي من خيزران تتطلّع في متن المياه، يشفّ وجهها شجنٌ واغتراب، شعرها بلون الكُحل، ووجهها بلون المرمر، شدّني لها أثيرٌ مُعجز، فظللت سارحًا في ملامحها وبدت أنّها انتبهت، فهبّت من فورِها وغابت خلف أديم الغروب.

وباتت ضفّة بحيرة «أوبروك» ملاذي حين يستأسد بي الشّوق ويلعج في أحشائي، غابت أسبوعًا، حتّى ظننت أنّها مرّت على البحيرةٍ مرور الكِرام العابر، وفي اليوم الثّامن جاءت ومعها طفلةٌ صغيرة لم يتجاوز عمرها سنواتٍ خمس، أجفلتُ، وخطر في بالي أنّها ابنتها، فأصابني الغمّ، وعدمت إحساسي بالأمل في لحظة، وبدا على ملامحي، وكدت أنصرف، لولا أنّ والدة البنت جاءت، واصطحبت ابنتها وغادرت، وبقت «جوهر خاتون» جالسةً على ضفّة البحيرة، كمن تنتظر تجرّأ وجسارة، دنوت منها وعجز لساني عن فتح ثمّة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حـوار، ظلّـت توليني جانـب وجهها، لكـنّ ملامحها بـدت مطمئنة، تشـجّعت وبادرت بالقول:

- إنّنا البشر كثيرًا ما تتبدّل أمزجتنا كألوان هذه البحيرة.

بـدت أحسّـت أنّي فيلسـوف عاجز عن طرق سـكّة حـوار أكثر لُطفًا وشاعرية، فابتسـمتْ، ولم تردّ.

أطرقـت برأسي، مـا هذا الذي أقولـه؟ أيّ أمزجـة وأيّ ألـوان! ألهذه الدّرجة غلّ لسـاني؟

- أنا «جلال الدّين الرّومي» ابن الشّيخ «بهاء الدّين البلخي».

قالت:

- بالطبع سـمعت عنك، ليس أكثر من اسـمك ذيوعًا وشـهرةً، أنت مولانا.

طمأنني معرفتها السـابقة بي، فتحمّسـت أكثر، ودنوت التصقت بها، فأزاحت نفسـها قليلًا، وقالت:

- اسمي «جوهر خاتون»، أسكن غرب «قونية» لو أنّ لك مسعىً.

ثـم قامت برفقٍ وغـادرت، في اليوم التّالي فاتحت مـولاي «برهان» في أمرها، فأثنى على اختيـاري وقال:

- أعرف نسبها، أبوها رجل ميسور وأصلها عريق.

بعـد بضعـة أيّامٍ، كان عقد قراننا، في مسـجد «صـدر الدّين القنوي»، وهـو عبـارة عـن ضريـح مسـجد ومدرسـة وحمّـام، في حمّـام المسـجد تأهّبـت للزّفـاف، شـطّفتُ جسـمي ورُوحـي وقلت لأكن مسـتعدًا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

للقاء «جوهر خاتون»، أحببتها حبًّا صادقًا، وأنجبت منها ولدين: «سلطان ولد» و»علاء الدّين شلبي».

كان ولداي يكبران يومًا بيوم أمام بصري، ولكنّ «علاء الدّين شلبي» كان عنيدًا، وفيه كِبرٌ وغرور، حدّ أنّه تطاول عليّ يومًا ولم يزل في سنٍّ صغيرة، بُحت لمولاي «برهان» عن الأمر، فتأسّى، وقال:

- ولدُك تسكنه وسوسة، عليك بالأئمة والمساجد.

طفت به على كلّ مساجد «قونية»، وشيوخها، مسجد «عزيزية»، مسجد «السليمية»، مسجد «شرف الدّين»، حتّى مسجد «الباب» الذي يقع على حدود قلعة «قونية» القديمة، ومسجد «أشرف أوغلو».

بلا جدوى، كان الصلف يكبر في عينيّ الولد كلّما نضج، الغريب أنّ كلّ الشيوخ والأئمة اندهشوا لكوني أنا تحديدًا، صاحب الولاية، متحيّرًا في أمر كهذا، قلت لأحدهم:

- وإنّما الأمر إذ يقع في يدك تعجز.

وأشار عليّ مولاي «برهان» بزيارة لصديقٍ من القساوسة في كنيسة «آيا ألنا»، رافقني، واستقبلنا القسّ بحفاوة بالغةٍ، وأجلسنا وطلب لنا كوبين من «الآيسون»، قصصت عليه ما كان من أمر ولدي، فضحك، واستطرد:

- وإنّما تلك طبيعة النشء يا مولانا، النّفس الفائرة والعقل المتمرّد، دعه يستكمل معرفته وعلمه ليكتمل حلمه، ساعتها ستهدأ رُوحه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وتنعقد سريرته.

- ولكن ابني الأكبر لا يُشبهه في شيء.

- تلك طبيعة أخرى من طبائع الإنس، من فينا يُشبه أخاه يا «رومي»؟

منطقه أقنعني، فبدأت أصطحب ولدي معي لدروس الشّيخ «برهان»، حتّى وإن كانت سنّه صغيرة لا تسمح، رغم ذلك، أدهشني بذاكرته وتساؤلاته واستعداده الشغوف بالمعرفة، وراح ولدي يحفظ الشّعر برُوحٍ وافرة الحماس، إذ كان سيّدي «برهان محقّق» مولعًا بالشّعرِ أكثر من أبي، بشكل خاص كان ولعه شديدًا بـ«سنائي الغزنوي»، لذا؛ أحبّ ولدي شعر «سنائي» بدوره، وبات مُولعًا ومفتونًا بالشّعر في دروس مولاي «برهان».

واظبت على رفقة الشّيخ «برهان»، والاستماع لدروسِه، وحفظ أشعاره، عامًا من بعد عام، وولدي يكبر وسط تلاميذ مولاي، ولمّا أحسّ بأنّي أتممت منهجي واكتمل بنائي الفقهي والعلمي، قال لي في خلوةٍ من خلواته التي كان يطيب لي الجلوس فيها:

- أي روحي ونور عيني، برغم أنّك بذلت جهودًا في تحصيل العلوم، وصرت مُشارًا إليك بالبنان، اعلم أنّ وراء هذه العلوم علمًا آخر، هذه العلوم قشرٌ له، وقد آثرني والدُك بمفتاح ذلك العلم، ومطلوب منك تحصيل ذلك العلم.

كنت قد صرت مريدًا له، لصيقًا، حبّه سكن أعماق روحي، وبين يديه كنت كفانٍ يتعلّم دروس الأبدية والخلود، تشرّبت على

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يديه فضائل العلوم اليقينية، ولُقّنت طرائق السّلوك وآداب العلماء والمشايخ، تثبّت بيدي يومًا بعد يومٍ، ولم يتركني في عرض الحيرة، بل صبر عليّ كأنّي ابنه، وعندما شعُر باكتمال ولايتي سجد شكرًا لله، وطواني على صدره، وقبّلني في جبيني، وقال:

- أنت في جميع العلوم العقلية والنقلية والكسبية لا نظير لك في البشر، وصرت المشار إليك بالبنان لدى الأنبياء والأولياء في أسرار الباطن وسرّ سير أهل الحقائق ومكاشفات الروحانيين، مأذونٌ لك أن تباشر هداية الخلائق وإرشادهم والأخذ بأيديهم.

ولطالما كان يشدّد عليّ ترك الدنيا وعدم الانشغال بها، أو الانخداع بمظهرها البرّاق، إذ المحبّة لا تُبقي ولا تذر تعلّقًا بالدّنيا، وإذا أحبّ الإنسانُ ربّه وعشقه كان قُوته ذِكرَه، فهو معشوقه الأوحد، ولا يشرك في حبّه شيء.

أذكر أنّه أوصاني قبيل وفاتِه بردحٍ:

- مخالفة النفسِ شرطُ القربِ، فكلّ استجابة للنفسِ بُعدٌ عن الحقّ، وبقدرِ المخالفة يكون القربِ للمحبوب، احذر، إذا صالحت نفسك صرت في حربٍ مع الله، وإذا كانت مخالفة النفس شرطًا، فإفناؤها ضرورة، بحيث تبدأ الولادة الجديدة، ويتحقق السّالك بـ(موتوا قبل أن تموتوا)، إنّ لُبّ العبادة هو إفناء النّفس، وبقيةُ العبادة ليست سوى القشر، وما لم تفن عن هذا الوجود، فلن تحصل على وجود من وجوده تعالى، فمُت قبل الموتِ، وادفن نفسك في قبر مخالفة النفس وابتهج.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وكنّا نسير نتفقّد تفاصيل العالم، وبدا كأنّه أدرك جُلّ المعرفة وجوهرها، وحثّني على التريّض، قال إنّ الرُّوح إن تتريّض تصحّ. ومن أهم الرياضات الصّوفية التي حضّني مولاي «برهان» عليها؛ الصّيام، الصّيام بترك ما سوى الله، لا ترك الطّعام والشّراب فحسب، أو ترك الحلال والحرام، بل أن يترك السّالك كل شيءٍ دون الله، حتّى يخفّ جسده بما فيه من ثقل الرّغبات، ويتحول هذا الجسد من سجنٍ إلى سراجٍ ومصباحٍ يُضاء بنور القرب والمحبّة، فالصّيام يحقق الهدوء والأناة والصّبر.

قال وهو يبتسم:

- علينا أن نهدأ قبل أن نتكلم، علينا أن نتروّى قبل أن نُقدم على إحداث أيّ أمر من الأمور، على الإنسان أن يتوق إلى الحقيقة مثلما تتوق السّمكة إلى الماء، ليس فقط أن تتوق إلى غدير أو جدول، بل إلى محيط، وهكذا يمكن للسّمكة أن تتحول إلى تمساح، ولابدّ من بحرٍ لكي تغدو السّمكة تمساحًا.

ذات يومٍ حضرته سيّدة؛ صارت مريدة له فيما بعد، سألته:

- إنّك في الصّبا قد أكملت الرّياضة والمجاهدة، فما معنى أنّك في آخر العمر لا تصوم ويفوتك أغلب الصّلوات؟

فقال:

- يا بنتي، نحن مثل جمال الأحمال، حملنا الأحمال الثقيلة وذقنا شدائد الزّمان وقطعنا الطّرق البعيدة والطّويلة، واجتزنا مراحل ومنازل لا حدود لها، وأسقطنا صوف الوجود ووبره، فصرنا ناحلين

This file was downloaded from QuranicThought.com

ونحيفين وغير مرغوب فينا، وأصبحنا تحت الأحمال الثقيلة قليلي الأكل ضيقي الحلوق، والآن رُبطنا لأيّام قليلة لأكل الشّعير وعندما نسمن نُذبح في عيد الوصال، لأنّ الأضحية الضعيفة لا تصلح في مطبخ السّلطان وتسمّن دائمًا.

ومولاي «برهان» يرى أنّ الشّيخ الصّوفي والمرشد والمعلم، هو الذي يُدرك المعنى الحقيقي للإسلام، وهو حامل رسالة العشق والمحبّة، إذ يقول:

- كتاب الله باطن الشّيخ، الكتابُ هو المعنى الذي توارى فيه، لا يُعلّم الشّيخ الأسرار فحسب، بل هو الذي يوصلك إلى كلّ شيء، فالشّيخ مثل شجرة عظيمة للدّين، جذورها عند الله وفروعها تظلّل البشر، وعلى المريد أن يطلب ظلّ الشّيخ، ليكون ملجأ يظلّله من شمس الدّنيا الحارقة، والشيخ مثل المرآة تنظر إليك بقدر ما تنظر إليها، وعلى المريد ألّا ينظر إلّا إلى شيخه، إذ بينه وبين الحقّ لا يبقى قيد شعرة.

علّمني مولاي «برهان» أنّ العلمُ حجابٌ، إذ بعد أن يتمّ السّالك معرفة العلوم بكافة أنواعها يصير مبتدئًا في طريق السّلوك، وكرّر عليّ غير مرّة:

- لتكن جوهرتك هي أنت، أنت أنت وأنا أنا مُحال، أنت أنا وأنا أنت وصال، وإنّ ذِكر الله يغدو كاملًا عندما ينسى الإنسان كلّ شيء إلّا الله، وعندما يكتمل ذكر الله يحصل النسيان لغيره، فكلمات المحبوب حياة، على المريد أن يشغل نفسه بقراءة القرآن، وترديد كلمات الحقّ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

على لسانه، ومتى ما فرغ من هذين العالمين؛ عالم الظّاهر والباطن، صار حيًّا يرى الحقّ.

لم يكن مولاي يقيم وزنًا كبيرًا لقواعد الجرح والتعديل التي يهتم بها أهل الحديث، ولا يرى أنّها مدعاة للافتخار كما هو الشّأن قديمًا، فهذا المذهب عنده غيرُ مُرضٍ، إذ أنّ المعرفة الحقيقية تكمن في معرفة الله، والمحروم من هذه المعرفة يظل محجوبًا عن الحقيقة، ولا يمكن أن يكون يومًا ما عارفًا، أما العارفُ فمن اعتنق مذهب (حدّثني قلبي عن ربّي).

ظللت محتفظًا بكلماته ذكرى، في صحائف يتناقلها أولادي لأحفادي، تُرشدهم وتهذّب أرواحهم، أخفّف بها رُوحي من حينٍ لآخر:

- «الرّوح من نور عرش الله مبدؤها، وتربة الأرض أصل الجسم والبدن، قد ألّف الملك الجبّار بينهما، ليصلحا لقبول العهد والمِحنِ، الرّوح في غربةٍ والجسم في وطنٍ، فارحم غريبًا كئيبًا نازحَ الوطن».

- «أحياني بحَياته وأنارني بنُور ذاتِه».

- «البدن يفنى ويموت والرّوح لا يفنى ولا يموت».

- «الأُنْسُ مَعَ اللهِ نُورٌ سَاطِعٌ، وَالأُنْسُ مَعَ مَا سِواهُ سُمٌّ قَاطِعٌ».

- «الْبُهْتَانُ عَلَى الْبَرِيءِ أَثْقَلُ مِنَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَالْحَقُّ أَوْسَعُ مِنَ الأَرْضِ وَقَلْبُ الْقَانِعِ أَغْنَى مِنَ الْبَحْرِ».

- «الذّكرُ خروج من ميدان الغفلة إلى فضاء المشاهدة على غلبة الخوف

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وشدّة الحبّ».

- «الشّوقُ نورُ شجرة المحبّة والعشق ثمرتُها».

قلت لولدي بعدها بسنوات:

- انضج وابتعد عن التغيّر وامض مثل «برهان محقق»، وصِرْ نورًا، وإذا ما تحرّرت من نفسك، صرت كلّك برهانًا.

بعد سنواتٍ، استقامت رُوح «علاء الدّين» كثيرًا، لكنّه حزن واعتكف عندما مات «برهان» مولاي، حزنه كان أكبر من حزني، وقال لي في حسرة:

- مات الذي أطعمني الشّعر والتصوّف.

بعد وفاتِه، وشيئًا فشيئًا، حللت مكانه في المدرسة، زاولت العمل في دروس الوعظ والفقه، وكانت حلقة تلاميذي تتّسع، طرقت دروبًا جديدة في علوم التصوّف والإسلام، بل إنّي اختلقت دروبًا لم تكن من ذي قبل، فتألب عليّ بعض الأئمة والمشايخ، ظنًّا أنّي أفتري على علومهم وفقههم، لكنّي في خطبةٍ أمام جميع أئمة ومشايخ المدرسة قلت :

- إن الله إذ أنزل كتابه فإنّما أنزله للتدبّر والتفكّر، واجتراح الحجّة بالحجّة، والعلم بالعلم، أنزله ليمضي بنا نحو تطوّر ابن «آدم»، لا لنمضي به على علّات زمانه وظروفها، في الكتاب كلّ آيات التقدّم، وإنّنا كي نُبقي على مساحات الأمان لا نخوض في المسائل التي أوجب الله علينا الخوض فيها، الشرع موضوع، وإن كانت أصوله في الكتاب، ومن خصائص البشر التأمّل والابتداع، هذا ما خُلقنا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لأجلـه في المقـام الأوّل، فكيـف بـالله لا نطـوّر مـن مسـائلنا إن كان الله نفسـه أمرنا به!

لكـنّ الحـرب دامـت تسـتعرّ نحـوي، فنُفيـت لبعـض الوقـت إلى «دمشـق»، بأمـرٍ من حاكم «قونيـة»، تراءى لـه أن يلطّـف الأجواء كيما تهـدأ النّفـوس الفائرة، ويسـتتبّ الأمر، ومن ثـمّ يجوز أن أعـود في فترة صفـا، وفي «دمشـق»، التقيـت بالإمـام الأكبر «محـي الدّين بـن عربي»، أهـداني كتابـه «الفتوحـات المكيّـة»، أخـذت أنهـل مـن علمـه الوفير، واتّسـاع رؤاه، وتطـوّرت بداخـلي محاسـن الجانبـين؛ جانـب المعرفـة، وجانـب العرفـان، وكـم كانـت العقـول الدّينيـة في «دمشـق» عظيمة! هناك تعرّفت إلى خبايا السّـلوك الفقهي، وتمرّسـت في اسـتبيان جواهر العمـل الصّوفي.

لم أعـد إلى «قونيـة» إلّا بعـد مـرور أعـوامٍ أربعة، عندما أرسـل ولدي «سـلطان ولـد» خطابًا يُبلغني فيـه أنّ حبيبتي «جوهـر خاتون» رحلت عن دنيانا.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

شمس الدّين التبريزي

قونية/ الأناضول –٦٤٠ هـ

(طريقُ التّصوف سبيلُ كسيري القلوب،

المشيحين عن العداوات والأحقاد).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عـاودت الرّحيـل، وكان العـالم قد بـدأ يتغـيّر، تحيّر مـولاي، ولكنّي سُـكنت بيـأسٍ لا يماثلـه يـأسٌ، طفـت بـين المُـدن، يرافقنـي طيـف «كيميـا»، سرت تحـت المطـر لا أكـترث، شـاهدت الثلـوج تتطاير من خلـف أسـنّة الجبـال، نمـت في أحضـان المجذومـين، ولم أر الله في رؤيا لسـنواتٍ، لعلّـه ظـلّ غاضبًا منّي، فقـد هجوته وتشـاجرت معه، قلت لـه: إنّ عشـقك وهمٌ.

في ليلـة مـوت «كيميا» توسّـلته، انتحبـت ورجوته أن يهبـط، لو أنّك هنـا عُد بهـا إليّ، لـو أنّك عاشـقي لا تُفجعني.

في هـذه اللّيلـة كِدت أفقد إيماني بسـائر المقدّسـات الرُّوحية، اشـتعل البيـت، فجـأة وجّت كُتلـة من النّـار، راحت تتصاعد لأعـلى، انتشرت تلتهـم مسـاحات الأفـق، وبـدت غاضبـة، بـدت كأنّهـا مبعوثـة مـن عنـد الله لتعذّبنـي، كانـت النّـار تتراقص تحت سـجف السّـماء، تشـبّ وتتراقـص بجـذل، ولم تكـن لتشـبع، لم أسـمع صراخ «كيميـا»، كأنّهـا انمحقـت في لحظـة، صرخـت، صحـت به:

- هل أنت غافٍ؟

وكأنّـما لم يُنصـت لعـذابي، حاولـت اقتحـام النّـار والدُّخـان، دون جـدوى، عزلوني عـن موضع الحريـق، تكالبوا فوقـي، ولم أزل أصرخ، حجـزوني فلم أدخل لإنقـاذ حبيبتي، تمزّق جسـدي، تناثر مع صراخي إلى أشـلاء، وبـدوت أعـوي، النّـار في أحشـائي أكـبر، دعـوني أرافقها، ولكنّهـم قيّـدوني بأياديهـم، وأُرغمـت على مراقبـة النّـار وهي تطقطق عظـام البيت.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وعندما أطفئوا النّار، لم يكن قد تبقّى من جسد حبيبتي جزءٌ واحد، وقد ذابت.

* * *

قالت لي «كيميا»:

سأحكي لك حكاية يا «شمس»، عن ملاك وإنسان وسهم.

السّهم في يد ملاك، والسّهم يعرف طريقه القدري إلى قلب إنسان، لكن؛ عن طريق الخطأ، كذلك ربّما عن طريق صدفة قدرية أو مداعبة من صديق، رشق السّهم.

في بداية المساء، ولسان من الشّفق أحمر اللّون يمد ذراعيه واقفًا يباعد ما بين جسديّ النهار واللّيل المتلاحمين، انطلق السّهم.

لم يكن هناك مجالٌ للخطأ، فعلها ملايين المرّات، هي حرفته الوحيدة في السّماء، أن يحمل جعبته فوق كتفه ويجوب الأرض بحثًا عن المستهدفين ثم يرمي سهامه فتصيب القلوب، لكن هذا اليوم، على الرّغم من أنّه يثق أنّ الهدف كان أمام بصره، كما لم يكن منشغلًا عنه، ولا فاقد التركيز ولو لثانية، انحرف السّهم، فتح فمه مندهشًا: كيف انحرف؟ دعك عينيه جيدًا، ثم أطلّ برأسه مرّة أخرى، ووجد أنّ المشهد لم يتغيّر، لقد انحرف، هكذا، وكأنّ يدًا خفية بدلّت مساره، وجده فجأة رقد في قلب بنتٍ صغيرة، كان يريد أن يصيب السّهم صبيًّا يقدّر معنى العِشق، لا بنتًا قلبها لم ينضج بعد، غير أنّ الرّيح لاعبته، أو ملاكًا آخر داعبه، أو القدر بنفسه، إنّما قرّر أن يحيد السّهم عن طريقه، ليستقرّ في قلب البنت.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

قامت الدّنيا، السّماء الهادئة فوقه امتلأت بالغيوم والرّعد والأضواء، الأمطار تنذر بالشّر، إنّها تسقط على رأسه كما الإبر، بسرعة هبط نحو الأرض واحتمى بجدارٍ طيني من جدران بيت من البيوت الخانعة التي تنبثق في المدينة.

كنت بنتًا صغيرة عندما سقط السّهم في قلبي يا «شمس»؛ فأحببتك.

وضحكت «كيميا»، ملأت ضحكتها فراغ العالم بالورد واللّون الأبيض.

* * *

غافٍ ضوءُ القمرِ فوق عيدان الذرة المشبّعة بالندى، وضحكتكِ يا «كيميا» تستطيل وتعبّق المدى، تنعس رموشُكِ بين العيدان التي تلامس حنيني إليكِ، والله ينازعني فيكِ، كم أخشى أن تأنَسي له وتنسيني! وتلقي بي يابسًا كعود ذرة جاف حُبس نبضُه بين العيدان السّامقة، إنْ كان القَدَر يا «كيميا» أن يشاركني الله فيكِ، فاهبِطْ يا الله لو استطعتَ، اهبِط، وسوف أتركها لك.

يرافقني طيفُها الشفيف في غيبة الرّحلة، أسمعها تهمس في أُذُني:

- لو أنّ اللحظات الحلوة تطول...!

فأستدير نحوَها مبتسمًا وأنا أحدّقُ في طيفِها.

في شوارعِ النّور داخل عينيك يا «كيميا» أطوف، أراقب وأرى وأتيقّن، أحاول لململةَ ما تبقّى مِن أطنان الإنس الذين تاهوا فيهما، وأكنس ترابَ الزمن المُهدَر، أدور حافيًا كمجنون في الميادين الصّاخبة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في عينيـكِ، يـا جنّـة تخفـى عـن كلّ العيـون إلاّ عينـي، بيننا يـا «كيميا» أسـطورةٌ فريـدة، تجعل الكـونَ بـأسره مجرّد شـارعٍ صغير نجوبـه معًا.

بـين المُـدن والوديـان والأراضي أفترش شـوقي وأتمدّد، تحـدوني كلّ الذكريـات الأليمـة، أحـاولُ أن أتمـلّى في خريطـة التحـوّل مـن رَجـلٍ لرَجـل بداخلي، فأجـدني سرعان ما أخيـب، أتوه، أحـاول أن أتبيّن كلَّ التضاريـس التـي صنعهـا الماضي، فأتـألمّ، يرفـض خيطُ المـاضي وصلَه بخيـط القـادم، تظلّ مسـاحةٌ معتمـة راكدة ما بـين الزّمنين، وأشـعر أنّ ثمّـة رحلـةً أخـرى للعاشـق بداخلي، رحلـة معلّقـة، ككلّ رحلـةٍ كان وجعُهـا بغـير نهاية، في نفـس العاشـق القديمة، إنّـما لم تنتهِ بعـدُ، رحلة يمـدّ معها الحـزنُ خُطـاه ملازمًـا، يغمس في قلبـي أصابعَ مِن شـطط، ويـؤرّخ لألف جـرح، ألف همّ، فتحبو داخـل الأوردة والشرايين نيرانٌ لا يطويهـا زمـن ولا تحايـل، وهناك على المدى البعيد مَرسـىً، أشـعر به يَغـرق معي، تضيـق الدّنيا بدونك يـا «كيميا»، أنادي على المَرسـى، على حُلمـي الأخير، يتبـدّد النداءُ فوق أشـواكٍ منثـورةٍ في الطّرقات، وتلوح الأشـواق المعطّرة بالعذاب.

مـا الـذي خانَنـا في الحقيقـة حبيبتـي؟ هـل هـي الطّريـق؟ هـل هـو الظـنّ؟ سـوء الاختيـار؟ هـل هـو الله؟

هـل تُهنَـا حقـاً في الـسّراب؟ أم في لحظات الغيـاب؟ هل صـار محرّمًا استشـعار أيادينـا للـدفء؟ هـل صحيـح البـكاء فـوق أطـلال الماضي محـرّمٌ كذلـك؟ مـا الحـلالُ إذًا؟ أن يُربـط دعاؤنـا بالمحـال؟ أن نُصلَب لاعتناقنـا مذهـبَ اليقين؟ تعـالَي يا «كيميـا»، تعالَي نبكي فـوق ضريح

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الحبّ، تعالَي نتفقّد معًا ما آلَ إليه المصير.

يزعم مَن يعرفني إنّ دمعي عزيز، لكنّني أبدو وكأنّي سأغطّي الدّنيا بدمعي الآن، أيّها الدّمع، كُن ذكراها وأغرِقِ الأجواء، كم تمنيت أن تُولد بعينيها، وتَفنى فوق أكفّها، كم تمنّيت أن تكون هي نفسها دموعًا لي، فلا أبكي على الإطلاق كي لا أخسرها، تظلّ راقدةً بوجداني، وكم تمنّيت أن تسيل ملامحنا فنراها بين أيادينا، وأراها تتداخل عينًا مع فم، فلا أعرف إنْ كانت ملامحها أم ملامحي! لا أعرف إنْ صرنا بشرًا أم جنًّا، مجذوبين يهيمان بين الكواكب والنجوم، نذوب بعيدًا عن هذه الحياة، نُنقَش فوق كلّ وجوه العشّاق، نُنقَش كحكايةٍ قدَرية مقدّسة، نبلغ حدّ اللا معقول، نفرش أذرعَنا على الكون، نسكن الحُلمَ المسالم، نبحث عن وطنٍ بديلٍ للفضيلة يا «كيميا»، نترك كلّ المَشاهد السّوداء في بلاد الموات ونمضي، دون حدود، دون فواصل؛

ودون أجساد.

* * *

الشمسُ كانت تنسلّ بتؤدةٍ متواريةً متلفّحة برؤوس الجبال البعيدة، وأنا أسير حذاء نهرٍ صغيرٍ كسته الثلوج.

الأمواجُ تَجنح مِن منتصف الخيط المتهادي نحو الشّمال وتضرب الشطّ في وهَنٍ وفي تكاسُل، ثم سرعان ما تتفتّت وتعاود الانبثاقَ من نقطة الوسط كطيرٍ يأبى الكلل.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أستقرّ في حانةٍ قُرب «قونية».

في قلبِ السّماء القريبة يجوب الطيرُ محاذيًا بصري يبحث عن موطن، في نفسي مانعٌ لا أستسيغه يَحول بيني وبين الاعتراف المطلق، في الواقع أجهل تفسيرَ كلّ ما يحدث لي، إنْ لم يكن الاعترافُ واجبًا فالأقلّ أن أفعل ولو مِن باب أن يستريح ضميري، كيف شاهت صورة الله التي ارتُسمت على جدار قلبي؟

إنّما لا أعرف! ثمّةَ شيءٌ ما، قيدٌ ما، يجعلني أكتفي بأن أَدفن رأسي بين أحجار النرجيلة وكأس النبيذ الأحمر، ولعلّني أغلَب الظنِ أخشى أن أفقِد ما تبقّى من عِشق في صدري، لكن هل يُمكن أن تعود لي يا الله؟ ما الذي يُمكنه أن يغلّب فضيلةَ الغفران لديك؟ هل آتِي صوبَ الحقيقة باسطًا قلبي للعِقاب؟ أم أترك الجرحَ للوقت حتى يلتئم؟

قبعتُ أسحب أنفاسَ النرجيلة حَجرًا تلو الآخر، وأحتسي الكأس واحدةً وراء الأخرى، قبعتُ حتّى علا صوتُ آذانِ الفَجر يجلجل: الصّلاة خيرٌ مِن النّوم، الصّلاةُ خيرٌ مِن النّوم.

همهمتُ في بالي: الصّلاةُ خيرٌ مِن الكرب.

كرجُلٍ كهلٍ بدأتُ في النهوض، وكأن ساقَيّ أثقلهما عبء الألم، قلتُ لنفسي في أسى:

- وكأنّي رجل عنده ألف عام!

انفرجتْ زاوية فمي عن ابتسامةٍ مشبّعة بالحرقة، مالي أقولها بصيغة

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المبالغة! أنا بالفعل رجلٌ ناهزَ الألف عام، وربّما أكثر.

فمـي يفـوح بالخمر، إنّـما لا بأس، الله يحـبّ الخمر، وإلّا مـا وعدنا بها في الجنّـة، ببطءٍ توضـأت، وببطءٍ اسـتنفدتُ طاقة مؤجلـة، كان الوهَنُ رفيقًـا اعتياديًـا في تلـك العزلة، ولكنّنـي أشـدّ وهَنًا وأنـا أختبئ داخل أسـمال ثـوبٍ بالٍ مـن صوف.

أدس قدمَيّ في القبقاب، ثم أخرج إلى المسجد.

في غبشـة الفَجـر كلّ التفاصيـل سـاجية، كانـت قدماي تتحسّسـان موضـع الـوطء عـلى الأرض، والمسـجدُ قريب، ليس أبعد من خمسـين خطـوة، وبضعـة كلابٍ ضالّةٍ تتوارى وراء حوائط البيـوت، إنّما نباحُها ظَلّ يصاحبني بطول مسـافة الوصول إلى المسجد، وكان خانعًا نباحها، كصريـرِ بـابٍ قديـم لم يُفتَـح لسـنوات، وفي الجوار شـجرةُ جمّيـزٍ هائلة تحتضـن ثلاثة أزيـار ماء وهبَهـا صاحبُها للسّـبيل وللمارّةِ العطشـانين، وبامتـداد الـدرب أزقّـة متفرّعة تتلفّح بظلمـةٍ داجنة، وريـحٌ تهب نحو وجهـي ناعمةً تسـتوقفني قليلًا.

يحتـل المسـجدُ ناصيتـين، يدخل القليلـون بعـد أن ينحنـوا ليخلعوا نعالهـم في تكاسـل، كانـوا يغالبون النعـاسَ وبعضهم يتثـاءب بالفعل.

لـتروا هيئتي الهزيلـة، الواقف أمامكم لم ينم منذ ليالٍ! لربّما يُشـعِركم هذا بنوع من النشـاط، في النهاية قد تتوسّـدون أسرّتَكم لطلوع شـمسٍ جديدة، وأتوسّـد أنا قهري وإحباطي لطلـوع يأس آخر.

بطـن المسـجد مـن الداخـل ممتلئـة بالـشّروخ، كانت تهبط مـن أعلى لتنتهي عند حواف الحُصر المفروشـة وكأنّها تنسـل أسـفلَها، أحسسـتُ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أنّ جدران قلبي مكدّسةٌ بمثل هذه الشروخ، لكن شروخ الجامع تصلح للترمّيم، أمّا شروخ قلبي فلن يرممّها علاجٌ ولا زمن.

سبحتُ في خضّم المصلين، تمايلتُ مع الإمام، وهمهمتُ في التسبيح، وددتُ لو أنزع قلبي وأطهّره من الألم والجحود في رحاب هذا الإيمان، تسح مِن عينَيّ دموع، ينصرف المصلّون ولا أنصرف، يدعوني إمامُ المسجدِ بعينيه أن أفعل، وفي غير توقير، لا أعيرُه انتباهًا، وأظلّ مقرفصًا ووجهي للمنبر، شاردًا، مفعَمًا باكتئابٍ وغُصّةٍ في جوفي، تتململ الصّورةُ أمام عيني الغائمة، وشبح الإمامِ يدنو مِنّي، يجلس قبالتي، يسند راحتَه فوق ظهر كفّي، ويقول:

- انتهت الصّلاة يا درويش.

- يستريح قلبي هنا أكثر.

أُهمهِمُ متنهّدًا، يخلو المسجدُ إلّا مِنّا، يطوّع الإمامُ حبّاتِ المسبّحة بين أنامله، فتجري لأسفلَ كقطراتِ ماءٍ صافية، يتفرّسني قليلًا، يقترب مِنّي، لكنّني أجوب عينيه بنظرةٍ حيرى، فيبدو وكأنّه شَعر بي بشكلٍ مباشر، انعقد حاجباه، كأنّني تشكلّتُ كليّةً صوبَه وتعريّت، لاح في ركن فمِه المغطّى بشعيرات شاربه الكث وشَعرِ ذقنه الأشعث ظلُّ ابتسامةٍ، بعدَها استدار بكلّ جسده نحوي وحملق فيّ للحظة قبلَ أن يردف:

- كلّ القلوب تستريح هنا يا مولانا، المهم ألّا تكون الرّاحة طارئة، لابدّ أن تريح قلبك وتستريح بخلاصٍ تام.

- في قلبي همّ لا خلاص منه!

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

- كـن صادقًـا مـع نفسـك ومع قلبك تسـتريح يـا مولانا، واسـتعن بالله.

كـدت أقـول لـه إنّما ليس يحـيّرني وليس يبعـث في فؤادي الحسـرة إلّا الله، الذي عشـقته، وتخـلّى عنّي.

وبغـير أن يصافحني الإمـام أو ينظر لي ثانيةً اسـتدار واتّكأ على عصاه واسـتقام ناهضًـا، ثم مضى فجلـس تحت المنبر في سـكينة، فقـرّرتُ أن أغادر.

ثمّـةَ طيـورٌ تشـق الأفقَ مشقشِـقة، وحركـةٌ خفيفة أخـذتْ تروج في شـوارع «قونية»، بـدوتُ متثاقـلَ الخُطَى، وقلـتُ لنفسي:

- لابد أن أستعيد الله بداخلي.

وأطرقـتُ قليـلًا، ثـم جعلـت الدّمـوع تسـحّ مـن عينـيّ، لمـاذا تأتي العـودة إلى النفـس مباغتـة هكـذا؟ ولماذا العـودة إلى النفس تشـبه كثيرًا الانـزلاقَ في منحـدرٍ وعـر؟

لم أكـن أعـرف أنّنـي رديءٌ ومسـتهلَك لهـذا الحـدّ، وكالشّريد رحتُ أمـضي وسـط الشّـوارع والبيـوت والأزقة، كوافـدٍ جاء من عـالم الحلم والأسـى، أجلـس عـلى كلّ المقاعـد أمـام البيـوت، أجلس عـلى مقهى يَفتتـح يومَـه، لا أحـد جالـس عليـه، وصاحبه يهـرول يتفقّـدني بعينيه مِـن عـلى مقربـة وقـد حملتا دعـوةً لطلـب مـشروب، أحتـسي فنجانيْن مِـن «الزنجبيـل»، أطلب اثنـيْن لأنّ «كيميـا» كانت تحب أن تشـاركني شُربَ «الزنجبيـل»، أنتظِـر أن تشـاركني شُربَـه الآن، أتطلّع إلى فنجانها الصّامـت، أقلبه بمحتـواه فيُغرِق المنضـدة، يخالني صاحـب المقهى قد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جُننتُ لا محالة، حتمًا بتُّ مجنونًا، سيأتي ها هنا في كلّ مساءٍ منذ الآنَ وينتظر، ولن يعرف أحدُهم ماذا أنتظر، كلّ ما سيعرفونه أنّ هذا المجنونَ قبيلَ الفَجر سيغادر، ولن يعرفون أنّي سأظلّ أتسكّع في الشّوارع كقطٍّ مِن دون مأوى.

كقطٍّ فَقدَ كلّ حواس المثابرة.

همت على وجهي، كان الأسى قد ضرب في روحي لحدّ الفناء، وذات مساءٍ، قوبلت من جُند السّلطان، كنت مُقعيًا تحت جدارٍ، وكانوا يقبضون على الدّراويش والشحّاذين، الذين سكنوا أحشاء الشّوارع بلا حيلةٍ، ضربونا بالسّياط، ثم وجدت نفسي أُقتادُ في جنازيرَ جهنميةٍ، رحت أتملّى في وجوه النّاس، كانوا لا يبالون، وراحوا يتابعوننا بأعينهم في غلَبة، ولكن «كيميا» كانت هناك، تطلّ من بين قامات النّخيل ثمرةً بِكر.

وكان ثمّة ضوءٌ واهنٌ يسري في خلايا رُوحي، يجعلني أرى ولا أرى، يعزّز غريزةَ الاستكشاف، بل يُمعن في ضبابيته حدّ التّشويش على ذهني، ويخلق معاناةً مستترة، وهدوءًا مضنيًا.

هو اللّيل والقدر، هو اللّامعقول إذًا موعدي مع الرّحيل.

أئِنُّ السّماءِ يتمثّل قهرًا يلتهم ملامحي، أستسلِمُ في خطواتي بجسمي المنهك -المترامي بين عوالمَ وأخرى- بين صفّين من الجنود، أرمق أسنّة الجبال الدّانية التي تطلّ على السّماء بلا حواجز، كأنّ بها تدعوني لتقرّبني من الله أكثر، أشعر أنّ اللهَ على بُعد خطواتٍ قليلة هناك فوق، أراه وأعشقه، ولكنّي في حاجةٍ إليه الآن، ولو كان غاضبًا منّي حتّى، في

This file was downloaded from QuranicThought.com

كلّ ليلـةٍ مـن لياليّ الباردة هنا كنتُ أتحدّثُ إلى الله، أتعشّـم أن يسـمعني ويسـتجيبَ لدعـواتي بأن يجمعنـي و «كيميا» معـًا ثانية، دون مسـافاتٍ ولا حـدود، بعيـدًا عن ضجيـج العالم وبلاهتِـه، يجمعنـي و «كيميا» في خلوتنـا المختلسـة التـي تـشرف عـن كثب عـلى موطـن الوجـدِ الغافي بقلبينا في هدوءٍ وسـكينة.

أختـزل كلّ المشـاهد التـي تعـترك بداخـل المـاضي أثنـاء انقيـادي القهـري، لم أزل أسـمعها تدنـدِنُ ليـلًا في لحظـات الوداعـة والهـدوء الممتـدّة لمطلـع الصّباح، تُـرى أين هـي الآن؟ أصـارت روحًـا نافقة أم طيفًـا سـيداوم زيارتِـه لي! كنّا نجلـس في وداعة العالم بعـد منتصف كلّ نهـار، تحـوّط رقبتـي بيدِهـا، ننفلت في الغنـاء، وقـد ننفلـت في البكاء، فتشـاركنا الإحسـاسَ عيـونُ النخيل بسـاحتها وهدوئها العـذب، قد ترتمـي بـين ذراعـيّ فأتخلّـل شَـعرها بأناملي وهـي تتنهـد قائلة:

- ليت لحظاتنا الحلوة تطول قليلًا!

فأقول:

- كلّ اللّحظـات الحلـوة، كلّهـا يا حبيبتـي، يُمكن أن تتحـوّل مثلنا، شـيئًا عارضًـا في مهب هـذه الحيـاة البائدة.

فوق جسـدي تهبط السّـياط، ألتفِـتُ نحوهم وأوليهم نظـرةً حارقة، كانـوا قـد أخـذوا يتبادلـون جَلْـدي بالكرابيـج، والبيوت تتـوارى عن بـصري، لم يكـن غـير اللّيل هـو الذي يلـفّ ذهني.

وذكريات الأمس.

❋ ❋ ❋

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أفتحُ أهدابي، ينجلي الظّلام بعض الشيء، وثمّة شعورٌ بألم غائر ينخر كلّ عظمة في جسدي، ألم لا يحتمل، لا يجعلني قادرًا على فتح فمي، أبدأ في التلفّت حولي بعينيْن رؤيتهما ضبابية، غرفة رطبة، ضيّقة، وضوء شحيح ينفذ خلال فتحةٍ في أعلى الحائط، ليست نافذة، مؤكّد هي فتحة خصّصت لتغيير جو الغرفة.

حاولتُ النهوضَ، فلم أستطع، بدا المكان رطبًا كقبر، خانقًا وكريهَ الرائحة، تحسّرتُ على حالي، كيف تُفخّخ لنا الأقدارُ خطواتِ حياتنا؟ يا له مِن قدَرٍ عابث جاء بي لهذا السّجن! تحاملتُ على ساقي، وغلبت الألمَ وأنا أحاول النهوض، رحت أتسنّد على الجدران، متحاشيًا النتوءاتِ اللعينةَ التي تبرز كلّ بضعة أشبار، وغبار تَداخل في أحشائي، فبات التنفّس عسيرًا، وكان عليّ أن أعيد ترتيب الحقائق في ذهني، وأجترّ الوقائعَ كاملة، ربّما منذ بداية حياتي البائسة، للمنعطف الذي أَلقى بي وسط كلّ هذه الفوضى.

بعد ثوانٍ، كان الباب الموصد قد بدأ يخروش، انفتح، وعلى مرمى ضوءٍ نافذٍ آتٍ مِن خلف ثلاثة أجساد ضخمة ميّزتُ معالم الغرفة، حوائط متآكلة، وقاذورات ملقاة في الأركان، استدرت نحو الأشباح الواقفين يسدّون الباب، لم ألمح تعبيراتِ وجوههم المختبئة في ظلال متراميـة على كلّ الجدران، إنّما دنا واحدٌ ورفعني في سهولة ورماني نحو مدخل الغرفة، وهو يقول في نبرة عنيفة:

- هيّا، تمّ العفو عنك.

الجدران، الجدران لا تُبقيني في محيط الذّكرى، سرعان ما تمنحني

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قهـرًا فأتلفّـتُ حـولي كمعتـوه، ربما كان الخـوف من المصـير، لكن متى كنـتَ تخـاف يـا درويـش؟ أنـت تعيـش بـين الجـدران طيلـة حياتك، متـى انفلـتَّ مـن الأسر، ولـو كان الأسرُ اختياريًا حتّى، إنّـما متى كنتَ تخاف؟

أخـذتُ في سـحّ الدّمـوع كخاطـئٍ يتـوب، بـدا الله يتكشّـف ثانيـة، وبـدت روحـي تعاود رحيلهـا، كانت الجـدران تتقلّص حـولي، تضيق ويضيـق معهـا تنفّسي، ولا منفـذ ضـوء، ولا منفذ.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كيرا

قونية/ الأناضول -٦٣٣ هـ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

أرى أبي يداعِبُ مزمارَه وهو مستندٌ على كتف شجرة الأثل، إنّما ابتسامةٌ شاحبة ترتسم فوق شفتيه، يتطاير النغمُ المُستدعَى مشبّعًا الأجواءَ الهادئة، كما تتطاير نحوي هوامُ زهورٍ رقيقة تمرح في الهواء، أحاول استقبالَها فوق راحتي، وإغماض عينيّ عن ماضٍ بعيد، والاستمتاع قدْرَ ما أوتيتُ بملمسها الناعم فأشعر بها تذوب بشفافية على جِلد كفّي.

كنتُ نصفَ نائمة، نصفَ حالمة.

قطرات مطر تتهاوى عليّ من السّماء، تتهاوى برفق، تدغدغ حواسي.

أراني طفلةً بنفس العباءة المتهرّئة وفي يدي عروسٌ من طين نتراقص أنا وهي على نغم مزمار أبي. ضُمّني يا أبي واعزفْ لي مِن مزمارك، امنحْ روحي بعضَ القداسة، دعني أجاور تلك الومضاتِ البعيدةَ الطليقة في غياهب السّماء.

لم تكن ثمّة علاماتٌ أستدّل بها على المنطقة التي يمرح فيها ذهني الآن، فالأصوات التي تطنّ بداخله على الدّوام لا تهدأ ولا تهجع، تلازمه في صحوٍ أو في نوم، أصوات لا يمكنني تفسيرها أو فهمها إلاّ على النحو المتوجّس، فلا أعرف هل أهزّ رأسي لأنفض عنها التشتّتَ أم أدع نفسي على منتصف الاتزّان فيما بين اليقظة الحقيقية والغفوة الحسيّة؟ وبطريقةٍ عشوائية يخيّم عليها شيء من خمول ترتدّ رأسي إلى الوراء آلاف المرّات، فيرتدّ إلى الوراء كذلك كلّ العالم مِن حولي، أتململ بجسدي الفوضوي الخامل على حصير من القشّ

This file was downloaded from QuranicThought.com

مفـروش فوق سـطح البيـت وتهفـو نفـسي إلى الإدراك الواضح.

يـا لهـذه القطـرات الناعمـة! تتسـاقط مـن أعـلى وتتحسّـسـني تمامًـا كأنامـلِ حلـمٍ نـاءٍ، كنـتُ عطشـى، وخلايـا جسـدي بأكملهـا تحاول تـشرّب مـاء المطـر الـذي يلعقـه لسـاني باسـتعذاب وشـوق، وزفرات الحلم السـاخنة تلفح شـفتيّ، فأرتعش مثل ارتعاشـةِ ذكرى مشوّشـة، تجـوب فيّ التأوهـات، التنهّدات المتقطّعـة، وهمس الحلم بداخـل أُذُنيّ، تنفتح عيناي ببطء وأحاول تلمّس سـكّة ما للهروب من تلك المسـاحة التـي تختلط عليّ فيهـا رؤى الأحـلام بوجيب القلـب، تصطّف حبّات المطـر قبالةَ عينَيّ، تسـبح في خشـوع، تتوقـف الصّورة فأتمعّـن في تأمّلٍ بطـيء هذه القطراتِ التي تحوّم في المسـاحة أمـام بصري كمصفوفة من سـحر تتراقـص، كأنّها تخلّـت عن جاذبيـة الأرض فجأة، وكانت تشـدّ نحوهـا دمـوع عيني، فتمتـزج القطرات بهـا، أدقّـق في حوافهـا البرّاقة غـير المسـتوية، وظـلال كلّ التفاصيل مِن ورائي تنعكس على سـطحها الأملـس الصـافي، فتبدو كخليـطٍ مِن وجوهٍ متشـابكة الملامـح، كما لو أنّها شـظايا مـن زجاج متكـسّر رقيقة تهيم أمـام العين، تلمـع فأغمِض عينَيّ، تسـتكمل قطرات المطـر - بعد قليل- تهاويها، تحـطّ فوق رقبتي وصـدري وتتجمّع بـين ثنايا ملامحي فتسـتقر.

الصبيحـةُ بـاردةٌ برودًا لذيذًا، شـعاع شـمسٍ وحيدٌ يختلس لـه مَعبرًا داخـل فلول الظّـلام. بالأمس حـين أمطـرتْ، كان مطـرًا خفيفًا، ترك فوق أسـنّة الأشـجار وأكـفّ الزّهور نـدىً أخذ في التقاطـر نحو أرض القريـة. أصـوات العصافـير صاحبة الأشـجار وهي تنفـض البلل عن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ريشـها كمعزوفة من وجد. رحت أتأمّل ظهورَ الصباح وكأنّ عشـقًا قد شـفّ جسـمي، انحنيتُ فوق سـور السّـطح وتنهّدت، تطلّعت إلى المـدى المـشرّب بحمـرة الشّـفق، شـعرتُ أنّي أهيـم في عـالمٍ مِـن غـرامٍ نـادر، لكـن هل يحـقّ لي ذلك؟

رحـت أحـدّق في فـراغٍ، وبضـع حمامـات تتكـئ عـلى حافّة السّـور وجنـب وجهها يـضيء كـبراءة مـن عـالم آفـل، خدهـا يشـبه كثـيرًا انعطافـة قلـب، بـل أكاد أجـزم أنّ عـروق وجههـا تنبض كقلـبٍ يافعٍ بِكـر، وسـحابات أمامي على الأفق غارقة في سـبات منـذ الأمس، كانَ مشـهدها كفيـلًا بإثـارة جوارحي الكامنة في تعاسـة وخمـول، تخرج منه أحمـال عشـقٍ حديـث النّشـوء، قلـت لنفسـي في خفوت:

- لماذا ترك الرّب العالم يشيط لهذا الحدّ؟ هل يئِس منّا؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

شاهين

خوي/ إيران –٦٤٥ هـ

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

حدّثني يا مولاي، ائتمني سأحفظ الأسرار، إنّ المدينة اليوم تسكنها الحيّات إجلالًا لمعنى الحقيقة السّاكن في دربك، أهدروا دمك يا سيّدي وما شفع لهم غرور ولا كِبر، أعلم أنّك سامحتهم، لطالما كنت كذلك، يتريّض السّماح والعفو في فؤادك دونما مقابل، إنّي أسمعك، حدّثني، ولا تبخل عليّ.

عندما قابلت مولاي «شمس» منذ أربعة أعوامٍ، كنت أجلس أسفل شجرة «قيقب» في ناحيةٍ غير مطروقة من المدينةٍ، واستشعرت حركة على رقبتي، فانتفضت، ولكنّي عجزت عن تحديد هوية الزّاحف الذي يمرح على جسدي، ثمّ فجأة أحسست به، وقال بصوتٍ عميق:

- لا تخف، إنّه مجرّد جرذ.

وسمعته يتحدّث مع الجرذ، وكأنّهما صاحبان، فاندهشت، حاولت تكوين صورة في ذهني عبر صوته، فلم أستطع، غير أنّي جلست ثانية، فجلس جواري.

وظلّ ساعةً أو يزيد صامتًا، حتّى ساورتني الشّكوك، سألته:

- هل أنت حقيقي؟

فضحك، وقال:

- الحقائق لا تُدرك كاملةً، لعلّك أنت نفسك مجرّد رُوح سارحة.

- أنا درويش.

- ومَن فينا لا يحمل درويشًا في قلبه؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ثـمّ وضـع يده عـلى رأسي، ذُعرت، ثـمّ بعد لحظة اسـتكنت، إذ ربّت بأناملـه عليّ يطمئننـي، ثم همهم:

- في قلبك غرامٌ.

- ولوعةٌ.

قلت، فأكملت أنامله استشعارها على رأسي، واستطرد:

- لا بأس، بعض اللّوعة مشارف طريق للحقيقة.

بدا كأنّه يهذي، صحت فيه:

- اتركني لخلوتي.

فقال:

- أنـت وحيـد، لم تبـدأ خلوتـك بعد، ومـا أكـبر الفرق بـين الوحدة والخلـوة! الوحـدة مُخادعـة، تخيّـل لـك أنّك تسـير عـلى درب العشِـق الحقيقـي، ثم تجـد أنّك تائه، أمّا الخلـوة، فهي ديدن الدراويـش، إذ أنّك عـبر خلوتك لا تشـعر بالوحدة عـلى الإطلاق، فابحث عـن مرآتك في رفيـقٍ، لو الله في داخلك فلن ترى نفسـك إلّا من خلال شـخصٍ آخر.

- لكنّي مُرهق وعاجز ويائس.

- مهـما حـدث في حياتك، ومهـما بدت الأشـياء مزعجـة، لا تدخل ربـوع اليـأس، وحتّى لو ظلت جميـع الأبواب موصدة، فإن الله سـيفتح دربًـا جديـدًا لـك، احمـد ربك، من السّـهل عليـك أن تحمـد الله عندما يكـون كلّ شيء عـلى مـا يـرام، فالصّـوفي الدّرويش لا يحمـد الله على ما منحـه الله إيّـاه فحسـب، بـل يحمده أيضًا عـلى كل مـا حرمه منه.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

– حرمني من النّظر وصبرت، ولكنّه حرمني من العِشق، ألا ترى أنّ الله يقسو علينا كثيرًا!

– إذًا اعشقه، إذ لا يعني الصّبر أن تتحمل المصاعب سلبًا، بل يعني أن تكون بعيد النظر أيضًا، بحيث تثق بالنتيجة النهائية التي ستتمخض عن أيّة عملية. ماذا يعنى الصّبر؟ إنّه يعني أن تنظر إلى الشّوكة وترى الوردة، أن تنظر إلى اللّيل وترى الفجر، أمّا نفاد الصّبر فيعني أن تكون قصير النّظر ولا تتمكّن من رؤية النتيجة، إن عشاق الله لا ينفد صبرهم مطلقًا، لأنّهم يعرفون أنّه كي يُصبح الهلال بدرًا فهو يحتاج إلى وقت، لقد خلق الله المعاناة حتّى تظهر السّعادة من خلال نقيضها، فالأشياء تظهر من خلال أضدادها، وبما أنّه لا يوجد نقيض لله، فإنّه يظلّ مخفيًا.

– ولماذا يُتعِس الله بعضنا ويُسعد البعض الآخر؟ لماذا يمنح هذا البصر ويمنح ذاك العِشقَ؟ أرى سُكارى زنادقة يرفلون في النعيم، وأنا أعيش معذّبًا.

– لعلّه منحك البصيرة، ثمّ لا تحكم على الطّريقة التي يتواصل بها النّاس مع الله، فلكلّ امرئٍ طريقته وصلاته الخاصّة، إنّ الله لا يأخذنا بكلمتنا بل ينظر في أعماق قلوبنا، وليست المناسك أو الطقوس هي التي تجعلنا مؤمنين، بل إن كانت قلوبنا صافية أم لا.

– حاولت السّفر سعيًا إليه، وما اهتديت.

– مهما كانت وجهتك، يجب أن تجعل الرّحلة التي تقوم بها رحلة في داخلك، فإذا سافرت في داخلك فسيكون بوسعك اجتياز العالم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الشاسع وما وراءه.

- لكن قلبي لم يزل مكتويًا بنار العِشق المفقود.

- لكي تولد نفس جديدة يجب أن يكون ألم، وكما يحتاج الصّلصال إلى حرارة عالية ليشتدّ، فالحب لا يكتمل إلّا بالألم.

- ولكنّي لم أعرف اسمك بعد يا مولاي!

- وهل تفرق مع الدّراويش الأسماء، فقط تفرق المعاني، فمعنى الله واحدُ ولو تعدّدت أسمائه وصفاته، إنّما على كلّ حال، سمّاني الله «شمسًا»، أنا «شمس الدّين التبريزي».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مولانا جلال الدّين الرّومي

قونية/ الأناضول -٦٣٥ هـ

(جراحاتُ الهوى تُشفي، كدوراتُ الهوى، تُصفّي

بُروداتُ الهوى تُدفي، ونِيرانُ الهَوى رَيحانْ).

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

«قونيـة» بلـون الموت، بلـون الرّمـاد، «قونيـة» بعد «جوهـر خاتون» خابيـة، لا حياة فيهـا ولا رُوح، انصرفت عـن دروسي واعتكفت زاهدًا عـن كلّ شيء، أتريّض بالصيّام كما أوصاني مـولاي «برهان»، وأُغويت بحبّ الموسـيقى، كنـت أجلس في مكتبتـي باليومين الكاملين أسـتمع إلى أناشـيد الدّراويـش وموسـيقاهم، وفجّـر هذا في داخلي طاقـةً ملحّةً لنظـم الشّـعر، ووجدتني مندفعًا أسـجّل ما ينبـذر في خاطري:

طوال النّهار واللّيل لحنٌ

نيرٌ هادئ

غناء مزمارٍ

لو خبا نذوي

ومضيـت أحفـظ الأشـعار التـي أكتبهـا، قـد أخـرج عـلى ولـديّ فيسـتغربان هيئتـي، لكنّهـما يسـتمعان لمـا أكتـب بإعجـاب واندهاش شـديدين:

مناخل هي الأيّام كي تصفى الرّوح

تكشف النجس وكذا

تُبين النّور لثلةٍ يرمون

بهاءهم إلى الكون

يصفّق «علاء»، يهتف مشدوهًا:

- منذ متى كنت شاعرًا يا أبي؟ ولا كأنّك سيّدي «برهان الدّين».

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فأقول له:

- اسمع فقط، هذا ليس أمرًا طارئًا، إنّما طاقة كشفٍ كُبرى.

لا رفيق سوى العشق

طريق دون بدء أو نهاية

يدعو الرّفيق هناك:

ما الذي يمهلك حين تكون الحياة محفوفة بالمخاطر؟

ووجدتني أمتطي فرسي وأذهب إلى المدرسة في شغفٍ، تقودني حماسة لم تكن من ذي قبل، الموسيقى في رأسي، والشّعر يمسّ شغاف فؤادي، وعباءتي ترفرف باتّجاه الرّيح، تخضّ قدما الفرس بطن الأرض، وينفجر الغبار من تحتي، ويقابلني تلاميذي في المدرسة بشوقٍ عظيم، بدا أنّهم ينتظرون محاضرةً جديدة، لكنّي فاجأتهم، وقلت:

- اليوم سنسمع الشّعر.

فقال أحدهم:

- ما كنتَ يومًا يا مولانا حافظًا للشّعر.

فقلت:

- إنّما هذا شعري الذي أبدعته.

ثم رُحت أُنشِد:

لو أنّ روحًا لديك احتسبها

أرخ لها أن تعود بكلمة واحدة

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

من حيث جئنا الآن آلافٌ من الكلمات

ونأبى أن ننصرف

نظر تلاميذي بعضهم لبعضٍ، فجلسوا يصطفّون أرضًا، وأرخوا آذانهم لمزيدٍ من الشّعر، وطأطئوا رؤوسهم وقال واحدٌ:

– لا تتوقّف يا مولانا، أزدنا بالله.

حبست في صدري هواء العالم، وأكملت:

هل الحياةُ لتفنى يهب الله أخرى!

مجّد المطلق وسلّم بالمقيّد

العشق نبع فانغمر

كلّ قطرة تنفصل عمرٌ مستجدٌ

وذاع عنّي أنّي مُسست، هجرت التدريس لأجل الشّعر، فقالوا أنّي صرت درويشًا، وقالوا أنّي صرت مجنونًا، وقالوا أنّ موت «جوهر خاتون» بدّلني، فسُكنت بشيطان الشّعر من بعد اتّزان وتعقّل، غير أنّ ولديّ كانا يساندانني بعزيمة مُخلصة، وعن قناعة، إنّما أدركا أنّ بصيرتي ارتقت، وأنّي بلغت آمادًا من العِشق لم أكن قد بلغتها قبل ذلك، ثمّ باتا يجالسانني ليستمعان لشعري، إذ جاء على هوى في نفسيهما، إذ أنّ أحدهما كان مفتونًا بالشّعر عن طريق مولاي «برهان الدّين»، والآخر شفّه العِشق في سنّ الاختمار بالغرام.

في هذه اللّيلة أوقدنا نارًا، كان الجوّ باردًا، والعالم فارغٌ، ولا يسير في الشّارع نفرٌ، في حديقة البيت جلسنا، حطبٌ مشتعلٌ يتوسّطنا،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وَقفيّة الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ولفحة من ذكريات تداعب خيالنا، زفرت والذّكريات تتداعى، وتذكّرنا «جوهر خاتون»، فبكينا جميعًا، ووجدتني أُنشِد:

حسبت أنّي حكّمت نفسي

فتأسّيت على زمانٍ قد مضى

آخذًا في اعتباري شيئًا واحدًا أعلمه

لست أدري من أنا

وثارت شجوننا، أدركت أنّ الحياة حافلةٌ بالمعطيات الدّالة على كمال الألم، نهضت، أفرغت ما في جوفي، وكانت ملامحي ترتعش من استحواذ الذّكرى، صرخت:

- أين «جوهر خاتون»؟

ورفعت رأسي للسّماء، عاتبت الله، قلت: كم مرّةً أعاتبك وتصرّ على تعذيبي!

وخيّل لي أنّي هشٌّ، إذ استهلكتني الشجون، سنّدني ولداي ودخلت إلى مكتبتي، في هذه اللّحظة أدركت أنّ الحياة تحتاج إلى شخصٍ يُكمل ما انتُقص في الرُّوح، لا الكتب ولا الشّعر ولا التصوّف بقادرين أن يتمّموا العِشق الإلهي، كلّنا بشكلٍ أو بآخر نعشقه، ولكنّ ثمّة شيئًا ناقصًا، في الرُّوح منافذ طالما قاومنا الإحساس بها، تلك تفتقد رفيقًا، تلك المنافذ يُمكن أن يشغلها صاحبٌ، فتعود الرُّوح تكتمل، آه، أشعر بالفراغ والوحدة والألم.

قال لي ولدي «علاء»:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

- أما آن لك يا مولانا أن تتزوّج امرأة تعوّض فقدك!

فقلت:

- إذا وُجدت كان، إنّما هذه أشياء تأتي ولا تؤتى.

يتحوّل العالم مع الوقت إلى إشارات، إشارات واهنة، تحتاج إلى تركيزٍ روحاني حازمٍ كي يُمكن أن نوفّقها ببعضها البعض، لا يُمكن لأحد أن يرى ما تراه عينك، بل لا يُمكن لشعورٍ على وجه الأرض أن يوازي شعورك تجاه المحسوسات التي تُدركها رُوحك، وقد تجد نفسك فجأة عاجزًا وواهنًا وهرمًا ومكسورًا، أجل ما أقرب الرُّوح الوحيدة للهشاشة، من قبل، حاولت أن أجسّد روحي عينًا تُشرف على الوجود من أعلى، بلا جدوى، لم أصل إلى الحقيقة بعد، لم أصل إلى جوهر الكون، من نحن؟ هل نحن أبناء «آدم»؟ أبناء «قابيل» أم «هابيل»؟ ماذا لو أنّنا أبناء «إبليس» غير الشرعيين؟ ماذا لو أنّنا -بالفعل- مجرّد كائنات ترعى داخل حلمٍ كبير، ثمّ فجأة يستيقظ العقل الأكبر، فنجد أنّنا شظايا غائبة في أديم الفراغ والعدم! لعلّ الله فكرة في نهاية المقام، فالله لا يُمكن تفسيره، فقط يُمكن الشّعور به، ومع أنّه لا يُمكن تفسيره، الإيمان به يفسّر كلّ شيء.

في الصّباح، لم أكن قد خرجت من مكتبتي، ولكنّ وجدت «سلطان ولد» يطرِق عليّ البّاب، ويستأذنني، أذنت، اقترب قليلًا منّي وهو يبتسم، وقال:

- أبشر يا مولانا، مُريدة تُريد سماع أشعارك.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

شمس الدّين التبريزي

قونية/ الأناضول –٦٤١ هـ

(من أنا؟ ومن أين جئت؟ إلى أين أسير؟ لماذا؟ كيف؟).

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
This file was downloaded from QuranicThought.com

منضدةٌ خشبيّة متهرّئة، ودرويشٌ ضريرٌ اكتشفته مصادفةً عبر بحثي عن خلاءٍ آمن لرُّوحي. استطاعت «قونية» خلال عامٍ أن تُعيد لي الله في قلبي، أن تجعله يستعمرني كما استعمرني من ذي قبل، بالشّوق والعِشق، هُنا في «قونية» كانت الإشارات قويّة، أنّ رفيقي الذي طالما بحثت عنه ورأيت وجهه في المنام ستلتقي طريقه مع طريقي في «قونية»، هُنا لا توجد حُجب أمام الأرواح، سالكةٌ بأمره، وواصلةٌ إليه، وعبر عامٍ، باتت صورة «كيميا» في رأسي كأنّها حياةٌ جميلة عشتها في زمنٍ بديل وعالمٍ موازٍ، في كونٍ آخر لفظني لكونٍ أكثر إشراقًا وقُربًا من الله، هُنا أباحَ الله لي نفسَه، فاستطعت أن أملكه في أكثر من رؤيا وبأكثر من مجازٍ.

في اللّيلة الماضية، حضرتني رؤيا مُخيفة، وإن بدت صادقة، كنت أكلّم الله، وكان يداعبني بأقوالٍ مرِحة، ثم وجدتني أنحدر فجأة، تسلسلت بجذعِ شجرةٍ معلّقة في السّماء، وتحلّقني أبالسةٌ صغارٌ، ناشدت الله، إذ فُزِعت، لكنّ غيمًا ومطرًا ورعدًا حجزوني عن رؤيته، راح الأبالسة يدبّون أظافرهم المسنونة في حشايا جسدي، وراحت الدّماء تنهمر منه إلى أحشاء الأرض في الأسفل، ووجدتني بعدها أنسلخ، كأنّي رُوح تنفصل، وثمّ رأيت جسدي مقبورًا ورأيت أفاعيَ تبكيني، وملاكًا يحسّس بيدِه على قبري.

أفقت من حلمي وقد أدركت أنّ موتي قريبٌ، لكنّي لم أعتدّ، الموت سيُجلسني على العرش جوار معشوقي، ساعتها لن أعرف الألم ولن أعرف اليأس، ساعتها فقط يُمكن أن أتغزّل فيه صراحة،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

دونما حرجٍ.

خـارج الحانةِ ريـحٌ تصفّر، وأنا أجلس على منضـدةٍ يقبع فوقها كأس جعـة ونرجيلة، يجلس جـواري درويشي ومريدي «شـاهين»، تقابلنا في عـرض خلاء ولكنّـه لم يُفارقني مـن وقتهـا، كان ضريرًا إنّـما لديه قدرة إعجازيـة عـلى استكشـاف بواطـن الأشـياء، ولديـه قـدرة أكـبر عـلى الصّـبر، بدأب وإخـلاص يتحمّلني.

اقـترب منّـي صاحب الحانـة، أضاف على المنضدة كأسًـا مـن الجعة، وقال:

- أما آن لك يا درويش أن ترحل عن حانتي؟

- وهل تراني عبئًا عليك ما دمت تأخذ أجرك؟

قلت، فحدجني بنظرة غيظ، وقال:

- والله لا أعرف من أين يأتيك المال؟

- مال الله لا ينفد.

دنـا منّي، اشـتممت رائحتِه التي تُشـبِه الخلّ، كشـف عـن صفٍ من أسـنان صفراء اسـودّت أطرافها، همس:

- الزّبائـن يتهامسـون يا درويـش، آراؤك لا تعجبهـم، يرونها جانحة ولا تليـق بالدّيـن، بصراحة أخشـى على نفسي وعلى الحانة منهـم، وأنا رجـلٌ مؤمـن ومسـلم، أرى أيضًـا أنّه لا يصحّ مـا تدّعيه عن الإسـلام وعـن رؤاك المزعومة بشـأن الله.

- إذا أردت أن تُقوي إيمانك فيجب أن تكون ليّنًا في داخِلك، ثمّ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كـي يشـتدّ إيمانـك ويصبـح صلبًـا كالصّخـرة يجـب أن يكـون قلبـك خفيفًـا كالريشـة، فـإذا أُصِبنـا بمـرض أو وقعـت لنـا حادثة أو تعرضنـا لخسـارة أو أصابنـا خـوف بطريقـة أو بأخـرى، فإنّنـا نواجـه جميعًـا الحـوادث التـي تُعلمنـا كيـف نصبح أقـلّ أنانيـة وأكثـر حكمة وأكثـر عطفًـا وأكثر كرمًـا، ومـع أن بعضنا يتعلم الـدّرس ويـزداد رِقة واعتـدالًا، يزداد آخرون قسـوة، إن الوسـيلة التي تمكنـك من الاقتراب مـن الحقيقة أكثـر تكمن في أن يتسـع قلبك لاسـتيعاب البشريـة كلّها، وأن يظـلّ فيـه مُتسـعٌ لمزيـدٍ مـن الحبّ.

صاح:

– عُدنا للتجديف.

اسـتدار لي بعـض الزّبائـن، لعق أحدهم شـفتيه في تحفّـزٍ، وهتف من على المنضـدةِ المجاورة:

– والله لا أعـرف كيف يُمكن أن يجتمـع الدّرويش بالخمر! تصومون وتصلّـون، ومع ذلك تشربـون الخمر كالبِغال.

ردّ «شاهين»:

– احذر في الحديث مع مولاي.

ضغطت على كتفه فسكت، وقلت له:

– إن الصّـوفي الحـق هـو الذي يَتَحمّـل الصّبر حتّـى لو اتُّهـم باطلًا، وتعـرض للهجوم من جميع الجهـات، بل لا ينبغـي أن يوجِه كلمة نابية واحـدة إلى أيٍّ مـن مُنتقديـه، الصوفي لا ينحي باللائمـة على أحد،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فكيف يمكن أن يوجد خصوم أو منافسون أو حتّى «آخرون» في حين لا توجد «نفس» في المقام الأول؟ كيف يمكن أن يوجد أحد يلومه في الوقت الذي لا يوجد فيه إلا «واحدًا»؟

قال الرّجل يُخاطب صاحب الحانة وهو يرفع صوتَه:

- ألم تستطع أن تطرد هذا المخبول من حانتك! إن كنت عاجزًا عن طرده فدع لنا هذا الأمر.

أحسست برجفة «شاهين» وهو جالسٌ تحت قدميّ، لكنّي استدرت للرّجل أقول:

- إذا أراد المرء أن يُغير الطّريقة التي يُعامله فيها النّاس، فيجب أن يُغير أولًا الطّريقة التي يُعامل بها نفسه، وإذا لم يتعلم كيف يُحب نَفسه حبًا كاملًا صادقًا، فلا توجد وسيلة يمكنه فيها أن يحبّ، لكنّه عندما يبلغ تلك المرحلة، سيشكر كلّ شوكة يلقيها عليها الآخرون، هذا يدل على أنّ الورود ستنهمر عليه قريبًا، كيف يمكن للمرء أن يلوم الآخرين لأنّهم لا يحترمونه إذا لم يكن يعتبر نفسه جديرًا بالاحترام؟

تخشّب الرّجل، طوح كأس نبيذٍ في يده واقترب منّي، مصمص شفتيه في عصبية، وحطّ يده على ظهري:

- تأدّب يا عدو الله.

- وهل تعرف الله كي تتّهمني؟ إن الله مُنهمك في إكمال صُنعك من الخارج ومن الدّاخل، إنّه مُنهمك بك تمامًا، فكُلّ إنسانٍ هو عمل متواصل يتحرّك ببطء لكن بثبات نحو الكمال، فكُلّ واحدٍ مِنا هو

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عبارة عن عمل فنّي غير مُكتمل يسعى جاهدًا للاكتمال، لذا حاول أن تكتمل، واعرف الله عن قرب، إنّ الله يتعامل مع كلّ واحدٍ مِنا على حِدة، لأنّ البشرية لوحةٌ جميلة رسمها خطاطٌ ماهر تتساوى فيها جميع النقاط من حيث الأهمية لإكمال الصّورة.

- أنا مسلمٌ أحبّ الله وأعرفه أكثر ممّا تعرفه.

صاح، فقلت:

- من السّهل أن تُحب إلهًا يتصف بالكمال، النّقاء، والعظمة، لكن الأصعب من ذلك أن تُحبّ إخوانك البشر بكلّ نقائصهم وعيوبهم، تذكّر، إنّ المرء لا يعرف إلّا ما هو قادر على أن يُحبُّه، فلا حكمة من دون حبّ، وما لم نتعلم كيف نُحبّ خلق الله، فلن نستطيع أن نُحبّ حقًّا، ولن نعرف الله حقًّا.

- أنت درويشٌ فاسق قذر!

- إنّ القذارة الحقيقية تقبع في الدّاخل، أما القذارة الأخرى فهي تزول بغسلها، ويوجد نوع واحد من القذارة لا يُمكن تطهيرها بالماء النقي،وهو لوثة الكراهية والتعصّب التي تلوث الرُّوح، نستطيع أن نُطهر أجسامنا بالزُهد والصّيام، لكن الحبّ وحده هو الذي يطهّر قلوبنا.

- إذًا؛ سأطهّرك.

وتناول كأسًا من الجعة، وأفرغها فوق رأسي، هززت رأسي في أسى، ولكنّي ابتسمت، وقلت له في أسف:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

- إنّها الحياة، عندما نخبركم بالحقائق تزدادون غرورًا بنواقصكم، وكلّما أحببناكم، كرهتمونا.

- وهل تحسب أنّك بلغت الكمال بزُهدك؟

- أوتعرف من هو الإنسان الكامل؟ هو الذي إذا سمع انتقادات الناس لم يُبد انزعاجًا، ولم يتميّز غضبًا.

- ما أسهل أن نجد مثل هذا الإنسان!

- هل تظن ذلك؟ اسمع إذًا الحكاية الآتية: في مجلسٍ من مجالس الصّوفية راح أحدهم يُطيل حديثه عن الأسماك، فارتاب أحدُ الجلوس بمدى معرفته وقال له متسائلًا: أتعرفُ السّمك حقًّا؟ قال الرجلُ: كيف لا أعرفه وقد قضيتُ كلّ عمري في أسفار البحر! قال السّائلُ: فاشرح لنا أمره وفصِّل لنا وصفه. قال الرجل: ما أسهل هذا، السّمكُ حيوانٌ شبيهٌ بالجمل وله قرنان! قال السّائل: صه أيها الأحمقُ، أنت لا تفرّق حتّى بين الثّور والجمل، فلا عجب أن تجهل صفة السّمكِ. وهكذا هم النّاسُ في العادةِ، إنّهم بلا تمييز وبلا عقل، وبناء على ذلك كلّه، قرّ الرأي منّي ألا أطلب إلّا الإنسان الكامل.

وبدا لم يعِ، فانسحب الرّجل مهزومًا.

ففكّرتُ بيني وبين نفسي: لابدّ أنّ رفيقي رجل الحلمِ موجودٌ في مكان ما على وجه هذه الأرض، فلا يُعقلُ أنّ العالم المحتشدُ بهذا العدد الهائل من البشر، يخلو من إنسانٍ واحدٍ فقط، وهو الذي أتمنّى لقاءه.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كيرا

قونية/ الأناضول -٦٣٤ هـ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أصرّت أمّي على تزويجي، تقدّم إليها «آزار»، فوافقتْ.

قلت لها:

- ولكنّي لا أريده.

فقالت:

- ألم يكن حبيبًا قديمًا!

- كان يا أمّي، ولكنّ طبائعنا تتغيّر مع الزّمن.

- لقد وافقت وانتهى الأمر.

لا أعرف ما الذي أصابني تجاه كلّ الرّجال! بالأمس؛ أحببت «آزار» للثمالة، واليوم، أبغضه بغضًا لا مبرّر له غير حادثةٍ قديمة.

ورغم ما يكتنف الزّواجَ مِن ملابسات، إلا أنّ الزّفافَ بدا مفتعَلًا، بل بدا زفافًا تقليديًا، في الفسحة الممتدة أمام بيت «آزار»، هُيّئت المقاعد والحُصر على الأرض، تراصّ الخلق أمامي مكدّسين، أُبرِمَ العقد في كنيسة «آيا ألنا» في المدينة، وها أنا في انتظار الدّخول غير الآمن.

رحتُ أدير في الوجوه وجهي المرهق، كانت كثافة النّاس تغزو عقلي فارتجفتُ كجرذٍ في مصيدة، وفي المدى وراء الأفق ابتسامة حزينة، قال لي «آزار»: ما أحلاكِ! لقد كبرتِ يا «كيرا».

أجفلتُ، داعبتُ الخاتمَ في إصبعي وأنا متوجّسة، مرتعدة، ورغم عَرَقي الموشِك على إفساد زينة وجهي، كان الصقيع يثلّج أطرافي، ما الذي دهاني فأوقَعَني في الشّرَك؟ هل هو حقًا شَرَك؟ أم أنّ اللحظاتِ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الأولى مـن كلّ إحسـاس دائماً لعـوبٌ ومراوِغـة؟ كان بصري يرحل إلى هنـاك حيـث أخدود مِن لون القمر الفضّي يتمسّـح بالمسـاء، والقمر كأنّـه أخـذ ينصهـر وراء سُـحُبِ حـيرتي، آه، مـال كلّ شيء يرحـل مع البـصر؟ فلا المَشـاهد تمسكها عـينٌ واعيـةٌ مدرِكـة، ولا المَشـاعر تبقى راسـخة، التسـاؤلات أسراب ملوّنـة، ومضـاتٌ تضوّي للحظـةٍ بارقة في ظـلام اللّيـل ثم تـذوي كشـهبٍ نافقةٍ، المَشـاهد ترحـل دون هوادة، المشـاعر تعـترك في بـأس، تـذروني ريـاح مقبلة مـن قلب عتمـة رأسي كَثَـرىً يتبـدّد في الهـواء، يا وجـلي! كأنّـما لم أذُق الحـيْرةَ قبْلًا!

كان «آزار» يجـوس في حـيرتي بعـينٍ حائرةٍ، وكانت عمائم القساوسـة السّـوداء متراصّةً أمامـي، وكانت الورود المعلّقة خلفـي ذابلةً مكفهرة، كأنّها تشـعر بـما يتوافد عـلى رأسي مِن قلق.

وكان أبي واقفـاً بـين الحشـود، يبتسـم، ويدعوني للطمأنينة، شـعرتُ أنّـه جـاء خصّيصًـا لطمأنتـي، كان يجاهد اسـترضائي وربّما كان يشـعر بنـوعٍ مِـن ذنب لأنّـه تركني وحيـدةً وصعـد إلى السّـماء مبكّـرًا، حيث أصرّ أن يشـارك في إحيـاء زفافنـا بنفسـه، وقفَ وسـط الطبّالـين وبقية «الزمّاريـن»، وبنشـوةٍ مجروحـةٍ راح ينفُـخ المزمـار، فتصاحبـه قرعات الطبّالـين عـلى أغشـية الطبـل السّـميكة، لاح القمرُ هـذا المسـاءَ باهتًا، رهيفًـا، وهـو يُطِـلّ علينا ثانيـةً مِن عرشـه في السّـماء بأسـى، تمامًا مثلما كان أبي يرمينـي وفمُـه منتفِخٌ مـع عزف المزمار، كان نقـاشٌ خفي يدور بـين أعيننـا: - سـامحيني. - هذا يـا أبي اختيـاري. - هل أنتِ مجـبَرة؟ - عـلامّ؟! - كـم أودُّ إسـعادَكِ! - أعـرفُ يـا أبي.. أعرف.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عمائم الجالسين ترتخي فوق أعينِهم مِن نشوة العزف، تُسكرهم العصيّ التي توقِد أفئدةَ الطبل، البناتُ ينزلن يتضوّعن رائحاتٍ آتياتٍ مع إيقاع الزَّمر والطّبل، يحطن خصورَهنّ بِطُرَحٍ مشدودةٍ بنعومة وإثارة، تغطي جفونُهنّ أعينَهنّ التي تتبدّد نظراتُها فوق الأرض في كسوف، يُرْعِشن أفخاذَهنّ في خجلٍ وفي ارتباك، تضطرب ابتساماتُهنّ مع مسّ نظرات الجالسين المباشرة البجاحة لأجسامهنّ، وتبدو سيقانُهنّ وكأنّها ستتعثّر فورًا مِن فرط التوتر، وكنتُ أحِس أنّ معظمَهنّ ممّن يحاولن غوايةَ شابٍ لم يتزوج بعدُ لِطرْق أبوابهنّ، وهُنّ يتبارَيْن في الرّقص وكأنّها حلقةُ نِزال، كلّ واحدةٍ تكالب إبرازَ مقدرتِها على الرّقص وعلى الإغراء، يهتممن بتوضيح زائد لمفاتنهنّ لكن في حياءٍ وفي تَحفُّظ، ويصفّق لهنّ الرّجال، يدنون مِن بعضهنّ ويركزّون في نظرة إعجاب صريحة، فيزداد الإيقاعُ اتقانًا، ويأخذن يتمايلن، فيتمايل أبي ونشوةٌ مِن حزنٍ تستحوذ على إيقاعِه، وتروح عيناه لأبعد مِن إحساس المحيط، ولا يكتفي، لا يترك العزفَ ولو كان حتّى ضيف شرف الليلة القادم مِن عالم آخر، يستمدّ طاقتَه مِن بذرةِ تَجنٍّ يحس بها في أحشائه.

يميل المشهد وأنا أتأمّل عريسي، كان منتشيًا أيضًا، إنّما نشوتُه بدت كنشوةٍ عابرة، مجرّد لحظةٍ شَعر فيها بذروة التملّك والاستحواذ والظفر.

كؤوس «الرّمان» و «اليوسفي» تلف على الخَلق، والشّموع تضيء ليل العتمة، تحشر عينَيّ بتألّقها، فيقابلها دمعٌ شحيح، لا يكاد يبين

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مِـن أعـينٍ زَخْرَفَتْهَـا المسـاحيق، ووجه برّجتـه رتـوش التأهّب لليلةٍ أخـيرة في حيـاة الأنثـى بداخلي.

ينـذِر الوقتُ بقرب موعدي مـع قدَري، موعدي مع حضـن «آزار»، بمحتـواه الكامن مِن التسيّد والاشـتهاء والغـرام القديـم، أمّي تصفّق وفي عينيهـا دمـوعٌ، واحـدةٌ مِـن البنـات تدعـوني للرقـص وتجذبنـي للمشـاركة، فأرفـض وجسـدي كلّـه يرتعـش، تنفـرط أجسـام الناس حولنـا كانفـراط حبَّاتِ مَسبحة، فينفرط تمالكي وتضطـرب سريرتي، برفـق يتناول «آزار» مِرفقي، ثم يشـبك أصابعَه كلّها بأصابعي، أرتعش أكثـر، للحظةٍ تمـرق في أعصابي شرارةُ جذل، وأنا أتذكّر لمساته القديمة إيّاهـا، تنحسر كلّ الأصـوات مِـن حـولي، أتلفّتُ فـأراني واقفةً بـرداءٍ أبيـضَ وسـطَ عـالمٍ مِن عـدم، تغيـب الوجـوه والمعاني والأحاسيس، ثـم يبقـى بقـرارة نفسي شـعورٌ ما بالوحـدة، وأبـدأ في التـآكل كحَطبٍ حشحشـته نارٌ ليتحوّل ببطءٍ إلى رماد، كانت التّسـاؤلاتُ متضارِبةً وما أشـعر بـه يتبايـن تبايـنَ قطـراتِ الزّيت على صفحـة ماء، هل سـلكتُ دربًـا مِـن نعيـم.. أم دربًـا مِن جحيم؟

يتبعنـا الجمـع المحتفِي المجامِـل، يهلّلون، ونحـن نترك ببـطءٍ وعنايةٍ وبحـذر وبكثير مِن ارتباك سـاحة العُرس، وبعض البنـات يحملن ذيلَ فسـتان الزّفـاف الأبيـض كـي لا يتّسـخ مِـن تـراب الأرض، كان باب البيـت على مقربـة، تطايرتْ أعـلى مِنّا حبّـات الحلوى والمِلح، شـعرتُ أنّ الأرضَ رخـوة، سـتنزلق بداخلهـا قدَمـي قبـل حتّـى أن أبلـغ باب البيـت، فرحتُ بتثاقُلٍ ومشـقة ألضـم الخطوةَ بالأخـرى، وكلّ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المَشاهد مِن حولي تتفكّك كلعبةٍ أزليّةٍ، لم أعد قادرةً على أيّ حراك، فتوقفتُ لبُرهة، تساءلتُ مَن سيجمّع قِطَعَ اللّعبة مرّةً ثانية ويعيد تشكيلَ المشهد؟ لكنَّ يدَه كانت تسحبني مِن دون أن يشعر أحد، وقد حاولتُ أن أتحاشى نظرةً مباشرة مِن أمّي التي اتّخذتْ رُكناً قَصياً عند آخر جدران المنزل وعلى وجهها يتّضح الفرحُ الملفّق، فكم أشعر بها تتطلّع إليّ في شوقٍ حقيقي وافتقاد مسبّق!

وودّعنا كلّ الجموع، قبّلَ «آزار» يدَ كبيرِ القساوسة، فعاجله بتمتماتٍ وتلاوات ومسَّدَ رأسَه، ثم أغلق باب البيت خلْفَنا، حاولتُ أن أحتفظ بنظرةٍ أخيرة مِن أبي، الذي سرعان ما ذاب مختفيًا في الأفق، كانت الطّريقُ حتّى الغرفة طويلةً، مرهِقة، قطعتُها معه في وقتٍ بدا لي مِلًّا شاقًّا للغاية، وكان المنزل خاليًا تمامًا، وكأنّ كلّ الحياة لابد وأن تؤجَّل لصباحٍ جديد، إلى ما بعد هذه اللّيلة المجهولة.

تفارقني لحظات التخبّط، وأواجه الحقيقةَ الجليّة، في غرفةٍ واسعة وِسْعَ التشتّت، وأنامله تعبث بساحبِ الفستان، ينحدر بها في هوينى إلى تحت، لينكشف له ظهْري المرصّع بقشعريرةٍ داخلية، يلثُمُه لثمةً خاطفة، ويهمس في أُذُني:

- أما زلتِ خائفة منّي يا «كيرا»؟

خَيّم بعدَها صمت، رنين متوّجس يلِح على عقلي، وتَراقُص لهب الشّمعة الوحيدة في الغرفة، الأحمر الواهن، يسحبني إلى تيهٍ نسبي، كم أشعر الآن أنّني عبثتُ حقًّا بمستقبلي! هل بات «آزار» هو الفارس الأخير الذي إليه أكون؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كان جانبٌ متواطئ مِن عقلي يتوق للمساتِه، جانبٌ معتم، مبهَم، لكنَّ لذعةً أحسستُ بها وهو يدعكُ بيديه كتفي، تنصرف مِن أمام بصري كلّ العراقيل، أريد أن أبدو هادئةً كفاية لتجربة الإغراء المصطَنع، وأود مع ذلك أن أبدو متأهبةً للافتراس، لا حيلة أخرى لي، يتردّد صوتُ أمّي الحازم في رأسي: لقد أصبحَ مكتوبك يا «كيرا»، فكوني طيّعةً ولا تخجلي منه.

الغرفةُ تتعجّل اللحظاتِ القادمة، ولمساتُه مراوِغة، ناعمة، يختلط بلمساته حدّا الرغبةِ والاستحواذ، وبِنَهَم شديدٍ يبدأ في تقبيل رقبتي، فأستسلِم وقلبي خافق، أغمضُ عينَيّ، كَي أتجاوزَ قسوةَ اللّحظة.

تورّطتُ بما يكفي لأن أتكسّر تمامًا، لن أدع الخوف يقود زمام اللّحظة، هل هذا الذي يأتي متخفيًّا في السّكون هو الجحيم؟ الجحيم النهائي المطلق؟ ليكن، هل هذا الاختناق الثمل دليلٌ على رغبتي في البكاء؟ ظلال السّتائر المترنّحة تجعلني لا أعي التفاصيلَ جيّدًا، ولمساته تسوقني لمتاهةٍ غير معتادة وكأنّي منوّمة، لا يفعل شيئاً غير التنفس في رتم شبِق، ولا أفعل إلاّ الانسياقَ وراء رغبتِه برغبةٍ جريحة، واستسلام بدأتُ في استحلابه مِن رونق اللّحظة، يكشف عن جسدي بإزاحة ملابسي قطعةً قطعة، ونهنهتي الخافتة تدفعه لأن يتشبّثَ مِن ورائي بفمِه فوق رقبتي أكثر فأكثر، ورائحة عبقة لبخورٍ تأتي مِن لا مكان، يتداخل لسانُه مع أنسجة جِلدي، تفوح مِن خلفي رائحةُ شهوتِه، وهو يفح فحيحَ الاستثارة، وعصّابة مِن نشوةٍ تدعو بصري لأن يتعثّر بأرجاء الغرفة، فتدور، وتدور، كدوامةٍ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تسحبني دون إرادة، وشرر يتصاعد مِنّي متجاوبًا مع سخونة أنفاسه الملتصقة بظهْري، أحاول أن أنطلق غيرَ مبالية، تتحوّل النهنهة إلى «سرسعة» مكبّلةٍ بوخز مِن عالم بدأتُ للتوّ الرّحيلَ عنه، أشعر بأنّ هناك أكثر مِن رَجلٍ يكمنون بداخله ويتنازعون غوايتي، تقول أمّي خُلقت المرأةُ لرَجلٍ واحد، وأعجب مِن عدد الرجال الذين يراودونني الآن! كأنّ جسدي سَلكَ عدّةَ طُرقٍ، أو كأنّني في خضم كابوسٍ أهوج، سأترك نفسي ليدِه التي تطوّحني فوق السّرير، الذي يهتّز، وأنا ممدّدةٌ فوقَه عاريةٌ كإصبعِ شمعٍ يتدحرج فوق سطح ساخن، وكاهتزاز السّرير كان هو يهتزّ، يدي تطوف ظهره ليهدأ، يُفرغ المجهودُ كلّ طاقتِه، فيتوقّف مسترِدًا الأنفاس، يرفع عينيه عن وجهي ويتطلّع فيّ قليلًا، أبتسِم في ألمٍ هامسة:

- اهدأ.

حدّقَ في وجهي، ثم أصرّ على استكمال مشواره، أخذ ينهج فوقي، بدأت اللحظةُ في التبدّل، وبدأ جو مِن الإفاقة يتسلّل بداخلي، وقد بدا لي أنّ عينيه قد ازدادتا احمرارًا، وانفعاله قد علت وتيرتُه، توسّلتُ إليه:

- اصبر.

لكنّه لم يكن يُنصِت، ولم يكن ينظر لي، كانت عيناه تنظران في تشتّتٍ وعصبية فيما حولنا، كنتُ أريد أن يترفّق بي قليلًا، كانت تجربةٌ مِن سخطٍ مكين، أود أن تكتمل بداخلي، تَخشّبَ فوقي، بدأ صوتي يتّخذ شكل الاستجداء:

This file was downloaded from QuranicThought.com

- قلت اصبر..

قلبي غـاج بخوفٍ مباغت، جذبتُ الغطاءَ على جسـدي، لكنّه شَـدّه بعنف، صاح:

- ابعدي الغطاء.

ملامـحُ أخـرى، جديدة، راحت تتشـكّل أمام عينـيّ، جعل يتضخّم ويتحوّل إلى كائنٍ تملأه قسـوةٌ مستهجنة، شـعرتُ بأنّه يجاهـد في تجاوز هـذه اللّحظة للحظـةٍ أخرى دون النّظر إلى راحتـي أو مَدى ما أبلغه مِن تمتّعٍ حقيقي، بـدأتْ رجفةٌ تتمكّن مِن جسـدي، ضممتُه لي في إشـفاقٍ وحَـيْرة ورحـتُ أتحسّـس ظهْـرَه، حاولـتُ أن أغمِـضَ عينَيّ حابسـةً دموعـي حتّـى لا أحِـس بهذا الصّخـب المباغـت، لكـن دون جدوى، رعشـةُ جسـدي فاقت كلّ حـواسي، وغلبت محـاولاتي في تـرك نفسي، فأخفقـتُ في اسـتدراك هذا التغيّر، صِحتُ بأنين مشـبّعٍ بالشـكوى:

- أرجوك، على مهلك.

أشاح بوجهه في انعدام تركيز، وهو يغمغم:

- ولا كلمة.

صدَمنـي، فلم أعْتَـدّ، رماني بنظـرةٍ نارية، وراح يسـتكمل انقضاضَه عـلى جسـمي بغير أن يكـترث لي، تأوهتُ، بدت روحي كبِركـةٍ مِن ماء جسء، لـن تحرّكـه دوّامـاتُ رغبتِه، كـم اقتربت مِـن وهمٍ مخـادِع! إنّما يختلـج صـدري الآن بتوتـر ويـزداد فيّ شـعور بالإحباط، بحـذرٍ دفعتُه عنّـي وقلت:

- ما الذي يدعونا للتعجّل، اتركني لا أحتمل.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وَقفيّة الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

استقام فوقي مرتكزًا على ركبتيه وعضلاتُه تنتفض، وكان العَرَق يتقاطر من جسده:

- سنفعلها الآن.

قلتُ وأنا أنتحب:

- لكنّي خائفة، إنّها ليلتي الأولى معك.

قفَز مِن فوقي، عيناه أطلقتا إصرارًا فتّتَ كلّ ما تبقى بداخلي مِن تودّد وتحفيز وضرب ذراعَ السرير النحاسي بقبضة يدِه في عصبية مفاجئة، فأحسستُ بانبعاجه، في وجلٍ انكمشتُ، بعدَها تقدّم وحاصر ذراعيّ بكلتا يديه ثم نشَب أظافرَه في لحمهما وأنا لستُ مكتمِلة الفهم، ولوَاني ثم دَفَعني أمامَه، فجثوتُ مرغَمةً والأنينُ انحشر في حلْقي، تمنيتُ أن تكون هوجةً طارئة لكن ما بدا بعد ذلك بدا توكيدًا لحافز السّيطرة لديه، وقد تشبّثَ بظهري، وراح يباشر وطرَه خلال كلّ منافذي، بغير أن يعتدّ بوجعي أو استيائي، ناشدتُه متضرّعةً وأنا أشهق في وجع:

- ماذا تفعل؟ إنّي أتألّم!

تمادَى، فأخذتُ أجهش في وهَن، وقد دنوتُ من الإغماء، لم أستوعب بما يكفي لرد فعلٍ متعقّلٍ متقن، إنّما إنْ كانت هذه هي التعاسة فلتكن، هذا اختياري.

حاولتُ أن أتشرّب الألمَ بغير متعة، حاولتُ أن أستعيد التوازن، استسلامي يُشعرني بأنّها لحظةُ موتِي، وهو يَخرج من خلفي العسيرِ محاولًا الدخولَ في الأمام الأكثر عُسراً لتكتمل ليلتُه، حاولتُ أن أبدو

This file was downloaded from QuranicThought.com

جامدةً حيث أعرف أنّ جسدي له أهميةٌ أكبر مِن هذا، وهو مِن ورائي يكابِد بجموحٍ لعين، وشبق رهيب يسطو عليه، كانت أمّي تعتقد أنّه سوف يعاني معي، ليتَها تدرك مَن يعاني الآنَ مع الآخر؟

رؤوسٌ ساطعةٌ تنبعث أمام عينَيّ، ليلهو كيف يشاء، وأنا مستمسكةٌ بحرف السّرير كحَجرٍ لا روحَ فيه، تعجّبتُ كيف يخدم شهوتَه بمثل هذا التحيّز دون الرجوع لي؟ ألستُ زوجتَه الأبدية؟ ألستُ جسدًا يبغي ذاتَ التحرّر؟ إنْ كنتُ طائعةً بنصف وعيي، فهذا لأنّي عاجزةٌ عن الحراك، عن التفوّه، سابت كلّ أجزاء جسمي، أين اللمسات العاطفية؟ هل غادرتْ بسرعةٍ واستحالت إلى طَرقٍ عنيفٍ على كلّ أبواب روحي؟ كيف أساومه وأنجو بهذا الجسد؟ لا أعتقد أنّه قد يَقبل مساومةً تحت أيّ ظرف، ولا مِن أيّ نوع، كان هو الذي ساوَمَني قبْلًا بلُطفٍ زائف، الآن باح لي الواقع بسرّ هذه الشّخصية، وتجرّدَ هو نفسُه بكلّ تشوهاتِه، آه كيف استباح تعذيبي؟ ما هذا الخور؟ هل أستسلم لهذا النّوم؟ لا.. لن يبكيني رَجلٌ أيًّا كان، سأحتمِل.. سأحتمَل.. سأ.. حـ.. تـ..

وهو يلقيني عابثًا على الأرض، كنتُ كذبيحةٍ تَم نحرُها، لكنّه كان يهلّل، يصيح، لم تكن صيحةَ نشوة، ولا صيحةَ إتيان، لم يكن الدّفء الذي شَعر به قد ألمّ بي، بل كانت انتفاضةَ بردٍ قارصٍ هي التي انتابتني، وهو يلوّث أناملَه بالدّم السائل بين فخذيّ، ثمّةَ نوعانِ مِن الدّم، دم الرُّوح، ودم الجرح المستهجن، وكلاهما استبيحا.

يرفع أناملَه لأعلى، على ضوء الشّمعة المتأرجح يتفقّد ما آلَ إليه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جسـدي، وبنشـوةٍ صارخةٍ يجري حولـه ويبدو كمنْ يبحـث عن أيّ أحـدٍ ليطلعـه على ظفـره المؤكـد، يبدو كمنْ ينبـش عن منفـذٍ ليطير إلى الخارج، والحروف تكسّرت بين شـفتيه، تأمّلته بانكسـارٍ مضاعف، ولم أكـن أصـدّق أنّ روحي أصبحتْ نقاطًـا مِن دمٍ تتناثر عـلى يديه الآن!

في الصّبـاح؛ كان راقـدًا بجـواري كخِرقةٍ مبتلّةٍ هامدة، راحت أشـعةُ الشّـمس تتسـلّل مِـن بـين ثقـوب النّافـذة، وتترامـي عـلى الجـدار، ثم تراوغنـي لكـي تتمكّـن مِن عُنُقـي، تفرّسـتُه طويـلًا، وغُصّةٌ محبوسـةٌ منـذ ليلـة الأمـس في حلْقي، مـا زال منظره وهو يعبث في شـاربه عقب انتصـارِه المزمـع يـلازم عينَـيّ، لم يكـن يُجـدي بعدهـا سـوى الصّمت الموجـع، هيّ ليلـةٌ أولى، وقاتلـة، هيّ ليلةٌ مِـن همٍّ واشـمئزاز، وصدمةٌ عظيمـة، لم أكـن أظـنّ أنّـه سيفسـد بشـططه وجنونـه كلّ ما هـو بريء بداخـلي! وهـا هـو نائـمٌ كشـيطانٍ وديع، يـا للعبـث! لم يفكّـر حتّى أن يقبّلنـي ولـو قُبلـةً على خـدّي شـكرًا وامتنانًـا بعد مـا انتهـى، أو حتّى يُبـدي القليـلَ من الأسـف على مـا ارتكبـه في حقّي، فقط أخـذَ يتباهي قليـلًا بدمي المـراق فوق أصابعـه، دمُ الشّرخِ الذي تسـبّب فيه بداخلي، وتَمـدّدَ عـلى الفِـراش، وغـطّ في نـوم، مبـاشرة هكـذا، كذلـك بغير أن يزيـل آثـارَ دمي مِن يـده، وكأنّها عمليّـة آلية رتيبة وخلصت، تسـاءلتُ هـل اختلطـتْ عليه المسـاعي ليلـةَ أمـس أم هنـاك غوايةٌ بديلة لـديّ لم أكن أعلـم أنّها ستسـلب تركيـزَه واتّزانَـه؟ ليتني...

لم أنَـمْ منـذ أمـس، ظللـت محدّقـةً ببلاهـةٍ وذهـول في الوجـوه التـي كانـت تبـزغ أمام بصري، وجـوهٌ أعرفهـا، ووجوهٌ لا أعرفهـا مِن صُنع

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

خيـالي، وغلالةٌ ثقيلةٌ مِن تنهـدات الفَجر تخترق أنفـاسي، وآهةٌ تائهةٌ تقبـع في صـدري، حملنـي الأمـس مِن عـالم قـاسٍ لعالم لـه قسـوةٌ أكثر جنونًـا، قسـوة مضاجعة روحي بهذا الانحطاط أشـدّ ألمًـا مِن مضاجعة جسـدي، كيف جسر على وطء ما ينبغي ألّا يُستباح؟ ومِـن أول ليلة! لكنّنـي مـا زلـتُ عـلى قيـد الحيـاة، مـا زلـتُ أتنفس وإنْ كان تنفسي عسـيرًا، أشـعة الشّـمس الشـحيحة تحطّ على صـدري وتُثقِـل أنفاسي، كنـتُ في حاجـةٍ للصّحـو، لم يكـن هنـاك مَن يبـالي بهذه الفـوضى التي نجمـتْ داخـل كياني غيري، كنـتُ في حاجة للتمعّن في شـظايا روحي التـي تناثـرت مِن حـولي، وأن أجاهد الاسـتكانةَ محاوِلةً لملمـةَ ما تَبقَّى، غـير أنّ معدتي متقلصة، وكلّما أوشـكتُ على التقيؤ عليـه وعلى الفِراش وعـلى كلّ التفاصيـل، ينهاني التسـاؤل: وهل يسـتحق؟ هيّ مجـرّد ليلةٍ وانقضت، بائسـة، وسـخة، أو مؤلمة، لكنّها انقضـتْ، كان عليّ أن أفكّر قُدُمًـا في الحيـاة الأخرى التي ينبغي أن أعيشَـها بائسـة.

لـن أُغـرِق نفْسي في إنسـانة بالية لم يعد لهـا وجود، لابـد أن أُقدّ نفسي مِن جديد، سـأنهض الآن، أتشـطّف مِن كلّ قـاذورات الأمس، وأنتبِه، بـذات الدّرجـة التـي انتبـه لها عنـد تمزيقـي، لمحاولـة الفكاك مـن هذا الفـخّ، تكفيـه ليلةٌ واحـدة مِنّي، لن ينال سـواها، أنا التـي قدّمتُ نفْسي بـلا إرادة حقيقيـة، وأنـا التي قبِلتْ على نفسـها هـذا الدّورَ المُهـين، وأنا أيضًا مَن سـتحلّ نفْسَـها مِـن أيّ التزام.

المـاءُ الفاتر ينعش جسـدي قليلًا، أتدلّل تحته كقطـةٍ منفعلة وأغمِضُ عينَـيّ عن كلّ مهاتـرات الأمس، محاوِلـةً القبضَ عـلى أنثى كانت

This file was downloaded from QuranicThought.com

بداخلي، القبض على بقايا منها عساني ما زلتُ محتفِظةً بها، أدعكُ بيدي كلّ زوايا الجسد البائد، وأتحسس مع ملمس الماء ورغوة الصابون دبيبًا مِن قهرٍ يجد له مسالك داخل كلّ كياني. هنا، والماء يجرف شيئًا مِن أحمال الأمس، آنَ لي البكاء، بعيدًا عن موطن الفجيعة وجسده اللزج، آنَ لي القليل مِن الرثاء، ليس أمامي الآن إلاّ محاولة إسعافِ ما أبقاه مِن روحي دون النّظر للجزء الذي يُبس فيها، والماء يغرف من همومي ويزيح، كيف هُنتُ على نفْسي؟ كيف سمحتُ له بهدر كبريائي؟

صوتُ الماء يشوشر على أثارة من اعتزاز قد تخلّفتْ في جوفي بعد غروب الأمس، فمضيتُ مع فكرة أنّني قد ضِعت، الضّياع المؤكد الذي لا فكرة بعدَه ولا مناص منه، على عجلٍ انسللتُ في ثوبٍ محتشم، وقلتُ لنفْسي ضياعًا بضياع، ليس بعد تعاستي الآن تعاسة، ليفعلْ ما يشاء، لكنّني سأهجره، الآن، دون مقدمات، ولا اعتبارات، سأمضي عن هذا البيت المدجّج بالغموض والحيْرة والرِجس، أقلّه حتّى يعلم الجميعُ أنّ هذا الزّواجَ مجرّد لوثة طارئة، ولتحترق الكنيسة، وليحترق القساوسة، سأمضي، قبْلَ حتّى أن يفيق أو يشعر بهول المصيبة، سأتركه في يوم الصّباحية، كدليلٍ على حقارتِه وبُغضي، سأنزل السلالمَ مهرولِة، قد أتعثّر في نزولي، قد أشعر به وبلهاثه مِن خلفي كأنّه مارد قاسٍ سيثِب عليّ فأجده أمامي، لكنّني مُصِرةٌ على الهروب، لم يعد فيّ ما يثنيني عن عزمي، لم يعد خوفٌ ولا تحفّظ، فقط نِقمة كبيرة عليه وعلى هذا البيت الموبوء الذي لم أمضِ به سوى ليلةٍ مِن مهانة، فأيّ أهمية؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تتسـارع دقاتُ قلبـي، متزامِنةً مـع تَسـارُعِ أقدامي، لن أحـاول خلْقَ مـبررات، المـبررات موجودةٌ بالفعـل أكثر ممَّا يتخيّل، بـدا أنّني أرى كلّ هـذه المعالم للمـرّة الأولى، كلّ الذّكريات التي يحتشـد بها جوفُ عقلي، إنْ أخطـأتْ قدمـاي السّـبيلَ فهـذا أوان التصحيـح، انزلقـتُ بما يكفي للعـودة مـرّةً ثانيـة إلى أعـلى، إلى الفتـاةِ الأولى التـي لوثَتْهَا يـدُه اللعينة، إنّـه كابوسٌ مفزِع، سـأتخلّص منه الآن، وسـأرجو الـرّب التخلّص مِن كلّ آثـاره، هيـا.. انـزلي.. غادري هذا المنـزل.. لا تبكِـي.. لا وقت الآن للبكاء.

تتلاحق سـاقاي في دروبٍ متلاحمة، يتشـنّج جسـدي، سأسـلك كلّ دروب هـذا البيـتِ لو اضطررت، لكن سـتهديني قدمـي في النّهاية إلى طريـق الخروج بكلّ تأكيد، تستشـعر أناملـي كلّ نتـوءات الحوائط، وأنا أترنّـح كغمامـةٍ ضالّة، أصطـدم ببعـض الأواني التي تعـترض طريقي، وصوته الكاسـح يـتردّد في عقـلي: ولا كلمة.

دفعـتُ بنفْسي خارجَ حـدود الـدّار، كانت الشّـمس تجذبنـي للبعد عـن المـكان، والبيـوت البعيـدة تتلهّـف خطـواتي المسرعـة، والحقـول المطموسـة تحـت لون الأشـعة الذهبـي تفسِـح لي طريق الهـروب، وأبي يلـوّحُ لي مِـن بعيـد، يطمئِنُني، يحتويني كشـاطئٍ يحتضن موجـةً تائهة، يسـتغرق النّظـر إليّ منتظـرًا، كأنّـه لم يـزل يحمّل نفسَـه الذّنب!

رحـتُ أركـض، آه يـا أبي كيـف أداري مـرارةَ المَهانـة والقهـر؟ آه لو تعلم كيـف مزّقني بالأمـس؟ أرجوك تنـاوَلِ المزمارَ واعـزفْ لي قليلًا، اعزفْ لي نغمةً شـجية طويلة تُسكن العاصفَ في قلبي، تمايل، سأتمايل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

معـك، سـأكتفي بأن أتابع خشـوعك بخشـوعٍ مماثِل، حـرّكْ أناملك الحسّاسـةَ بـين الثقوب وسـدّ تأوهاتِهـا، وتعالَ سـدّ هذه الثقـوبَ التي تفشّـتْ في كياني أيضًا، كُلّي ثقـوب، كُلّي جروحٌ لن تندمـل، تعالَ جوارَ أُذُني وأطلـق النغـمَ الـذي ينتقـل بأعصـابي إلى دنيـا أخـرى، آه يـا أبي، اعـزفْ، أخمِـدْ هـذه النـيرانَ التي تلتهمنـي دون رحمة، ظلّلنـي بحنانك إيّـاه، كـي أسـتطيع أن أجمـع مـا تبقّـى مِـن ابنتـك، قِـفْ بي عـلى حافة الوجـد المفقـود، وأطلِـقْ أنـينَ الآلـة الكامِـن، وحتّـى لا أدري إلى أيّ شـوق سـيقودني، سـوى أنّ اختـمارَ عزفِـكَ في رأسي سـيكوّن انفصالي عـن واقعي المـؤلم، تـآزَرْ معـي في نبشي عن ظـلّي الأبيـض القديم، هل تـدري يـا أبي أنّـك كلّما وضعـتَ أصابعك في جـروح المزمار تلمّسـتُ بـك مسـاحةً مـن هيـام لا توجـد إلاّ هنـا؟! اعـزفْ، لكـي ينطـق هذا الصّـوتُ المـشروخ في داخـلي ولا يستسـلم للرّيـح الغـادرة، اعـزفْ لا لأنّي هـذه البنـتُ التـي كانت تتأمّلـك من بعيد مـن ذي قبل، أيّـامَ كان للعـزف معنـى، لكـن لأنّي أرغـب كثـيرًا في اسـتعادتها، اعـزفْ حتّـى أتيقـن مِـن أنّي ما زلـتُ حيّة.

وثمّةَ طوقُ نجاةٍ يلوح في الأفق..

في انتظاري.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

شمس الدّين التبريزي

قونية/ الأناضول -٦٤٢ هـ

(الإيمانُ والحبُّ يجعلان الإنسان بطلًا، إذ يصرفان عن قلبه جميع المخاوف).

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إنّ السّعي وراء الحبّ يغيّرنا، فما من أحد يسعى وراء الحبّ إلا وينضج أثناء رحلته، فما إن تبدأ رحلة البحث عن الحبّ، حتّى تبدئين التغيّر من الدّاخل ومن الخارج.

إنّ الماضي تفسير، والمستقبل وهم، إنّ العالم لا يتحرّك عبر الزّمن وكأنّه خط مستقيم يمضي من الماضي إلى المستقبل، بل إنّ الزّمن يتحرّك من خلالنا وفي داخلنا في دوائر لا نهاية لها، إنّ السرمدية لا تعني الزّمن المطلق، بل تعني الخلود.

لا يعني القدر أنّ حياتكِ محدّدة بقدر محتوم، لذلك فإنّ ترك كل شيء للقدر وعدم المشاركة في عزف موسيقى الكون دليلٌ على جهل مُطلق، إنّ موسيقى الكون تَعُمّ كلّ مكان وتتألف من أربعين مستوى مُختلفًا، إنّ قَدركِ هو المستوى الذي تَعزفين فِيه لحنك، فقد لا تغيرين آلتُكِ الموسيقية، بل تُبدّلين الدّرجة التي تجيدين فيها العزف.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مولانا جلال الدّين الرّومي

قونية/ الأناضول -٦٣٥ هـ

(قلت للعشق ذات ليلة: أصدقني القول،

من أنت ؟ قال: أنا الحياة الباقية وأنا العمر

المتكرّر).

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

رائحـة مكتبتي خانقةٌ مكتومـة، والكتب من حولي متناثرة بعشـوائية مُفرطـة عـلى الأرض، ألوّح بيدي لابني «سـلطان ولـد»، فيُغلق الباب خلفـه ويخرج، بعـد قليل، أخـرج، وكانت جالسـةً في الفناء تنتظرني.

وجهُها قمريٌ وعيناها شمسـان، ينسـدل فوق رأسـها شـالٌ أسـود، تأمّلتهـا وأنـا أقـترب منهـا، وكان النّـور مـن خلفهـا يداعـب قسـمات وجههـا، راعنـي انبعـاث الألم والحـزن مـن رُوحهـا بهـذا الشّـكل المفضـوح، عندما لمحتني نهضت، وبإشـارة من يـدي دعوتها للجلوس ثانيـة، أذعنـت، فجلسـتُ في مواجهتهـا، قالت:

- مولانا، ما جئت إلّا لما شاع عن علمك ووصلك مع الله.

- كلّنا واصلون بنهاية الأمر.

- أنشد لي شعرًا.

ابتسمتُ، وقلت لها:

- ليست هكذا تؤخذ الأمور، بعضُ التعارف خيرٌ.

- أنا «كيرا»، مسيحية.

قالت، فرددت عليها:

- عند الله يتساوى البشر، الفرق بينهم طاعة واحتساب.

ثـمّ ناديت على «سـلطان ولد» ليناولنـي دفتر الأشـعار، طالما جاءت محبّـة فلتظفر ببغيتها، إنّ الشّـعر في النّهاية تريـاق للأرواح.

تتلكأ بعض اللّيالي حتّى الشفق
كيما يُؤذّن القمر للشّمس أحيانًا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فكن مثل قادوس مُترعٍ جرَ دروب الظّلام

من بئره ثم يصعدها إلى النّور

أحسست بدمعة طفرت من بين جفنيها، بدت تحمل شكوى، وتنتظر أن يشاطرها فيها أحدٌ، فأكملتُ:

عيوننا ما تراك

لكن عُذرًا لنا: فالعيون ترى مظهرًا

لا حقيقة ولو أنّ لطيفة هذه المنزلة

ترجى دوامًا

أدرج على الأرض عاري القدمين وأذهلها بالدّوار

فهي حبلى بالمرح و البراعم

ربيع مصطخب يرتقي نحو النّجوم

والقمر ينشده ممّا يدور

أنصت إلى الأطياف داخل القصائد

دعها لتأخذك حيث تريد

اتبع تلك الإشارات الباطنية

ولا تُخلف مقدّمة منطقية

يرجع اللّيل حيث أتى

كلّهم عائد عند وصولك

احك لهم كم أحبّك

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فجـأة؛ شـبّت ناهضـةً، وأولتنـي ظهرهـا وبـادرت بالمغـادرة، لكنّها التفـتّ لي ثانيـة، وقالت:

- سامحني يا مولانا، هذا أكثر ممّا تحتمل روحي.

اسـتوقفتها، وعندمـا نهضت مـن ورائها أستكشـف، وجدت عينيها مليئتـين بالدّموع، شـعُرت بولدي «سـلطان ولد» يتلصّـص من بعيد، رميتـه بنظرةٍ فانسـلّ إلى الدّاخـل، قلت لها:

- على الرّوح أن تغتسل بعشق الله.

- وأين هو الله وسط هذا الخراب؟

- إنّما الخراب خراب أرواح لا أجساد.

- أجـل يا مولانـا، إنّ روحي خربـة، ولكنّي اسـتمتّ كيما أُصلحها، بـلا جدوى.

- انـصرفي إلى الله في خشـوع وقناعـة، كفيـل هـو بإصـلاح الأرواح الخربة.

- هل تعرف يا مولانا...

ثمّ صمتت قليلًا وهي تستدير لتغادر، لكنّها قبل أن تغادر قالت:

- إنّ الله أكبر كذبناها.

ظلّـت كلماتهـا تـتردّد في رأسي، لم أكـن أعـرف أنّ الإنسـان يُمكن أن يتعثّـر لهـذه الدّرجة، ما جـدوى انشـغالنا بالتصوّف والفقـه والعلم إن كان العـالم لا يتغيّر! فطالما الإنسـان مُغرق في تعاسـته، لا شيء من العالم يتحـرّك للأمـام، الدّائـرة مغلقـة إذًا، والنّوافذ في السّـماء مُوصدة بوجه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ابـن «آدم»، ومـا نحـن إلّا مجـرّد حصى لا يُدرك بسـفح جبـل الزّمن، يدور الزّمـن، ولا يعتبرنا.

في فجـر هـذا اليوم، خرجـت إلى الخلاء، ركبت فرسي وتركتها تسـير بي، صلّيـت تحـت شـجرةٍ عنـد حـدود المدينـة، وكانـت حقول الـذّرة مـن حـولي تترامـى كأنّ لا نهايـة لهـا، تحبس الشّـمس من خلفهـا، وتترك أضواءهـا تخـرج مذبوحـة، دامية، كانـت روحي قـد أصابهـا قليلٌ من الخمـول، فبرغـم كلّ شيء؛ لم أنـس «كيرا».

عُـدت للمنـزل، عبرت وسـط وديـان وحقـول وأشـجار وحدائق، شـعر «سـلطان ولد» بمـدى الضّيق الـذي يعتمل في روحـي، فقال لي:

- أأجهّز لك إفطارًا يا مولانا؟

يعـرف أنّي لا أفطـر منذ خمس سـنوات ويزيـد، أصوم دونـما انقطاع، لكنّـي؛ في مبـادرةٍ غريبة، قلت:

- حسنًا.

رفـع حاجبيه، ثمّ انصرف يلبّي رغبتي، نظـرتُ من نافذة المكتبة، كان الفناء مسـفوحًا تحت أشـعة الشّـمس، وكانت يدي ترتعش ارتعاشـة لم تكـن من قبـل، بلعت ريقـي، إذ لعلّ الهواجـس بدأت تعـاودني، ولعلّ الفـراغ القديم يُولـد من جديد، ويتوّغـل في روحي، أحسسـت أنّ آهة مكتومة تلهج في أحشـائي.

الله معنى أم حقيقة؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مـرّة أخـرى تخالجنـي الهواجـس، كلّـما ظننـت أنّي بلغـت الـذُّرى، ألفيتنـي سـقطت مـن حالـقٍ، وكلّما عشـقتُ، انقبـض قلبـي.

بعـد أيّـام؛ زارتنـي «كـيرا» مجـدّدًا، إنّـما هـذه المـرّة، كانت قـد انتوت أن تكاشـفني، وألا تضـنّ عـليّ بـسرًّ، جلسـنا في الفنـاء، كانـت فرسي تحمحـم مـن داخـل حجـرة الإسـطبل، خـرج «عـلاء الدّيـن» وناولها حزمـة حشـائش، فأخـذت تصهـل في انسـجامٍ وهـي تفـرك الأرض بقدميهـا، «كـيرا» سرحـت قليـلًا مـع صهيـل الفـرس، وقالت:

- ما الذي يميّزنا يا مولانا عن هذه الفرس؟

- النّـور يـا «كـيرا»، النّور، هـذه الفـرس لا تعرف الله، لأنّها ببسـاطة لا تفهـم الفـرق بين الخطأ والصّـواب، لا يُمكنها أن تعشـق، إلّا بالقدر الـذي تمنحه لهـا غرائزها.

- غرائز الإنسان أشدّ فتكًا وشرًّا.

- ولكنّ الإنسان قادرٌ دومًا على كبح غرائزه.

قصّـت لي حكايتهـا مـع «آزار»، ومـع الرّاهـب، هروبهـا ومـن بعدِه الكـرّ والفـرّ اللّذين تعرّضت لهما، لولا تدخّل كنيسـة «آيـا ألنا» وإجبار «آزار» عـلى تطليقها.

ظلّت تغـادر وتعاود زيارتها كلّ بضعة أيّـام، وانصرفتُ للتفكير فيها دونًـا عن كلّ شيء، الشّـعر والتصوّف والرّياضة، حتّى الله، حسـبي أنّ «كـيرا» بدت لي نسـخة طبـق الأصل من عشـقي لله، ولكـن؛ على هيئة بشرية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في زيارتها الأخيرة لي كضيفةٍ، صارحتها في جسارةٍ:

- «كيرا»، تزوّجيني.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كيرا

قونية/ الأناضول - ٦٣٥ هـ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بيتٌ جديد على قلبي، ملء محبّة وصفاءٍ، تدعوني السّلالمُ الحجرية الطّالعة للسّطوح إلى الاستئثار بروحي، تنعطف إلى أعلى انعطافةً طفيفة، أنعطف معها فتنعطف دماغي عن كلّ المعاناة القديمة، الشّمسُ ترقد في انتظاري على سطح البيت تدعوني للتفاؤل، تفرش أذرعتَها فوق الحصى والسّور وفوق رأسي، تدغدغ أحاسيسي كطفلةٍ مرحة، أنساقُ خلف الأمل الذي تبثه، خلفَ طالعٍ جديد، صباح جديد، أتّكئ على السّور الواطئ، أحتضن بعينَيَّ كلّ مساحات الزّمن المُباع، إنّما ما كلّ هذه الحرقة؟ هل كان يبدو التحرّر بعيدًا لهذه الدّرجة؟!

أُمسِك طرفَ مرآةٍ متكسّرة، أرفعه نحو وجهي، بدوت وكأنّي مِن عالمٍ آخر، كم يبدو وجهي شاحبًا، كأنّي نقشٌ باهت على جدار، وجه حزين، متمرّغ في اليأس، كأنّما لا تُفارقني خيبات الماضي، متى تستريح رأسي من شعور الخيبة والإذلال؟! وهناك على المدى المزهو باللّون الأخضر لا يكتمل زمنٌ ولا يستمر حُلم، أقِف كما بدوتُ تمامًا منذ قبل، ناقوسًا يحذّر المساحاتِ الخضراءَ من خطر القهر الدّاهم، ولكن رنينه خافت، متقطّع، كأنّي على حافة أمكنةٍ غير آمنة، أليس من طريقةٍ للقبض على كلّ اللّحظات البريئة الهاربة؟

سأصارح «الرّومي»، سأقول له أنت فكرةُ الرّجل الكامل، أنت مبتَدى عشقي البريء، لن تجد مَن هيّ أدفأ منّي، أو أصدق منّي، لن تجد حتّى أنثى تشبهني في شيء، بل لن تجد حدوتة لذيذةً تعيشها إلاّ بين يدَيّ، فأنا مَن ستجعلك وليًا في محراب هواي، أنا مَن ستجعلك

This file was downloaded from QuranicThought.com

ربيعًا لتتجاوز خريفَ أيامِك، أنا التي سأُوقد مِن روحك اليانعة قمرًا يتلألأ في عينيك، فأمنحك البهجةَ والسّعادة والفرح، حبيبي أنت مجرّد حكايةٍ ناقصة اكتمالُها يكون فقط.. لـدَيّ.

أدخل غرفتي الصغيرةَ فوق السّطوح، تتسكّع فوق أرففه الخشبية كُتُبٌ ورسومات اصفرّت أوراقها، أتناولها جميعًا في انقضاضةٍ واحدة، تهوي برميةٍ مستخفّة فوق الأرض، يتراقص لهب المشعل بين أناملي، سأشعلها، دفاتري الجديدة سيكتبها «الرّومي»، لكنّ المشعل سرعان ما يوهن مع ارتعادة يدي، ثم ينتابني بكاءٌ حارق أخذ يفرّغ القليل ممّا يعترك بداخلي، مالي مشتّتة هكذا؟ هل لأنّي أوغلتُ في تذكّر الماضي دفعةً واحدة؟ تجرف دموعي روحي، وتكنس بعض فضلات الذّكرى، هواء مشبّع بالطمأنينة ينفذ عبْرَ روحي، فتجتاحني السّكينةُ غير المنتظرة، أتقرفص على الأرض، أحاول أن أعيد إيقاد روحي، فأرى لمحةً مِن بريق أخّاذ تضوّي أمام بصري، كان وجه «الرّومي»، كحُلمٍ أَخَذَ يتوّهج رغم عتمةٍ تراكمت في عقلي، شظايا مِن مرآةٍ متهالكة تتناثر فيها حولي، تتلاقى انعكاساتُها بخيطٍ من بريق، فتبدو كلّ بدايات الأشياء العقيمة وكأنّها نهايات، وبعض نهايات تحيد نحو بدايات أخرى، دائرة مِن تخبّطٍ أحاول الانتقالَ داخل حدودها إلى نفس شكلي المبدئي، فِطرتي الأولى، حروف مبعثرة لا تتبلوّر إلى كلمات محددة تجيش فيّ، تنحرف عن دلالاتها المعتادة، تتداعى كما تتداعى كل السمات المؤطّرِة لهويتي، فأشعر وكأنّي قطعةٌ مِن صلصال تعجنها أناملُ الحيْرةِ والذّهول، تضغط مِن كلّ جانب،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فأبتعد عن مشهد روحي غير الثابت، أجاهد أن أستريح قليلًا، قليلًا، أنغمس في سكونٍ لذيذ، أفتح عينَيّ على رؤيا مِن بُعدٍ خاملٍ في روحي راح يدنو ويدنو، ويُشعرني أكثرَ فأكثر بالطّهارة، تهمس الفتاةُ القديمة -التي أصبو لاستعادتها- داخلَ رأسي:

- هه.. ماذا ترين؟!

فأقول:

- أرى...

ثم يتعطّل صوتي، أستمِعُ لها في توّحدٍ وشجنٍ وافتقاد، افتقاد مؤلم، أُكمِل وعيناي تسرحان نحو زمنٍ أولٍ بريء:

- أرى الحُلمَ يُقبِل على المدى من جديد.

وأضحك في نفسي بحرقة، وهل عانَى مثلما عانيتُ في هذه الحياة أحد؟! حاولتُ أن أتحصّن خلف تخيّلِ مستقبلٍ أكثرَ براءةً ووضوحًا مع «الرّومي».

أرانا جالسيْنِ تحت ظلّ العشق ننجرف خلف الحديث العذب بالسّاعات، فينقضي النّهار ويحفّنا المساء بمجيئه السلس، أسمع ضحكاتِه وهو يداعبني في خيالي:

- أريد أن أبدو أكثر واقعية معكِ.. أشعر أنّني مجرد مجازٍ في حياتك.

أحدِّجُه بنظرةٍ مستنكرة متدلّلة، أقول في هيام:

- إن كنت أنت المجاز فأخبرني أيّة حقيقة بعدَك في الحياة؟!

- كم جميلةٌ أنتِ!

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أشيح وجهي عنه في خجلٍ ودلال، ثم أقول:

- إنّه الحبّ فقط.

- كلّا، أقسِمُ أنّكِ أجملُ مَن رأيت، لو يسعفني الزّمن لصنعتُ مِن ملامحك خريطة للوجود.

كلماتُه منتقاةٌ مِن لغةٍ لم أكن أعرف شيئًا عنها. مجرّد وجودي جوارَه يورّثني هذا الشّعورَ المستأثر بالألفة والتلاؤم، الحقل الشّاسع الذي نجلس في ركنٍ منه عند السّاقية مطرّزٌ بزهر القرنفل، وفرسه تصهل في تدلّل، وفي الأفق القريب ضبابٌ يمحو كلّ حدود الذّهن، يصنع عالمًا هلاميًا مِن استقطابٍ حِسّي وتفرّد.

يميل «الرّومي» ميلًا طفيفًا ثم يقطف عودًا من أعواد القرنفل، يخامرني الشّعورُ بأنّي في صحبةِ كلّ أزمنة العشق الغابرة عندما أستنشق رائحةَ القرنفل، عجيبٌ هذا الزّهر! لا يشبه زهرًا آخرَ لا في لونٍ أو رائحة، أعواده الرفيعة التي تزيّنها رؤوسه المدببة المنفرجة للخارج وكأنّه شامخٌ شموخَ الغرام ذاتِه، لونه البني الدّاكن كأنّما آلافُ التفاسيرِ قد توقّدت مِن جدارِ معبدٍ أثري، يناولني «الرّومي» عودَ القرنفل فأتحسّس به أنفي، أودُّ لو يسحبني لعالمه.

- حبيبي، كيف يُمكن أن نفسر العشق!

- عشقنا!

- العشق عمومًا، هل هو إحساس بالآخر يختلف من واحد لواحد، أم طبيعة من روح الرّب نفخها فينا لمّا نفخ روحه!

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

- آه حبيبتي، أنتِ العشق كلّه، روحك معنى العشق.

ثم يلتقط منّي عودَ القرنفل ويدسّه في فمِه ويجعل يمضغه قائلًا:

- هكذا يكون العشق حقيقيًا.

ويلامس بأنامله جبهتي فأحسّ كأنّ النّسيمَ يوشوش لأريج الزّهور، تنتشي أوراقها الرقيقة وتفرّخ حولنا ألوانًا بلورية، غمسَ عينيه في نهر عينَيّ وأنشدَ أغنيةً داخل عقلي، ثم أضاف وهو يلوك القرنفلَ في فمِه بجدّية واستعراض:

- وهكذا تعيش روحك بداخلي إلى الأبد.

أستلقي برأسي للوراء فتتخلّلني رائحةُ القرنفل، كم تشبهك يا حبيبي! تشبه كلّ الدّغدغة التي تقتحمني في وجودِك.

التصقتُ به، جلسنا متسانديْنِ على بعضنا البعض، نظرتُ نحوه، ناجيتُه: كنتُ أنتظرك، أنتظر هذا الفَجرَ الذي يطلع مع مجيئك.. قرص غمازتيك على رحِم قلبي.. وجهك الخلاّب.. صبوة العشق.. كنتُ أنتظر رفيفَ جناحيك في سمائي.

تخلو الدّنيا مِن الضجيج، تنداح كلّ الأصوات، عدا صوته الذي يرنّ في أُذُني:

- ما أجملَ السكينة!

يمسّ بشفتيه رقبتي، نتوارى خلف أعواد القرنفل والهدوء وخلف حبّنا، أستعذبُ قُبلتَه الحانية، نختلس لنا وهلةً خاطفة، لا تراقبنا مِن خلالها الأعينُ ولا الأماكن، كدتُ أنهل من العسل الذي يتقاطر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مِـن توقّـف اللّحظة بيننـا، لكنّني كنتُ أعـرف أنّنا محـاصَران، مع أنّ الحقـلَ فسـيحٌ والسّـكون يحدونـا، إنّما أشـعر أنّي مـا زلـتُ مراقَبة، عينا أمّـي معلّقتـانِ في بنـدولٍ أَعلاَنـا، وصـوت «آزار» يرنّ في أذني، أسـمع أبي، أشـعر بـه في ركنٍ مجاور، أسـمع وقْـعَ أنفاسِـه، ضحكاته العصبية وتحذيراتـه الغاضبـة، صياحـه العـالي، الرّاهـبُ واقـفٌ يختبـئ خلـف شـجرةٍ قريبة يبتسـم ابتسـامةً متشـفيّة ويداعب بأنامله قضيبَه، الماضي يتأرجـح عـلى المـدى وبطنه مثخـنٌ بجـرحٍ عريـض، يتدفّق منـه خيطٌ غزيـرٌ مِـن دمـاء، لا لسـتُ آثِمـة، دَعوني قَليـلًا أتجرّع مِن هـذا الغدير العـذب، دَعـوني لسـتُ آثِمة، أنـا أحِب.

فمهـلًا يـا «رومـي»، قد أتعـرّى بين كفيـك، قد تـرى هذه الإنسـانةَ التـي تبتغـى التحـرّر، مهلًا واتـركْ لي زمـامَ نفْسي ولـو للحظة.

– لماذا تبتعدين عنّي يا «كيرا»؟

صدِّقنـي لسـتُ أنـا مَـن ترتجـف تحت يـدِك وتمـضى عنـك بوجهها بعيـدًا، إنّهـا تلـك الفتـاةُ التـي قيّدَتهـا التقاليـدُ والأعـراف، الخطـأ والصـواب، والمـاضي البعيـد، فعـلامَ تعاتبنـي؟

ازدرتُ لُعَـابي، اعتدلـتُ عنـه وحدّقـتُ في عينيـه، أنـت في مكانـك المختـار في فـؤادي، ولكِـن دَعنـي مبدئيًا أنزلـق إلى عينيك كـي نندمج مِـن الجذور، بعدَها ليأتِ كلّ إحسـاسٍ بمقتضَى الحالة المسيطرة، كيفما تكـون، وأينـما تفـضي، أنت لا تعلـم أنّني أطلـتُ وقـوفي في الشّرفة كلّ هـذا الزّمـن القاحـل فقط لأجـل انتظـارك، فكيـف تتّهمنـي بالابتعادِ عنك ؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

غدونـا اثنـيْن ثانيـة، كان القرنفـلُ يسـتدير برؤوسـه الضّئيلـةِ خلف خطواتنـا، تنشـع عيونـه دمعًا للفـراق المؤقـت، يهمـس لي: في جوفه أنا أرقـد.. رائحـة منـك ورائحة منّي.. فاسـتكيني بداخله كما اسـتكنت.

الطيـورُ التـي كانت تزقزق منذ قليـل، طوتْ أجنحتَهـا وغفت، كان يسـير بجـواري بفرسِـه وبـرودةٌ تحـوي كفّـه، لسـتُ أعـرف إنْ كانت هـذه بـرودةَ يدي أصـلًا؟ لماذا تـصرّ على التشـبّث بيدي طالما لا تشـعر بـدفء؟ هَـبْ أنّني جُننـت، إنّما لا علاقـة بينك وبين ما أشـعر الآن، لا توّصـف الحـالاتِ يا حبيبـي بآنيتها، إنّهـا تتضمّن ما هو أفـدح، ماضيًا سـحيقًا، ألمًا كامنًا، فِكـرًا مذبذبًا. رغم براءتنا، تجتاحني أحيانًا لسـعاتٌ مِن مَشـاهدَ قابعـةٍ في ذهني، فهـوِّنْ عليك، لسـتَ أنـت الدّافع لتقلّبي مِن حـينٍ لآخر.

كان واجمًـا، ونحـن نجتاز الخـضرةَ واللّحظاتِ الحلـوة، لم يكن ينظر لي، ولم يكـن فمُـه ينفرج ولـو عن تنهيـدةٍ سريعة، كان مستسـلمًا لنقطةٍ بعيـدةٍ تشـدّ بـصرَه لهـا، تململـتُ تحـت ضغـط كفّـه عـلى يـدي، يبدو أنّـه بـلا درايـةٍ أو انتبـاه يعصرها ببـطء بين أصابعـه، تأوهـتُ، توقّفَ، اسـتدار بعينيـه نحوي شـاردًا ثم أفلـتَ يدي منتبِهًـا في اسـتدراك وقد بـدتْ عليـه علاماتُ الأسـف:

- أنا...

- لماذا اتّهمتني بالبُعد عنك يا رفيق قلبي؟

بان شبحُ ابتسامةٍ شاحبة على ثغره، وقال:

- حبّي لك أعظم من مجرّد اختيار.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ضممتُ يدَه في يدي أكثر، وقلت:

- أنت اختياري المطلق.

- وأنتِ منتهى بحثي عن الله.

زفرتُ زفرةً حارة، طار بصري نحو السّماء، وكانت ذكرياتٌ تمور في عقلي، استدرتُ نحوَه هامسةً وأنا أحاول إدارة دفّة الحوار:

- هل سنعيش عمرنا كلّه سويًا؟

بدا قد بوغِتَ، لكنّه فطِن لمحاولتي في سرعة، احتواني بعينيه، استوعَبَ محاولةَ تنقيحِ اللّحظة من عبء تقلّباتي، ابتسَم بهدوء وهمهم:

- سنفعل يا حبيبتي، سنفعل.

دنوت من شفتيه، توتّرت ملامحه وأخذت شفتاه ترتعشان، شبكت شفتيّ بشفتيه، دارت رأسي، انغمستُ في عالمٍ مواز، ساحت خلايا عقلي، وانصرفتْ شجوني في لحظة، قبض عليّ بشفتيه أكثر، وشدّهما داخل فمه، كانت عينانا مغمضتين، لكنّه همس:

- إنّما الزّمن بأسرِه خُلق لأجل أن نلتقي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مولانا جلال الدّين الرّومي

٦٣٥ هـ

(عندما أحسست بالحب أول مرة بدأت أبحث عنك؛ كنت أعمى، لم أكن أعرف أنّ العاشقين لا يلتقيان؛ لأنّ كلّ واحد منهما يسكن الآخر للأبد).

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

رغم تحفّظات البعض؛ ومنهم قساوسة كنيسة «آيا ألنا»، تزوّجنا. وأنجبت منها «أمير العلم شلبي»، وابنتي الوحيدة «ملكة خاتون».

* * *

استقرّ فؤادي معها.

أحببت الخروج معها، نمتطي الفرس، ونركن حيث نشعرُ بالسّكينة والهدوء.

في هذا النّهار، جُبنا شوارع المدينة.

العصافيرُ نائمة، لا صوت لها في كُتُلِ الأغصان المتشابكة أَعْلَانا.

كان ظلّها -ومصابيح الإنارة ممتدّة في الشّارع الطويل كطابورين متوازيين- يسقط فوق ظلّي. في منتصف النّهار، تهجع المدينة، خاصة في لحظة القيلولة، لا يبقي غير الأحبّة المتفرّقين داخل شوارعها المتوارية.

بَدَوْنا كفرعيْن فارّين من شجرةٍ طافية في صفحة سماء، لا تقوي الأرضُ على حملنا، فكنّا نسير وكأنّنا نطير، بيننا وبين سطح الأرض مساحةٌ من الهواء. أناملها تحاول لمسي، فأقبض عليها ولهًا.

- تعالي نجلس.

على سورٍ حجري مختبئ عن الأعين خلف تعريشة من شجر قصير القامة كثيف الأوراق نجلس، تضمّني في عينيها وتهمس وقد راح جسمي يرتجف:

- بحق المسيح! لماذا ترتجف هكذا؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أتنهّد، تسقط عيناي لأسفل وأشبّك أصابعي في بعضها البعض، ولا أرد.

- لو تُكاشفني عن دافع خوفك!

- أنا نفسي لا أعرف سببًا!

- لعلّك تخاف منّي..!

أرمقها متمعّنًا، على العكس، أنا خائف عليكِ، خائف ألاّ تطول نعمة الحبّ الذي نعيشه هذه اللحظة، أخشى من الأقدار، من تجربة هذه اللذّة التي أشعر بها معكِ الآن.

أخذتْ يدي، كانت تقلّب عينيها في وجهي بحثًا عن أيّ تعبيرٍ شارد، لكنّي كنتُ متطلّعًا إليها، ولم أحاول سَحْبَ يدي رغم برودتها، لعلّها شعرتْ بهذه البرودة التي تنقلها لها يدي، إنّما كنت أتطلّع إليها في شجن، تساءلتُ مِن أين خرجتِ؟ كيف ظهرتِ في حياتي فجأة؟ بهذه المباغتة غير المنتظرة؟ الغريب أنّكِ لا تشبهين أيّ حلم من أحلامي، ولا أيّ تصويرٍ محتمل، الأغرب مِن هذا أنّني أشعر بأنّ هناك قاسمًا مشتركًا فيما بيننا لا يمكنني استيضاحه بالتحديد، وكأنّي في الحقيقة لم أكن أنتظر لحياتي سواكِ.

قالت:

- غامرت معك، لا تنس، وأشعر بالأمان رغم كلّ شيء.

وضحكتْ.

كانت قسماتُ وجهِها تنُمُّ عن شرودٍ تسلّل لها منّي كأثيرٍ غير

This file was downloaded from QuranicThought.com

ملموس.

ولكـن في الحقيقـة عـليّ أن أعـترفَ أنّني التقيتـك من قبل يـا «كيرا»، كلّ مـا فيـك يؤكد هـذا، في زمنٍ ما.. مـكانٍ ما.. حلمٍ مـا.. أجد هذا في تعبيراتك.. عينيك.. ملامحك المتسـائلة.

قالت:

- أكثر ما يخيفني أن أصحو.

- وأكثر ما يخيفني أن نغفو.

فاحتضنتنـي، وراح يرتسـم حولنا شـعورٌ جديد، بدأت بـرودة يدي تتبـدّد، وبـدأ جو مِـن عذوبةٍ يتسـلّل إلى نظرتها لي، مِلـتُ وأصبحتُ في مواجهـة عينيهـا مبـاشرة، جعلـتُ أتأمّل تفاصيـل وجههـا التي كانت تنبسـط. دعينـي أصـف لـك مـا يختلـج في قلبـي، أحببتُـكِ منـذ أول لقـاء، لا تَسَـلي لمـاذا؟ ولكـن هـذا التوّحـد قد يجـيء بغير أن نحسـب لـه حسـابًا، أنتِ الخيـالُ الـذي لم يُعـدّ سـلفًا، ولم يطرأ بذهنـي مطلقًا، هـل تدركـين أنّ الحـبّ في سـنّي حماقـة؟! تعرفـين، والله حماقـة كبرى، اتركينـي إذًا لهذه الرعشـةِ وليدة هذا الإحسـاس الأخّاذ، علينـا ألاّ نبدّد هـذه اللّحظةَ هبـاء، لأنّ اللّحظـاتِ القادمةَ قطعًا سـتكون مختلفة وربّما غـير مأمونـة، فاحتوينـي بعينيكِ لأبعـد مدى، خذينـي مِن هـذا العالم القبيـح واصعـدي معـي فوق.. هنـاك.. حيث عـالم لا بشر فيه سـوانا، تحسّـسي خلجاتِ فؤادي بيديك المفعمتين بالإحسـاس، دعيني أتفتّت بداخلـكِ.. دعيني.

أضـاءت الأشـجارُ ونفضـتْ عنهـا النعـاسَ كأنّـما بُعِثـتْ بعـد رقادٍ

This file was downloaded from QuranicThought.com

طويل، رحيق شفتيها يفوح محمّلًا برغبة محتجزة، وكعصفورٍ مبلّل رحتُ أقشعرّ بين يديها، لمساتُها تختزن جلال الوجد بأكمله، ومن فرط سعادتي وددتُ لو أرتمي على صدرها، عَلَنًا، لكن حولنا بعض المتلصصين، حولنا المفرداتُ الصاغية، والتفاصيل المؤرقة، كانت لمسة يدِها وحدَها كفيلةً ببث الرعدة في أوصالي، وكأنّ سلك كهرباء عريانًا قد مسّني، قلت لنفسي: لم أعد خائفًا يا «كيرا».. لم أعد.

شدّتني مِن يدي ونهضنا، مشينا بين الأغصان في هذا الجو الاستثنائي ويدُها تحتوي يدي، كنّا قد طلعنا لفوق بضع خطوات، ولم تعد أقدامنا تلامس واقعية المحيط، همستْ في أُذُني:

- أحبّك أكثر ممّا أحبّ نفسي، لهذا غامرت.

اختبأتُ مسرعًا في قلبي مِن وجَلي، اعترافها الأول المعلن صراحةً بحبّي، يا لانتشائي! وأنا.. أنا أحبّك أكثر ممّا تتخيّلين.

قالت في توّجسٍ ممتلئ بالغرام:

- تُرى، هل يكفي الحبّ فقط؟

- وأيّ حاجةٍ لغير الحب؟

تطلّعت لي مبتسمة، كانت عيناها تخبراني بكلّ ما يصطخب في أحشائها، وغبطةٌ ناعمة تستحوذ على قلبي، لكنّها همستْ بدلال:

- أحتاج الدّفء أكثر.

بسبب «كيرا»؛ انغمست في استعمال الموسيقى والشّعر والذّكر كطريقٍ مضمونةٍ للوصولِ إلى الله، لا أكاد أحاضر في مدرسة أو تكيّة،

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إلّا وازدحم المكان بالمريدين، وكنتُ أحثّ مريديّ على التحصّن بالموسيقى، فالموسيقى الرّوحية تساعد المريد على عشق الله والتعلق به وحده، درجة أنّ المريد قد يفنى ثم يعود إلى الواقع بشكلٍ مختلف، ومن هذا المنطلق طوّرت فكرة الرّقص الدّائري التي وصلت إلى درجة الطقوس، وقد شجّعت على الإصغاء للموسيقى وأسميت هذه الطّريقة «الصوفية السّماع»، إذ يقوم الشّخص بالدّوران حول نفسه في نزهة روحية تأخذ الإنسان في رحلة تصاعدية من خلال النّفس والمحبّة للوصول إلى الكمال، والرّحلة تبدأ من الدّوران الذي يُكبّر المحبّة في الإنسان فتخفت أنانيته، ليجد الحقّ الطّريق للوصول إلى الكمال.

وحين يعود المريد إلى الواقع، يعود بنضوجٍ أكبر، ممتلئًا بالمحبّة، ليكون خادمًا لغيره من البشر دون تمييز أو مصلحة ذاتية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

شاهين

خوي/ إيران -٦٤٦ هـ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جدران البيوت في «خوي» تكبّ حيّات، الفزع فوق الوجوه، الأفئدة مضطربة، والملامح متوتّرة، لا يُمكن لأحدٍ منهم أن يفطن لردّ فعل الحيّات، بين يومٍ وليلة تمتلئ المدينة بها! في سابقة لم تحدث من قبل!

كلّ الذي كانوا يفكّرون فيه هو النّجاة، كيف يُمكن أن يطردوا هذه الحيّات من داخل شقوق ومكامن الجدران والأبنية، فإن قتلوا حيّة أو اثنتين أو عشر، هل ستنتهي المسالة عند هذا الحد! الحيّة طبيعتها الثأر، لكن ممَ تثأر؟

يستدعي الرّجال كلّ قساوسة المدينة، طالما البخور والقرآن لم يشفع، يأتي القساوسة، ويبدؤون في التلاوات.

يتمتم أحد القساوسة وهو يرفع صليبًا أمام وجهه:

- أضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلِك ونسلها، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه.

يضيف آخر:

- والله معطي السّلام سيسحق الشّيطان تحت أقدامكم عن قريب.

وثالث:

- ورأيت ملاكًا نازلًا من السّماء ومعه في يده مفتاح المهواة وسلسلة عظيمة، فقبض على التّنين؛ الحية الأولى، الذي هو إبليس والشّيطان، وقيّده ألف سنة، وطرحه في المهواة وأغلقها وختمها عليه، لكيلا يضلّ الأمم بعد حتّى تنتهي الألف سنة، وبعد ذلك لابدّ له أن يُحَل

This file was downloaded from QuranicThought.com

زمنًا يسيرًا.

وتتواتـر التّـلاوات والتّعاويـذ، كأنّما هـي دقّات القلـوب المضطربة، الأعـين تتابع في فـزع زحـف الحيّات خارج شـقوق الجـدران، وتنتقل من جدار لجـدار، والحيّات كطوفـانٍ هادر، تخرج بالعـشرات، بالمئات، تنتـشر أمامهـم، وحولهـم، في كلّ المدينـة، تحاصرهـم، والأعـين تلمـع بالفـزع، بعـض الحيّـات تـشرأب وتحدجهـم، يُفزعـون، يتراجعـون يلتصقـون ببعضهـم البعـض، الرّعـب يتجلّى، والملامـح ترتعـش، والعـرق ينهمـر، والألسـنة التي تتلـو تبـدأ في التقطّع.

يُشـعل أحدهـم نارًا، إنّـما الحيّـات ثابتة، ثابتـة في انتشـارها الذي بدا محسـوبًا، وثابتـة في التدفّـق مـن بـين شـقوق الجـدران، لم تشـفع معها النّـار، ولم تشـفع لا التّـلاوات ولا التّعاويذ ولا حتّى آيـات كلّ الكتب المقدّسـة، الحيّـات اجتاحت مدينـة «خوي».

بعـد يوم أو اثنين، سـتمتلئ المدينة عـن بكرة أبيها بالحيّـات، ومعلومٌ أنّ الإنـس والحيّـة بينهما نفورٌ وثـأر، الحيّة حليف «إبليـس»، و»إبليس» عـدو ابـن «آدم»، والـرّب حـوّط ابـن «آدم» بالرّعايـة والرّحمـة وعـوّذه ضـدّ الشّـيطان، خصوصًا ابـن «آدم» المؤمن، فما بالهم بابـن «آدم» الذي وهـب نفسـه وحياته لله! هـم رجـال الله المتصوّفة في نهايـة الأمر!

بعـد يـوم أو اثنـين، كلّ الذي سـيفعلونه مجـرّد الدّعاء والاسـتغفار، ثـم سـيهاجرون جميعًـا من هنـاك، في الغالـب، سـيتركون المدينة ترعى فيـه الحيّـات، أو يقـضي الله أمرًا آخـر، المهمّ أن ينجوا بأنفسـهم، بالطبع سـيتركون رجلًا وحيدًا، رجلًا لا يخشـى الحيّـات، فالحيّة دليله في عوالم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العتمة وعـوالم التّيه.

سـأظلّ معتكفًا في المدينة، كلّ الذي يعنيني الآن أن أسـتطلع الأسرار التـي طواها الضّريـح بين أحشـائه، وأُوصد عليها.

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

شمس الدّين التبريزي

قونية/ الأناضول -٦٤٢ هـ

(بأيِّ ماءٍ يمكن تطهير أدران النفس؟! اللّهم إلا بماءِ المدامع).

This file was downloaded from QuranicThought.com

This file was downloaded from QuranicThought.com

الثّلوج تكسو هامات الجبال البعيدةِ، وتسبح كهوامِ قطنٍ بيضاء بدوران البصر، أسند العصا على خشب السّور المُتهالك، وأقف شاخصًا بعينيّ وجهةَ السّماء، وأراقب أسرابِ الطّيور الهاربة من قسوةِ الصّقيع، أرى بعضَها يهوي من السّماء وقد تراخى جناحاه في استسلام، بينما يمضي بقيّة السّرب لا يلتفت للسّاقطين، أحتوي عناصر الاتّصال مع الطبيعة أسفل بصري، كلّها عناصر تصلح للاتّصال أيضًا مع الله، الرّيح والشّجر والجبل والتّربة والبشر، يُمكن أن تستخرج منهم حقول اتّصال لا نهائية، إنّما عليك أن توجّه رُوحك لهذا.

من بين سحابات الثّلج المتناثرة في الأفق تتسلّل حِزمٌ من ضوء الشّمس على استحياء، تضرب قلب الأرض في تكاسلٍ، وأساءل نفسي: هل خفتت حِزم الضّوء المنبعثة من قلبي أنا أيضًا؟ بالأمس كانت أشدّ توهّجًا وحماسًا، ما الذي أصابها اليوم؟ هل لتشابه أيّام هذه المدينة دورٌ في هذا؟ رغم أنّ حالة الاتّزان الرّوحي فيها أكبر من كلّ المُدن التي ارتحلت عبرها، ورغم أنّ أنفاسي تهدّجت هُنا، لكنّ شيئًا ما يجعل الصّباح يمضي في بطء، واللّيل يطول، يجعل السّماء تبدو منخفضة وشائهة.

أعود ببصري إلى الغرفة، كان «شاهين» نائمًا على ظهره يشخّر، وإن زيّنت وجهه أمارات النّور، أدبّه بالعصا، فيصحو مبتسمًا، يقول:

- هل تأخّر الوقت يا مولاي؟

- إنّما تأخّر بنا التأمّل يا درويش، تعال ننزل إلى الشّوارع.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

سند راحته على كتفي ونحن نهبط الدّرج الخشبي الذي تئزّ أخشابه، كان الخان مليئًا بالسّكارى، وبدوت أقرأ همّ كلّ واحد، معظم هؤلاء أسكرهم العِشق قبل أن تُسكرهم الخمر، وكان يتنطّط في منتصف الخان بهلونٌ من بلاد إفريقية، وكان السّكارى يصفّقون له في انتشاء، له قردٌ كان يقلّد حركاتهم، يرفع يده كأنّه يجرع قنّينة نبيذٍ، فيتضاحكون، أو كان يكشّر بملامحه ويتجشّأ، فبدا الخان زاخمًا ومزدحمًا رغم أنّنا لم نزل بساعاتِ الصّباح الأولى، قلت: لعلّهم سُكارى الأمس.

أزيح بعصاي بعض الأجساد في رفقٍ لأتحرّك، نخرج إلى مُحيط الشّارع الغارق في الثّلج، وهواءٌ خفيف يحزّ وجهينا، رفعت عينيّ إلى أعلى، بضعُ نساءٍ واقفات في الشّرفات يسرين عن أنفسهنّ بمراقبة حركة الطّريق، وغيمٌ يزحف بتؤدة ليعبر رؤوس البنايات فيختفي، ورائحة مسكٍ تلتقينا، آتية من بعض محال العِطارة القريبة.

تحت شجرةٍ باسقةٍ عند آخر الطّريق جلست، فجلس «شاهين» جواري، وهو يقول:

– لم تُجهَد أجسادُنا بعد كي نسترح يا مولاي.

– عيبُك أنّك لا تتبع إلّا منشأ حواسك، ولا تتبع منتهاها، يا «شاهين» يُمكن أن تُجهَد الرّوح من مجرّد تأمّلٍ عابرٍ، بل يُمكن أن تُجهِدها ذكرى مارقة، هذه الشّجرة استدعتني للجلوس، فلبيّتُ.

– وهل تُقارن حواسي القاصرة بحواسك يا مولاي؟

– لأنّك تحبسها رغمًا عنها، أطلقها، أفرج عنها، اترك لها العنان

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لتستقم، سوف تمنحك حواسك ما هو أكبر من الخيال والتصوّر.

- ليتني بلغت مبلغك من العِشق يا مولاي.

- ما كشف العشِق إلّا لحظة، ستجدك متبرّئًا من أصل هذا العالم، لكنّك لا تصبر، فضيلة الانتظار أعظم الفضائل يا «شاهين».

وأمسكت يده، قلت:

- ضع يدك فوق الثّلج.

وضع يده، في لحظة تحوّلت يدُه لمسبارٍ ينخر في عمق الثّلج، ثمّ انفجرت عينُ ماءٍ، ففُزع، قلت:

- هذا عشقٌ.

ثم قطفت غصنًا من الشّجرة، تحسّست به على وجهه، وفي لحظة تحوّل الغصن لأصابع تمسّد شعر رأسه ورقبته، انتفض، وصاح:

- ما هذا يا مولاي؟

- هذا عشقٌ أيضًا.

ثم أضفت:

- العشق هو الذي يبدّل ماهية الأشياء بين يديك، كلّ الأشياء يُمكن أن تتخلّص من ماديتها إن أمرتها من دافعِ العِشق، الخلاصة في العِشق يا «شاهين».

انقضى النّهار وأنا أستمع لحكايات الشّجرة، كم ذبيحًا نُحر تحتها وكم عاشقًا تضرّع إليها، كم مجنونًا طاف في رحابها، وكم من الأزمنة حطّ عليها وفنَى!

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قطفـت وردةً قبـل أن أغـادر، وعرّجـت عـلى الخـان، جلسـت قليلًا عـلى إحـدى المناضـد، وخاطبـت صاحـب الخان:

- كأس فارغة فقط.

هزّ كتفيـه وأحضر الكأس، وضعها أمامي ووقف يراقبني، غمسـت الـوردة في فـراغ الـكأس، وتركتها، كانت الـوردة تتحـوّل بالتدريج إلى نبيـذٍ، فغـر صاحـب الخان فـاه، امتـلأت الـكأس بالـشّراب، فوضعته على فمـي ورحت أرشـف، صـاح الرّجل:

- يا لجنونِ الدّراويش!

فقلت:

- إنّما هذا هو العِشق الخالص، أن تأمر كُن، فيكون.

- وما أنت إلّا بساحر يا مجهول النّسب.

- نسبي إليه وبه، نسبي لغير ابن «آدم».

- زد من تجديفك ومجونك، والله سترى أيّامًا غبراء في السّماء.

- تُـرى، كيـف يُمكـن أن نحكم على البـشر من مظهرهـم؟ السرّ في الباطن وليـس الظّاهر يـا رجل.

- وكأنّك أحطت بالأسرار!

- بل أحاطت بي.

وحملـت الـكأسِ وصعـدت بهـا، قلـت بـسرّي: اللّيلـة سـتأتي رؤيا عظيمة .

* * *

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في المنامِ نهرٌ مهجورٌ، وببّغاء.

قبيل ضحى الحلمِ، أجلس وببغائي على ضفّة النّهر المهجور نتصفّح وجهينا على مرآته، فنبدوان متشابهين تمامًا، ثم أبتسم، يرفع الببغاء عينيه نحوي فيرى ذات الإطلالة، بدوره يبتسم، لكنّي أنظر ثانية للمرآة فلا أجد سوى وجه الببغاء، ولأنّ حقيقة المرآة أنّها قد تخدع، وقد تصوّر ما هو دون الواقع، لم يبد عليّ أنّي أهتم، بل أشحت بوجهي بعيدًا عن سطح الماء واستقمتُ واقفًا والببغاء يداعب لحم كتفي، ثم مضيت عن النّهر محدّثًا نفسي أنّ السبب في كونه هجرته الوجوه، ليس المقابر التي تعيش على ضفته، وليس لون مياهه الأسود، على قدر ما يرجع السبب لطبيعته الكاذبة التي تلفّق انعكاسات الوجوه.

والمقابر التي تتناثر قريبة من النّهر مقابر يتناقص عددها يومًا بعد يوم، رغم ذلك فإن اخضرار شواهدها يتكاثّف كذلك يومًا يليه يوم، الشواهد تمتصّ من ضفّة النهر لون الحياة الأخضر فتتركها يابسة، وتبدو - وهي تستضيف هذا اللّون الأخضر فوقها- كحديقةٍ مبهجة، لابد أن يزورها النّاس، أن ينعموا بجمال منظرها، إنّما النّاس — ناس المدينة- لا يعرفون عن جمال الطبيعة سوى بنايات تعِسة يدورون بداخلها، وأسوار متينة تحميهم من سطوة العالم.

آخذ نفسًا عميقًا، وببطء أرفع عن أرض الحديقة قدمي، لويتُ رقبته ناحية الببغاء، كان الملل قد أجهز على ملامحه، قلت في نفسي: أنت ثرثار بطبيعتك، لتقل لي شيئًا. غير أنّ الببغاء -على غير عادته-

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كان صامتًا، وكان ينظر بشيءٍ من اهتمام وتحفّزٍ أمامه، وبشيءٍ من ترقب وكثير من خوف، استدرتُ أنا الآخر، فتسمّرتُ قليلًا، إذ أنّ الأرض كانت تنبلج، وتخرج منها ذراع عظمية، تخمش أصابعها الطّين وتتحامل عليه لتخرج، شيئًا فشيئًا تخرج، شيئًا فشيئًا تظهر رأسٌ صلعاءٌ تمامًا إلّا من بضعة شعيرات جافة يغطّيها ترابٌ أزرق اللّون -لعلّه نفس التّراب الذي اختلس زرقة مياه النّهر وتركه معتمًا- ثم يكون تجويف العين، المعتم الخاوي العميق، فالأنف الصّلبة، فالأسنان المتآكلة، بعدها يشبّ الجسد النحيل أمامنا فنتراجع قليلًا إلى الوراء، لا لخوفنا من منظر المومياء المغبّر البالي، لكن من ابتسامتها المريبة التي قابلتنا بها.

عن عظام صدرها نفضت الغبار، وبخطوات أشبه بخطوات راقصة كانت تدنو، فيزداد بالأرض تحجّرنا، وبصوتٍ ناعم قالت:

- موعدي مع المرآة.

لم يكن هناك بديلٌ عن الرّجوع إلى مرآة النهر -كان هناك الحافز الأشبه بأمر نفسي، لا يجوز مخالفته ولا تقوى الإرادة على هذا، لم يكن هناك بديلٌ عن الرّجوع لمياهِه السّوداء الرّاكدة بلا حراك، وأكاذيبه السّخيفة، لم يكن الفرار طرحًا، كما لم يكن التسمّر حلًا، فاستدرنا، ومعنا المومياء، وانكفأنا نطالع على صفحة المرآة وجوهنا، مثلما أخذت تطالع المرآة أيضًا وجوهنا، وكم يكون الكذب منجاة هذا الوقت؟ فالحقيقة تعني -بشكل مفاجئ- أن يبدو في المرآة وجهان، المومياء والببغاء، ووجهي، ثالث الوجوه، يختفي، فيعتريني توجّس،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وأنهض، محاولًا بقليلٍ من أملٍ وكثيرٍ من يأس، أن أحتفظ بالببغاء على كتفي، غير أنّ الببغاء بسرعة ينصرف عنّي، ويربض فوق كتف المومياء، مهلّلًا:

- إلى المدينة.

فتلتفت إليه المومياء مبتسمة، وتمضي داخل النهر، وببغاؤها على كتفها، وأُدرك أنّي لم أعُد رهين هذه الحديقة، فالنّهر إذ ينفرج، وتبين فجوة غائرة، أدرك أنّي لا بدّ أن أتبع المومياء إلى المدينة التي تعيش داخل النّهر.

وكذلك حتمًا ستتناقص القبور قبرًا.

❋ ❋ ❋

تصطخب الرؤى يومًا بعد يومٍ، أشعر أنّي أقترب من الوصولِ إلى السرّ الأعظم الكامن في قلب العِشق.

❋ ❋ ❋

الله، وملائكة، نور وبخور، السّماء خضراء اللّون، الأرض كلّها تتحوّل إلى شجرةٍ وارفةٍ، الشّجرة تتراقص، تفرد أغصانها فتسرح نحو فراغات الكون، تنفجر جميع الشّموس وتصبح عينًا كُبرى تُطلّ عليّ وتدعوني، أقفز، أسير على سحابةٍ فأخرى، وحولي كروان يغرّد، وسمكةٌ تسبح في الهواء، وأنظر إليّ فلا أجدني، أسمع صوتي ينادي عليّ من هناك: اقترب.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

عباءة هائلة، بحجم الخيال، تنفرد وتحتويني، أسمع صوتًا:

- ألم أخبرك؟

أحاول العثور على منبع الصّوت، دون جدوى، وفي سديم العباءة أتحرّك، كرُوح كونية كُبرى سيُخلق منها عالمٌ آخر، وفجأة، يظهر أمامي، يهمس في خلايا عشقي:

- ألم أخبرك؟ لقد التقت طريقانا.

* * *

أصحو على جلبةٍ بالطّابق السّفلي في الحانة، أكبّ ماءً فوق وجهي، وأنتبه للّغط الدّائر في الأسفل، ثرثرة، وصياح، وعراك، أهزّ «شاهين» بقدمي، فيستفيق بدورِه، أسحب عصاي، وأهبط، وثمّة بنتٍ محشورة بين صاحب الخان وأحد الجُند، وصفّ من الجنود يقفون يسدّون باب الخان، البنت بدت مذعورة، ترتجف، والدّمع ملء وجهها، وكانت جوقة الغجر اللذين يعزفون الأراغيل قد توقّفت، والخان عامرٌ هذه السّاعة بالمسافرين الرّحل، والحجّاج «الزرادشت»، والجواري والنّخاسين.

سوطٌ في يد الجُندي، يهبط به على جسد البنت، ولم يكن أحدٌ يزود عنها، فُزعت، فقفزت ووقفت بينهما، حدّق فيّ صاحب الخان ثمّ سحبني، وهتف:

- مال الدّراويش ومال هذا الحديث؟

- من فضائل الإنسان الرّفق بأخيه الإنسان.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

- دع تجديفك وجنونك يمضيان عنّا، الأمر لا يعنيك.

- الله أمرنا أن نعمر قلوبنا بالرّحمة، كيف يُمكن أن يفتري القوي على الضّعيف في عالمٍ لا قوّة فيه ولا بأس إلّا لله؟

مال على أذني يهمس:

- إنّها جارية، هربت من بيت الحاكم، ولكنّها هربت بمصيبة.

وانتظر قليلًا يستشفّ وقع الأمر عليّ، فأكمل:

- إنّها حُبلى من ابن الحاكم.

ولكنّهم في سرعةٍ بدؤوا يجرّونها، حاولت الصدّ عنها، وإنّما الزّحام أعاقني، هرولت وراءهم، وفي الشّارع، في منتصف الطّريق، تجمّع المارّة الغرباء، وتجمّع أصحاب الحوانيت والمحال، وقد بدأ الجنود يربطون البنت بين غصنين بالحبال، تدّخلت، فدفعني أحدهم بقدمه، ورفع سوطه وهبط على البنت، ارتميت عليها، فصرخ:

- ابعدوا هذا الدّرويش الملووث وإلّا جلدته..!

لكنّ أحدًا لم يقترب، غير بعض الجُندِ، فاستمتّ فوق جسد البنت، والسّوط يسقط على رقبتها، صحت في ألمٍ:

- ماذا تفعل؟

ولم يسمعني، استأنف ضربه بالسّوط، فحرّكت جسدي للأعلى قليلًا، واستقبلت لسعات السّوط نيابة عن البنت، ورحت أصرخ:

- ليس للإنسان أن يبغي.

واحتضنتها، فحاوطني الجنود وحاولوا أن يُبعدوني، لكنّ رُوحي

This file was downloaded from QuranicThought.com

كانت مكلبشةً على جسد البنت المسكينة، وهي تئن، ورأسها مرتخية فوق كتفها، والسّوط يضرب بلا هوادة، والنّاس تهمهم، وتثرثر، و«شاهين» فقد التركيز، فراح يبحث عنّي بيدين عاجزتين وسط الهرج والمرج، إذ لم يُرشده اختلاط الأصوات لمكاني.

وعمّمت بصري على الأجواء، بدت مُستهلكة، احتويتها في نظرةٍ كُبرى، في لحظة، والسّوط يهبط على ظهري، ولا يصعد عنه إلّا بدم.

بدت ملامحُ شمسِ النّهار العفيّة في وجه السّماء المليحِ كجدائلَ مِن ذهبٍ مغزولةٍ في أَنَاةٍ وفي صَبر لا يَعرف الكَلَل، ورغم ذلك تُصِرّ أن تُضفي على المشهد سَقْفًا مِن الألغاز.

بانت بشائرُ النّور، عند أن راحت الأشجارُ تتثاءب، وتنفض عن كواهِلِها غطيطَ العصافير المتدثّرة بأوراقها، رَيْثَما تَجيء مركبُ الشّمسِ في أوجّ طلّتها، وبدا مَجرَى النّهر المتغضّن، الموحِي بالتهالكِ الآزف، الآخذ في السرسبة ببطءٍ وخمول مِن تحت الأقدام، كأنّه يجري نحو نهايةٍ مقدّرة سلفًا؛ طالما بدا كذلك كلّما استيقَظَ صباحُ المدينة وأحيى قلوبَ الناعسين.

«إنّما لا المَجرى ينتهي ولا الزّمن أيضًا».

قلتُ في سرّي وأنا أتلقّى ضربات السّوط بعزمٍ.

في الأفقِ الذي هناك عند مَرمَى البصرِ القريبِ تتشكّل سُحُبٌ مِن غبار، وحلقاتٌ مِن بَشَر، مِن صوبِ الأفقِ تأتي أصواتٌ متخالطة لا تميّزها أُذُن، حافّةُ ضفّة النّهر متعرّجةٌ تملأها تكتّلاتُ الحَلْفَاءِ المسنونة، والطريقُ مليئةٌ بالحَصَى والطين، تخبُّ فرسٌ قادمةٌ من غيبة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الأفـق، تحـاول نـزْعَ حوافرِها مِن فخّ الطّـين اللّزج، فتتقافـز كُتَلُ الطينِ لأعـلى، ثُـم سرعان مـا تحطّ أسـفلَ أقـدام النّاس.

هديـلُ حَمَـامٍ خافتٌ يَجيء من سـطح بيتٍ واطئ، يتخلّلـه صياح ربّة بيتٍ.

ومـن أول الطّريـق، يُقبِـلُ جمعٌ، يدلـف إلى حلقة الجنود، وفي وسـطِه هالةٌ، ينقسـم الجنـود، تنفرج الحلقة رويـدًا، وعلى فرسٍ صهبـاءٍ يدخلُ نحونـا كنبـيٍّ مـن زمـنٍ غرائبـيّ، حولـه مريـدوه، فتتلجّـم الأفـواه، ويرتخـي السّـوط أرضًـا، يهبـط من فـوق الفـرس، يسـتطرد في غضبٍ بصـوتٍ رخيمٍ:

- حتّى الدراويش يُجلدون في هذا البلد يا جُند الحاكم؟

ألتفـتّ إليـه، يغمرني نـورُه، وبعدما أحطت جسـد البنت بجسـدي، أنفلت، أصرخ في نشـوةٍ وعشـقٍ وجنون:

- مولانا، ها قد التقت طريقانا.

وبذراعيّ؛ وفي شوقٍ عظيم، طوّقته.

ثـمّ يمتـزج جسـدانا، ولا أعـرف، هـل ركع الزّمـن تحت قدميـه، أم صـار الكون خاتمًـا طـوع إصبعه؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مولانا شمس الدّين الرّومي

العدم –&

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ذُب، لا تهمّك الأسماء، في هذه اللّحظة؛ في هذه اللّحظة بالذّات، نحن خارج حدود الوعي، إنّ التوحّد هو سرّ العِشق الإلهي، هو الحقيقة المُطلقة، الحقيقة التي ليس قبلها ولا بعدها حقائق، أنا وأنت، «شمس» و«جلال»، أو «جلال» و«شمس»، أو روح العِشق، أو كلّ الأسماء مُدمجة، لا يهمّك، في حلمٍ قديم رأيتنا نحرق كلّ شيء، نحرق أنفسنا، اليوم علينا أن نُعيد الزّمن قليلًا، كي لا يحترق جوهر الحقيقة، هل تراك؟ لا تندهش، عدد غير محدود من النّسخ يحوّم حولك، إنّها ليست أطيافًا، إنّها أنت، بتفاصيلك، كأنّ العالم بأسرِه تحوّل إلى دائرة من المرايا، واجه انعكاساتك، كي نستطيع ضبط ميزان العالم من جديد، امسك الشعلة، احرق كلّ الكتب أولًا، ودع الحروف تتطاير، كلّما اشتعلت الكتب، تطايرت الحروف، الحقيقة الوحيدة الأزلية سوف تتبقّى في كتابٍ أوحد، هو الذي سينجو من النّار.

اطو الأرض، ستنطوي بسهولة بين يديك، الأرض لم تكن يومًا كروية، هذا عبث، الأرض يا درويش الدراوشة مسطّحة، ولكن بامتداد اليقين، اسرح بيقينك ستسرح معك الأرض، يُمكنك أن تُعيد تشكيل أجزائها المفكّكة كيفما شئت، إنّما إيّاك والعبث بالزّمن، خصوصًا الماضي، بقاء الإلوهية مرهونٌ بالزّمن، أعلم أنّ باستطاعتك طيّ الزّمن أيضًا، ولكنّنا سنفعلها لمرّة استثنائية، لأجل أن نحافظ على روح الحقيقة بلا مساس، ثمّ سنلبس هيئاتنا البشرية ثانيةً.

ابسط يدك، استدع قوى البرق بين يديك، ستهبط الأضواء والأصوات والنّجوم والكواكب والمدارات والأفلاك والأجرام

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

والشّموس كلّها بين يديك، وأُنظر لها وهي تتضاءل وتمنحك سرّها، فأنت واضع السرّ، وأنت صاحبه، انتشر فوق ألف فكرة عدمية، وامنح البشر إحساس اليقين، اجعلهم يشعرون بمعنى الحياة.

أجل أعرف أنّك مِتّ، ولولا موتك ما كان خلودك، افتح فجوة تحت قدميك، واجعلها تتّسع، لتسحب كلّ ما هو مادي وتستخلص الأرواح، النّواة أصل المادة، وعقلك هو نواة الكون، وروحك هي الأثير الذي يسري لكي ينغّم الإيقاع، فإذا أمرت كان كلّ شيء بين يديك، وكان إلهم طوع بنانك.

حرّك الجبال، حرّك الأنهار، البّحور ستفيض، سيملأ الماء حِجر السّماء، وستصبح الأرض كُتلة من صلصال بين يديك، شكّلها، ابتدع تقويمًا جديدًا للإنسان، أو اصنع كائنًا آخر، لا يتمرّد عليك.

عُد بالزّمن لحظة بلحظة، امح ما استطعت من مخلوقات، عُد أكثر، فأكثر، هذا نبيٌّ قديم، اجعله فراشةً واشطبه من سجّل التّاريخ، بالطبع لم ينفع هذا النبيّ مسار البشرية في شيء، لقد راهنت على مُلهم خاسرٍ، عُد، ستجد أرضًا بلا حضارات، ستجد بشرًا بلا مأوى، عُد، ستجد الدّماء تجري في الأنهار، ستجد ولدًا يقتُل ولدًا آخر، تمثّل في هيئة غراب، وشقّ بطن الجبل، علّمه كيف يواري سوأة أخيه، عُد وعُد، ستجد ضوءًا منتشرًا بفوضوية في أنحاء الكون، أغمض عينيك فقط، واجل الضّوء، وقد تجد عرشًا منبسطًا في انتظارك.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

هيّا اجلس عليه..

اجلس على عرشك.

تلك قواعد العِشق الأربعون؛ مجرّد حروف، إن أحرقتها، تطايرت هي الأخرى، وسيتبقّى كتابٌ أوحد، صدّقني، كتابٌ أوحد يا رفيقي.

هل تعرف اسمه؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المراجع:

١- الذّهبي –تاريخ الإسلام.

٢- ابن الأثير –الكامل في التّاريخ.

٣- بديع الزّمان فروزا نفر –حياة مولانا جلال الدين محمد– المشهور بـ(مولوي).

٤- قواعد العشق الأربعون– شمس الدّين التبريزي.

٥- المثنوي –مولانا جلال الدّين الرّومي.

٦- رباعيات مولانا جلال الدّين الرّومي.

٧- موسوعة ويكيبيديا.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
This file was downloaded from QuranicThought.com